

رَبِيعُ الأُنْسِ

في أسرار الفاتحة لتزكية النَّفْسِ

تأليف

الدكتور الشيخ محمد عادل عزيزة الكيالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أخي في الله تعالى قارئ كتابي أعلى الله قدرَكَ في الدارين.

رجاءً: اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في هذا الكتاب، وأهدِ ثوابها إلى العلامة، العارف بالله تعالى، الوارث المحمدي، الزاهد، الورع، التقي، النقي، سيدي: الشيخ محمد أديب حسون، رحمه الله تعالى، ورضي عنه، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة.

ثم إلى روح والديّ الكريمين رحمهما الله تعالى رحمة واسعة يعجب لها أهل السموات والأرض، رحمة تبدل بها سيئاتهما حسنات، وتجمعهما الآن مع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم سيد السادات، وتنزلهما بها عليّ المقامات، آمين.

المؤلف

بين يدي

«الموسوعة الكيالية في حب الله ورسوله ﷺ»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فقد بدأت بالكتابة في عام 1988 وأول ما قمت به تأليف كتاب «أحكام الطهارة والصلاة على مذهب الإمام الشافعي» وتتابع والله الحمد التأليف حتى وصلت بإذن الله تعالى في عام (2011) إلى أكثر من ثلاثين مؤلفاً، ولقد تزايد الطلب على مؤلفاتي، وذلك نظراً لما امتازت به من الوصول إلى المعلومة الصحيحة بيسر وسهولة، وكونها في الغالب تطبع على حساب أهل البر والفضل، مما جعلها سهلة التداول بين طلبة العلم، ولقد ألح الكثير منهم الحصول على جميعها ليستفيدوا منها، وبخاصة أنها تناولت المشاركة في أكثر من علم واختصاص، ففيها التفسير والحديث والفقه والفكر الإسلامي والتزكية والعقيدة.

ولما اطلع الجهد الحَبِيرُ العلامة الأستاذ الدكتور هاشم محمد علي ابن حسين مهدي - حفظه الله تعالى - المستشار وخبير الدراسات في رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة - على الكثير منها، رأى جزاءه الله خيراً أن يَتِمَّ تحقيق هذه الأمنية لطلبة العلم وجمعها في موسوعة واحدة، والقيام

بطباعتها بمجهوداته الميمونة، وسعيه المبارك، ليتسنى للقارئ النّهم منهم حيازتها والإفادة منها، ولقد ألهم الله سبحانه وتعالى الأستاذ الدكتور هاشم حفظه الله تعالى اسماً لهذه الموسوعة ورأى أن تصدر باسم «الموسوعة الكيالية في حب الله ورسوله» فبادرت بالموافقة فوراً، وبخاصة أنه إلهام مبارك من رجل مبارك، هذا ولقد عرفت الأستاذ الدكتور هاشم حفظه الله تعالى عن قرب، فرأيته قد ملئ علماً، وفهماً كبيراً لأذواق أهل المعرفة والشهود واليقين، فهو يتكلم في أي موضوع من مواضيع العلم والتزكية والمحبة لله ورسوله، بعفوية متناهية دون تكلف أو مشقة، وهذا حال من يتكلم وقد مكنه الله سبحانه من فهم وهضم العلوم الشرعية والذوقية والسلوكية، واستحالت عنده إلى سلوك وعمل وممارسة يومية، وقد متعه الله سبحانه مع كل هذا بخُلُقٍ جمٍّ رفيع سامٍ، وبسمة لا تفارق ثغره، ويد لا تملُّ من العطاء وهي لا تزداد على العطاء إلا سخاءً، يصدق فيه ما قاله الفرزدق في جده سيدنا علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه، وكيف لا وهم ذريّةٌ طيبةٌ بعضها من بعض:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقي الطاهر العلم
عم البرية بالإحسان فانقشعت	عنها الغيابة والإملاق والظلم
كلتا يديه غياث عم نفعهما	تستوكفان ولا يعرفهما العدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره	يزينه اثنان: حسن الخلق والشيم
لا يخلف الوعد ميمون بغرته	رحب الفناء أريب حين يعتزم
ما قال لا قط إلا في تشهده	لولا التشهد كانت لاءه نعم

إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا
يَكَادُ يَمْسُكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ
يَغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ
يَنْشِقُ نُورَ الْهَدْيِ عَنِ نُورِ غُرْتِهِ
مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وَبَغْضُهُمْ
إِنْ عَدَّ أَهْلَ التَّقَى كَانُوا أُنْتَهُمْ
لَا يَنْقُصُ الْعَدَمُ بَسْطًا مِنْ أَكْفَهُمْ
هَمُّ الْغِيُوْثِ إِذَا مَا أَزْمَةُ أَزْمَتِ
مَقْدَمُ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرَهُمْ

إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
رُكْنَ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَسَمُّ
كَالشَّمْسِ تَنْجَابَ عَنِ إِشْرَاقِهَا الظُّلْمِ
إِثْمٌ وَقُرْبُهُمْ مَنْجَى وَمُعْتَصَمٌ
أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ
قِيلَ هُمْ
سَيَانُ ذَلِكَ أَنْ أَثَرُوا وَإِنْ عَدَمُوا
وَالْأَسَدُ أَسَدُ الشَّرِّ وَالْبَأْسُ مُحْتَدِمٌ
فِي كُلِّ أَمْرٍ وَمَخْتَوْمٌ بِهِ الْكَلِمُ

وإذا نظرت إلى فضيلته حفظه الله تعالى عن قرب ومعاشرة رأيت
أخلاق وشمائل وأنوار جده ﷺ تتلأأ في وجهه ، وسمته يذكرُك بحديث
البخاري الذي أخرجه عن أبي بكرٍ رضي الله عنه ، قال : «ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ
بَيْتِهِ» أي : راقبوه وراعوه واحفظوه فيهم ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِحُبِّهِمْ وَتَوْقِيرِهِمْ ، وقال
بعض العلماء : ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ أَي : إِنْ غَابَ عَنْكُمْ شَخْصٌ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ فَأَبْنَاؤُهُ يَحْمِلُونَ الْكَثِيرَ الْكَثِيرَ ، وَالطَّيْبُ الْغَزِيرُ ، مِنْ سَمْتٍ وَأَخْلَاقٍ
وَأَنْوَارٍ جَدُّهُمْ ﷺ ، وَهَذَا وَاضِحٌ وَبَيِّنٌ فِي مُحَيَّا وَطَلْعَةِ سَيِّدِي وَقَرَّةِ عَيْنِي
الأستاذ الدكتور هاشم حفظه الله تعالى ورحم الله القائل :

وَبُوجْهِهِ نُورُ النُّبُوَّةِ سَاطِعٌ يَغْنِيهِ عَنِ ظَهْرِ الطَّرَازِ الْأَخْضَرِ
وَلَقَدْ أَكْرَمَنِي سَيِّدِي الْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ هَاشِمُ حَفْظَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِكْرَامِيْنَ
عَظِيْمِيْنَ : الْأَوَّلُ : تَشْرَفْتُ بِأَخْذِ الْإِجَازَةِ الْعِلْمِيَّةِ مِنْهُ عَنِ مَشَايِخِهِ فِي جَمِيْعِ

العلوم النقلية والعقلية والذوقية والوجدانية، فجزاه خيراً، كما تفضل عليّ
وقبل مني إجازتي له في جميع ما أجازني به مشايخي في علم المعقول
والمنقول، وذلك من فرط تواضعه الجَمِّ الوافر، وهو من باب رواية الأكابر
مثله، عن الأصاغر مثلي.

والإكرام الثاني: ما خطه يراعُ بنانٍ فضلهِ وقلمه، من تصدير ماع
حافل بالثناء الحسن الجميل لهذه الموسوعة المباركة، ولجامعها العبد
الفقير بتقديم أَشْرُفٍ وَأَتْشَرَّفُ به إلى يوم القيامة، ويمكنني القول بأن الأستاذ
الدكتور هاشم حفظه الله تعالى نظر إلى مرآة نفسه فرأى في ذاته من آيات
ربه الكبرى فأضفى كل ذلك عليّ، وإن كنت لا أجد نفسي أهلاً لذرة ممّا
ذكره فيّ.

اللهم أكرم أخي الأستاذ الدكتور هاشم واجزه الخير عني وعن أمة
جدّه سيدنا محمد ﷺ مليار مرة، على تفضله بتبني طباعة هذه الموسوعة
المباركة، وعلى القيام بطباعة الكتب القيمة النافعة للعلماء الفضلاء من
شتى أرجاء المعمورة، وأمدّ في عمره، وبارك له في أهله وماله وأحبابه آمين
يا أرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين

محمد عادل عزيزة الكيالي الرفاعي

إمام وخطيب جامع السيدة نفيسة

حلب - سورية

في 7/شوال/1432هـ

الموافق 2011/9/5م

تصدير الأستاذ الدكتور هاشم محمد علي مهدي
خبير الدراسات والمستشار برابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة



الحمد لله الذي جعل إرث الأنبياء العلم والحكمة، والصلاة والسلام على تاج النبوة، الجامع لكل علم وحكمة، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وورثته إلى يوم القيامة، أما بعد:

فلقد شرفني أستاذنا الفاضل، العالم العامل، والمربي القدوة، الذي نال الحظ الوافر من علوم الأوائل والأواخر، الشيخ الدكتور محمد عادل عزيزة الكيالي بأن أترجم له ولمجموع مؤلفاته، ذلك المجموع المبارك الذي سمّيته بالموسوعة الكيالية في حب الله ورسوله، فبادئ ذي بدء، أود الإشارة بأن المؤلف ومؤلفاته، وكذلك الذين هم على شاكلته، معروفون تمام المعرفة للقاصي والداني، وليسوا بحاجة إلى تقديم من أحد، أيًا كانت صفته، ولكن بتمهيدي لهم صرت معروفًا بعد أن كنت منكرًا، وبعد ذلك أقول وبالله التوفيق:

الدكتور محمد عادل عزيزة الكيالي: هو من مواليد حلب عام/1960/ درس الإعدادية والثانوية في دار نهضة العلوم الشرعية (الكلتأوية)، وحاز على إجازة الشريعة من جامعة دمشق، وحاز على الدكتوراه في الحديث الشريف من جامعة الأزهر، عمل أستاذًا جامعيًا في الإمارات من عام (1987 - 2004) وكان خطيبًا لتلفزيون دبي على القناة الفضائية.

ويعمل حالياً إماماً وخطيباً ومدرساً في جامع السيدة نفيسة والجامع الأموي الكبير في حلب، ويعد الآن أحد خلفاء المرحوم فضيلة العارف بالله والمربي الكبير الشيخ محمد أديب حسون رحمته الله في الطريقة النقشبندية إذ أجازه في حياته بالورد العام والخاص وبإدارة الختم الشريف بما أجازه به شيخه الشيخ محمد النبهان الحلبي وشيخه الشيخ عبد الباسط أبي النصر خلف الحمصي رحمهما الله تعالى .

ورأيت في موقع روض الرياحين على شبكة الانترنت في تعريف فضيلته: هو العالم العلامة مفخرة الوقت مقدم السالكين ومربي المريدين القبضة النورانية وزينة الديار الحلبية الشريف محمد عادل عزيزة الحسيني الكيالي الحلبي الشافعي النقشبندي .

قطع مقامات السلوك على يد العارف الغارف سيدي أديب حسون وعليه تخرج واليه ينتسب . فاعتقادي هو أن ذكر سيدي النبهان رحمته الله يلزم منه ذكر أنواره وحسناته ومن أجلها خليفته العارف الغارف سيدي أديب حسون رحمته الله وهو الذي كتب كتاباً في مناقب شيخه النبهان هو: «آلاء الرحمن على عبده النبهان» وكذلك نذكر السالك المسلك شيخ المريدين سيدي عادل عزيزة الكيالي الذي لم يترك القيام بالختم جماعة ويدعو ويهدي الفواتح مع الجالسين لسيدي النبهان وللسلسلة النقشبندية كلها ويقيم الذكر داعياً لسيدي النبهان وجدد عليه البيعة والعهد كثيرون من الذين أخذوا العهد على سيدي النبهان ووقت وجوده خارج حلب في سفرته كان أهل هذه البلاد من النقشبندية من أتباع سيدي النبهان بخاصة من الحلبيين أتباعاً له ومريدين له ويحضرون الختم عنده .

انتصب للقيام بأعباء السادة النقشبندية وإقامة الختم ومجالس الذكر بدولة الإمارات لمدة خمس عشرة سنة وانتسب إليه كثيرون من المريدين من شتى البلدان العربية وغيرها، وقام بواجب التسليك والتربية، وقد رجع إلى بلده حلب بأمر شيخه وبلطافة نورانيته ليتجلبب الخلافة الختمية وهو يقوم بالدرس والخطابة والتدريس ومجلس الختم وتسليك المريدين، وللدكتور المترجم له مؤلفات عدة:

1. الروض الباسم في شمائل المصطفى أبي القاسم عليه السلام. ط/8
2. أحكام الطهارة والصلاة على المذهب الشافعي. ط/3
3. أحكام صلاة الجماعة والجمعة في المذهب الشافعي. ط/2
4. أحكام الصيام ومسائل مهمة في الزكاة فقه مقارن. ط/3
5. عقيدة الإمام الحافظ ابن كثير في آيات الصفات. ط/4
6. عقيدة الإمام القرطبي في آيات الصفات. ط/2
7. عقيدة الإمام ابن عطية في آيات الصفات. ط/2.
8. عقيدة الإمام الشوكاني في آيات الصفات. ط/3.
9. عقيدة الإمام العز ابن عبد السلام في آيات وأحاديث الصفات. ط/2.
10. عقيدة الإمام الحافظ الحافظ النووي في أحاديث الصفات ط/3.
11. عقيدة الإمام الحافظ ابن حجر في أحاديث الصفات. ط/3.
12. عقيدة الإمام الحافظ البغوي في أحاديث الصفات. ط/1.
13. وقد جمعت هذه الرسائل الثمانية المتقدم ذكرها في مجلد كبير وأسماء

(عقيدة السلف الصالح في آيات وأحاديث الصفات) طبع ونشر دار
البشائر في دمشق.

14. الفرقة الناجية هي الأمة الإسلامية كلها. ط/15
15. محاضرات في أحاديث الأحكام طبع في دبي. ط/1
16. شرح الأحاديث النبوية النفيسة مجموعة الأزهار الشذية. ط/1
17. شرح الأحاديث النبوية النفيسة مجموعة النفحات الإيمانية. ط/1
18. هداية الرواة إلى تخريج المصابيح والمشكاة للحافظ ابن حجر
العسقلاني دراسة وتخرّيج وتحقيق (3 مجلدات) وهي عبارة عن
رسالة دكتوراه في الحديث الشريف من جامعة الأزهر/خ.
19. الأدعية والأوراد لسيدنا محيي الدين بن عربي مراجعة وإضافة بعض
الأمور المهمة. ط1
20. طريق الولاية عند الإمام الشعراني (مجلد). ط/1
21. تحقيق كتاب الموازين الذرية المبينة لعقائد الفرق العلية للإمام
الشعراني (مجلد). ط/1
22. يُمنُ الإسلام بشرح الأحاديث النبوية النفيسة في الآداب والأخلاق
والأحكام. ط/1
23. فقه الطهارة والصلاة على المذهب الشافعي مقارنةً بالمذاهب الأخرى.
ط/2
24. الفتاوى الشرعية المعاصرة مجموعة (إطالة النور). ط/1
25. الفتاوى الشرعية المعاصرة (طريق الهداية). ط/1

26. الفتاوى الشرعية المعاصرة (سبيل النجاة). ط/1
27. القطف اليبانة في الأدعية والصلوات النبوية النافعة. ط/1
28. تحفة الأبرار في شرح الأربعين الكيالية من حديث النبي المختار ﷺ.
29. هداية الذاكرين إلى سير وسلوك العارفين. ط 1
30. الخصال الحسان الموجبة لدخول الجنان. ط 1
31. ربيع الأنس في أسرار الفاتحة لتزكية النفس. ط/1
32. الأربعون الكيالية في الأحاديث النبوية. ط 1

ولقد أكرمني الله تعالى بالاطلاع على مؤلفات فضيلة الشيخ الدكتور محمد عادل عزيزة الكيالي فوجدتها كتباً قيمة، لذلك رغبت وبتوفيق من الله تعالى أن أخرجها للأمة الإسلامية ليُفيدوا منها ويُفيدوا، وأعاني الله تعالى مع إخوة فضلاء على طباعتها ونشرها ضمن موسوعة مباركة أسمينها «الموسوعة الكيالية في حب الله ورسوله».

وللمؤلف الدكتور الشيخ محمد عادل عزيزة إضافة إلى الكتب التي تقدمت عدة أبحاث قدمت في بعض المؤتمرات والمواسم الثقافية، وهي تنتظر طريقها لرؤية النور، منها:

- 1- حقوق الإنسان في الإسلام مقارنة مع ميثاق الأمم المتحدة، نقاط الالتقاء والافتراق. قدم البحث وألقي في مؤتمر باكو-أذربيجان.
- 2- حرية الفرد وضوابطها، في نقد الخطاب الديني، قدم البحث وألقي على مدرج كلية الطب في جامعة حلب، بمناسبة اختيار حلب عاصمة للثقافة الإسلامية.

وقد قامت الهيئة العامة للاحتفالية بنشر البحث على موقعها على شبكة الانترنت ثم نشرتها على مجلة .

3- الشهود الحضاري للأمة الإسلامية في القرآن الكريم، ألقى في مسجدي بلدة حراك في درعا ومدينة الباب .

4- الملامح العامة للدعوة النبوية في العهدين المكي والمدني، ألقى في مدينة الباب .

5- شمولية الفرقة الناجية للأمة الإسلامية كلها. ألقى في صالة المركز الثقافي في مدينة معرة مصرين وأرمناز .

6- القضاء والقدر المبرم والمعلق في الإسلام. مدينة الباب

7- السبيل العملي للوصول إلى مقام الإحسان. مدينة الباب

8- محاور النجاح في الرسول المعلم: في النقلة النوعية لأصحابه وأمتة، وفي سعة دائرة أتباعه، وفي شمولية تعاليمه، وأبعادها الزمانية والمكانية والنفسية والاجتماعية، ألقى في مصر في الساحة الهاشمية في الزقازيق، وفي مدينة الباب .

9- حقيقة النظرية النسبية الإسلامية في الكتاب والسنة وفي واقع علماء الأمة، ألقى في المركز الثقافي في مدينة سلقين التابعة لمحافظة إدلب .

10- موجز في عقيدة أهل السنة والجماعة أتباع المذاهب الأربعة. ألقى في مركز الثقافة السنية في كليكوت - كيرالا - الهند .

كما أثنى على فضيلة الشيخ الدكتور محمد عادل عزيزة الكيالي كثير من الشعراء منهم الأستاذ الشريف الحبيب مازن بن الطاهر بن علي الحسيني الحسيني الهاشمي الشريف من دولة تونس ، قال الشاعر: كتبتُ هذه القصيدة وأنا في حالة وَجْدٍ وَحُضُورٍ، وهي مهداة إلى العارف بالله المُمكن بإذنه تعالى الشيخ محمد عادل عزيزة الكيالي زاده الله حفظاً، من ابن عمه الشريف، مدد روح لروح ، في 27/رمضان/1429هـ/

الشَّمْسُ تَحْجَلُ حِينَ شَمْسِكَ
تَسْطَعُ
يا ابنَ الكرامِ ويا سليلَ مُمَجَّدِ
نجلَ الرفاعيِّ المُقدَّسِ سِرُّهُ
بوركتَ يا عَلمًا لكلِّ فضيلةٍ
أحببتُ فيكم طيبةً ومودَّةً
أهديك شعراً ليس مَدْحاً مُطْمِعاً
لكنه الدرُّ المُبينُ لفظُهُ
يا ابنَ العزيزةِ يا عزيزَ مودَّتي
قلبٌ نقيٌّ وابتهالٌ صادقٌ
تبكي لذكرِ اللهِ شوقاً مُحْرِقاً
بالهاشميِّ محمَّدٍ كانَ اللقا
ذكروك في الديوانِ كُنتَ مُدَوَّناً
ونفيسةُ العلماءِ تَبْسُمُ غِبْطَةً

ولك المكانةُ كُلَّ يَوْمٍ تُرْفَعُ
مِنْ آلِ بيتِ في البريةِ شَفَّعُوا
قُطْبٌ يُجِلُّهُ كُلُّ قَلْبٍ يَخْشَعُ
صدقاٌ وحقاً ما تُكِنُّ الأضلعُ
والوُدُّ باقٍ والمحبَّةُ تَجْمَعُ
ليس الشريفُ بذِي مديحٍ يَطْمَعُ
طَبَعُ السليقةِ بالبيانِ مُوقَّعُ
أعطاك ربُّكَ نورَ علمٍ يَنْفَعُ
نَفْسٌ مجاهدةٌ وعينٌ تَدْمَعُ
يا جنةَ الأشواقِ طابَ المَجْمَعُ
والصالحونَ تنزَّلُوا وتَجَمَّعُوا
في حضرةِ الأركانِ ذكركَ يُسْمَعُ
بَعَثْتُ مراسيلاً إليك فأسرَعُوا
مددُ إلهيِّ وسيفٌ يَقْطَعُ

قد بشروك بخير ما مُنَحَ الوَرَى

ووقفت على مديح للشاعر الأستاذ فاتح بوادقجي الحلبي:

إلى فضيلة الشيخ الدكتور محمد عادل عزيزة الكيالي

باسم الذي كلُّ الأمور له تؤوُلُ
الله قيوماً السماواتِ العُلا
ثم الصلاةُ على الحبيبِ المصطفى
يا أيُّها الشيخُ الجليلُ ومنبَعُ الخيـ
يا شيخِي المَرَضِيَّ قد نلتَ الرِّضا
يا من تربعتَ على كرسيِّ الولا
العلمُ جاءك عن عليٍّ بأبه
إني رأيتُك في المنامِ مصاحباً
كم قد سمعتُ بذكرِك المعطارِ في
يا من يريحُ النَّفَسَ عند دعائه
وإذا تحدثتَ في الدروسِ فإنَّ في
الصدقُ في الكلماتِ إن خرجت
من الـ
ولقد رأيتُ الهالةَ القدسيةَ الـ
يا سيدي يا سيدي أنى التَّقَتُّ
فبأيِّ سرٍّ حَصَّكَ الرحمنُ حتـ
شيخَ الولايةِ والدي يا عادلُ
شيخَ الحقيقةِ والطريقةِ والدي
شيخَ العلومِ وأنتَ من أهلِ النُّهى

والحمدُ لله الذي ليس يزولُ
ربُّ جليلٌ ليس تدرُكُه العقولُ
حيث اقتدى بالمصطفى كلُّ رسولُ
رِ العميمِ حباكُ ربي بالوُصولُ
والفتحِ والمددَ العظيمَ من الرسولُ
يةِ والوراثةِ والخلافةِ في أصولُ
أكرمُ بعلمِ جاءَ عن زوجِ البتولُ
زوجِ البتولِ وجدنا الأعلى الرسولُ
أرجاءِ مكة لا يغيب عن العقولُ
فدعاؤه يسري كماءِ السلسيلُ
كلماته وعظماً وإهداءِ السبيلُ
قلبِ السليمِ تَصُبُّ في القلبِ
العُقُـ
تفتُّ حوَالِيكَ فزادَتني ذُهوُلُ
أراكُ قربَ المُصطفى الهادي الرسولُ
تى صرتَ نوراً للقلوبِ وللعقولُ
ولك الكرامةُ والولايةُ والوصولُ
يا ابنَ العزيزةِ أنتَ مصباحُ الجَهوُلُ
طلابُك التفتُّ لتنهلَ ما تقولُ

ولي الرجاء بنظرة من مقلتيـ ك لتجمع الفرع المحب مع الأصول
أدعو الإله بأن يطيل العمر فيـ ك وأن يمدك بالمحبة والقبول

ووقفت على مديح آخر للشاعر محمد صبحي المعمار قال فيه :

يا شيخ عادل

مالت عليك بقدها تتدلُع حسناء إن نظرت إليك ستخشع
عيناء ما نظرت بعين غريمها إلا ارتمى من عشقه يتصرع
تمشي بدل لو رآها ناسك ترك الصلاة وجاءها متضرع
فتانة ريانة فيها الهوى ينهى ويأمر لو عصيت سيردع
ملا الفؤاد حينها متنوعاً من كل حب طعمه متنوع
كم رحت أرقب طيفها متأملاً والليل عند العاشقين ملوع
لو جاء في الليل البهيم أسرته وجعلته في ذله يتهطع
أو جاء في وضح النهار تحدياً أوثقته وتركته يتوجع
لكن حبي ما عهدتك ظالماً تأبى الوصال، إذا دنا تتمتع
ياسيدي تلك الأماني فكرة فيها الخيال مُشرع مُشرع
أبيات شعر قال فيها شاعر خصب الخيال بشعره يتسجع
أضغاث حلم كان في نياته حين الشباب بحلمه يترعرع
نزق الشباب كما أراه مطوراً والحلم في نفس الكهول مخنع
ليت الشباب يهزني متنازقاً أجنبي به متع الحياة فأشبع
الظلم كفر، والحياة ظلومة والعدل في نعمائه نتمتع
لي مرشد، شيخ كريم، زادني علماً، أروح لدرسه أسمع
شيخ جليل، قد تزين بالتقى وارتاح في أذكاره يتضرع

عِلْمَ الحَيَاةِ بِحِسِّهِ مُتَفَهِّمًا
يا سيدي عندي إليك صَبَابَةٌ
ومحبةٌ في الدين أشعرُ حُلُوهَا
يا سيدي ، أرنو لعلمك دائماً
أدبُ الحديث أخذتهُ مُتَفَهِّمًا
والفقهُ أرجو أن أروحَ لدرسهِ
الدينُ دنيا ، والحياةُ عِبَادَةٌ
يا شيخُ عادلُ ، الحياةُ غَرِيرَةٌ
يا شيخُ عادلُ والقوافي سَهْدَةٌ
عِلْمَ الإلهُ بأنني ما رذُتُهَا
يا شيخُ عادلُ ، في القصيدِ مَحَبَّةٌ
الناسُ تَفْنَى والقصيدُ بِذِكْرِهَا
هيَ حالنا نهوى الحياةَ كما ترى
يا شيخُ عادلُ ، خالني من أمرها
شَتَانٌ بين مسافرٍ في بَرِّهَا

والعلمُ في صدر الشيوخ مُجَمَّعٌ
ومودةٌ ، مني إليك تُسَرَّعُ
لا ريبَ فيها ، كالسنا تتلمَّعُ
وأخالني في نهلهِ مُتَطَمَّعُ
من بحرِ علمك ناتعٌ مُنْتَمِعُ
بين الذين تجالسوا ، أترَبَّعُ
وأخو الجهالةِ خاسِرٌ مُتَسَكِّعُ
وأنا بها ، من حالها ، مُتَفَرِّعُ
وأنا المشوقُ ليلها أطلَّعُ
إلا استجابتُ والكلامُ يَبَّعُ
ولسانُ حالٍ ، شاكِرٌ مُتَلَعِّعُ
ينقى يُذَكِّرُ بالخيار ، فَنَسَمَعُ
ونهمٍ فيها ، ريثما نَتَوَدَّعُ
أرقُ يُوَثِّرُ في العيونِ فَتَدْمَعُ
أو مُبْحِرٍ في مَوْجها مُتَجَزَّعُ

حلب 8 / 26 / 2008 م

هذا وقد تضمنت كتب الدكتور محمد عادل عزيزة الكيالي التي رابت

على الثلاثين المواضيع التالية:

التفسير: وفيه كتاب واحد.

الحديث الشريف: وفيه ثمانية كتب.

الفقه الشافعي: والفقه المقارن وفيه خمسة كتب.

الفتاوى الشرعية المعاصرة: وفيه ثلاثة كتب .

العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي والتزكية: خمسة عشر كتاباً .

وهذه لمحة موجزة تعريفية عن مضامين بعض مؤلفات الدكتور محمد

عادل عزيزة الكيالي وأترك تعريف الباقي إلى شغف القارئ ونهمه:

1 - ربيع الأنس في تفسير الفاتحة لتزكية النفس:

لقد أجاد وأحسن فضيلة الشيخ الدكتور الكيالي في اختياره لتفسير الفاتحة نظراً لما للفاتحة من معان عظيمة، ودروس وعبر ومسائل تفوق العد والحصر، ونحن نعلم أن القرآن الكريم له معانيه الكبيرة والكثيرة، والدلالات المتعددة، والإشارات إلى المعاني الراقية، ولذلك أزم العلماء مفسري القرآن الكريم شروطاً ليست سهلة التناول لكل أحد من التوسع في علم العربية وغير ذلك، قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ما من آية إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد هو عبارة وإشارة وأحكام الحلال والحرام، والمطلع مراد الحق تقدس وتعالى من العباد بها، وجعل القرآن عبارة وإشارة ولطائف وحقائق فالعبارة للسمع، والإشارة للعقل، واللطائف للمشاهدة، والحقائق للاستسلام، وحكي عن جعفر الصادق بن محمد الباقر أنه قال: كتاب الله على أربعة أشياء العبادة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبادة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء .

وأقول: مما يلاحظ على الكتاب أنه خلا في أغلب أحيينه من عزو المعلومة إلى مصدرها، وأعتذر عن المؤلف لأن أصل هذا الكتاب هو دروس ارتجالية ألقاها في الجامع الأموي الكبير في حلب، ولأنه عوّّل

في جمع مادة الكتاب على المعلومة النافعة، بغض النظر عن قائلها، عاملاً بالحكمة التي تقول: العبرة بما قال، وليست بمن قال.

2- الروض الباسم في شمائل المصطفى أبي القاسم ﷺ دراسة وتحقيق

لقد هدف المؤلف من وراء هذا العمل أن يطلع المسلم على ما أبدع الله سبحانه وتعالى في رسوله ﷺ من المحاسن الخلقية والخلقية، وما جمع فيه من الكمالات الذاتية حتى وصفه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

والاطلاع على شمائل الرسول ﷺ الكريمة، والوقوف على أحواله ﷺ في عبادته، وذكره لربه، ودعائه له، وكريم عشرته، ومزاحه، ومحاسن صورته، وحلاوة منطقه، وقوة سمعه الشريف، وعدوية صوته... الاطلاع على مثل هذا يجعل المؤمن أكثر حُباً ومعرفةً بهذا النبي الكريم، ويتحقق بقوله ﷺ كما جاء في صحيح البخاري: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ».

وإن التعرف والبحث عن أعماله ﷺ وعن أقواله وأحواله، والوقوف على سجايه الكريمة، وأخلاقه العظيمة، هو السبيل الأمثل لامثال أمر الله سبحانه وتعالى الوارد في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولهذا كان الصحابة الكرام يحرصون كل الحرص على تتبع أفعاله وأقواله وأحواله وآدابه وأخلاقه ليتبعوه في ذلك، بل كانوا يتمسكون أشد التمسك بعباداته ﷺ فكانوا يحبون ما يحبُّه ﷺ من الطعام ويكرهون ما يكره،

وقد عُلم من دين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ضرورة اتباعه ﷺ من غير توقف ولا نظر في جميع أقواله وأفعاله، إلا ما قام عليه دليل اختصاصه به ﷺ، فقد خلعوا نعالهم لما خلع عليه الصلاة والسلام نعله، ونزعوا خواتمهم الذهبية لما نزع خاتم الذهب، وحسر أبو بكر وعمر في قصة جلوسهما على البئر كما فعل عليه الصلاة والسلام، وكاد يقتل بعضهم بعضاً من شدة الازدحام على الحلاق عندما رأوا النبي ﷺ يحلق رأسه الشريف، وكان الصحابة يبحثون البحث العظيم عن هيئات جلوسه ﷺ ونومه وكيفية أكله وشربه وغير ذلك ليقتمدوا به، كما أن أسباب المحبة ترجع إلى أنواع الجمال والكمال والنوال كما قرره الإمام الغزالي رحمه الله، فإذا كان الرجل يُحِبُّ لكرمه، أو لشجاعته، أو لحلمه، أو لعلمه، أو لتواضعه، أو لتعبده وتقواه، أو لزهده وورعه، أو لكمال عقله، أو وفور فهمه، أو جمال أدبه، أو نحو ذلك من صفات الكمال، فكيف إذا تأصلت واجتمعت هذه الصفات الكاملة وغيرها من صفات الكمال في رجل واحد، وتحققت فيه أوصاف الكمال ومحاسن الجمال على أكمل وجوهها؟ ألا وهو السيد الأكرم سيدنا محمد ﷺ الذي هو مجمع صفات الكمال ومحاسن الخصال، قد أبدع الله تعالى صورته العظيمة، وهيئته الكريمة، وطوى فيه أنواع الحسن والبهاء، بحيث يقول كلُّ من نعته: لم يُرَ قبله ولا بعده مثله.

لهذا كان من الواجب على المسلم أن يتعرف جمال هذا الرسول الكريم ﷺ ومحاسنه الخُلُقِيَّة وكَمالاته النفسية والروحية والقلبية والعقلية وذلك لينال محبته الصادقة، لأن المعرفة هي سبب المحبة الكاملة، فكما

زادت المعرفة بمحاسن المحبوب زادت المحبة له .

ومن هذا المنطلق قمتُ بتوفيق الله تعالى بالعمل على تحقيق هذا الكتاب وإظهاره من مخبئه ليكون بين أيدي المسلمين ، منار هداية .

3- تحفة الأبرار بشرح الأربعين الكيالية من حديث النبي المختار ﷺ :

قدّم المؤلف في هذا الكتاب باقة عطرة، ومجموعة رائعة من الأحاديث النبوية الشريفة، وقد قصد بهذا الكتاب إجمام خواطر الناظرين، والباحثين والراغبين في الكشف عن حقائق الحديث النبوي الشريف، وترويح قلوبهم بإجالة الفكر في استخراج ودائع علمه وخبايا شوارده، والتنفيس عن أذهانهم الوهاجة باستيضاح غوامضه وخفايا فوائده، فأخرجه لهم بتوفيق الله وعنايته، روضةً مزهرةً، وحديقةً مثمرةً، تزيد الإيمان بنفحاتٍ قويّةٍ، وتشرف بصاحبها على مقام الإحسان ببركة أتباع سيّدنا محمدٍ خير البرية .

فهذا الكتاب الذي بين يديك شرحٌ لبعض الأحاديث التي استخرجها من الصّحاح، ولم يفصّل في شرحها المعنى العام، وفقه الحديث، وما يرشد إليه، كما هو المألوف اليوم، وإنّما جمع بينها بأسلوب جديد، وذلك بذكر ما يستفاد منها مباشرةً مرّماً من المسائل الفقهيّة، والحديثيّة، والأخلاقيّة، وقصد بذلك التيسير على المحبين لرسول الله ، الراغبين في فهم الأحاديث النبوية الشريفة، واعتمد في شرحه لهذه الأحاديث على المراجع المعتمدة في هذا الشأن، منها شروح البخاري لابن حجر، والعيني، وابن بطّال، وشرح مسلم للإمام النووي، والسيوطي، وشرح

الموطأ للخفاجي، والتمهيد لابن عبد البر، وطرح التثريب للحافظ العراقي، وغير ذلك من الكتب المتخصصة في شرح الأحاديث النبوية. ولم يجعل شرحها صعب التناول حتى لا يكون محصوراً بالمتخصصين، كما لم يجعله من السهولة بمكان ليكون للعوام والمبتدئين، وإنما جعله وسطاً بين هذا وذاك لينهل من معينه المتخصص، ويستفيد منه القارئ المثقف.

4 - الفتاوى الشرعية المعاصرة (إطالة النور / طريق الهداية / سبيل النجاة):

إن خير ما يشتغل به الإنسان معرفة الأحكام الشرعية، إذ بهذا العلم يعرف الحلال من الحرام، والصحيح من العبادة والفاسد منها، لقد حرص فضيلة الشيخ الدكتور أن يجمع الفتاوى والمسائل التي يُسأل عنها، ولقد رأيت أن فضيلته أجاب عن تلك الأسئلة مستدلاً بالآيات والأحاديث وما أثر عن الصحابة والتابعين، مستشهداً بأقوال الأئمة الأربعة وأقوال الفقهاء والمحدثين، وقد نهج في كل ذلك منهج الوسطية والاعتدال، راداً بذلك غلو المتشددين، وتساهل المتساهلين، قدّمه للسادة القراء، علّه يشرح صدورهم وينال سرورهم إن شاء الله تعالى.

كما كانت الفتاوى ذا ترتيب منسق، وإعداد مرتب، مع سهولة العبارة ووضوح المعاني، وتجلية الأحكام، ومع ذكر الدليل من الكتاب والسنة. وأرجو الله تعالى أن تكون هذه الفتاوى الشرعية مساهمة من المؤلف في خدمة هذا الدين القويم نظراً لحاجة المسلمين إلى رسالة تعرض الأحكام الفقهية المعاصرة مشفوعة بالأدلة، واجتهادات الأئمة.

ولقد أفاد المؤلف كثيراً من المراجع المهمة في الفتاوى الشرعية وبخاصة فتاوى الأزهر، وفتاوى الشبكة الإسلامية، وقرارات المجامع الفقهية، والموسوعة الفقهية، فأضاف إلى المسائل التي أفادها من المراجع المذكورة ما حضره من العلم، وحذف منها ما لا يحتاج إليه. والله تعالى أسأل أن ينفع بها العباد، ويصلح بها الفساد، وأن يجعلها من صالح عمله، وأن يتقبلها منه فهو نعم المولى ونعم النصير.

5- الفرقة الناجية هي الأمة الإسلامية كلها:

لقد أجاد الدكتور محمد عادل وأفاد وأماط اللثام عن قضية مهمة من قضايا الإسلام وهي قضية من هي الفرقة الناجية وذلك بعد أن كثر الحديث عنها، وثار حولها جدل كبير، مما جعل بعض الجماعات الإسلامية تضيف على نفسها هذه الصفة دون غيرها، لتحتكر الحق والصواب، ولتجعل من نفسها الناطق الرسمي باسم الإسلام، وأما غيرها من الأمة فليس له وجود، ويجب فكراً أن يعدم، ووجوده ينبغي أن يتلاشى.

إن هذه الممارسات الجائرة والظالمة تتشع بوشاح الدين، وتتحصن باسم الإسلام، إن الخلل في الأمة سببه تلك النظرة الفوقية لبعض الجماعات الإسلامية، فكل جماعة تدعي لنفسها أنها هي جماعة المسلمين فقط، وأما ما عداها فهو من الفرق الهالكة أو الضالة، حتى ولو كان عالماً إسلامياً كبيراً له جهوده في خدمة الإسلام والمسلمين، وتصحيح النظرة ينطلق من اعتبار كل جماعة أنها من المسلمين، وكل جماعة على ثغر من ثغور الإسلام، وهي جزء تمثل إلى جانب الجماعات الأخرى كلاً إسلامياً، وكل جماعة تقوم بجهود عظيمة في خدمة الإسلام،

فتضافر هذه الجهود له أكبر الأثر في تقدم المسلمين وازدهارهم وانتصارهم .

لهذا أراد المؤلف حفظه الله أن يجلي حقيقة حديث افتراق الأمة ، وأن الحديث لا دخل له في تمزيق الأمة ، كما صور ذلك بعض طلبة العلم ، بل الحديث يدعو كل المسلمين إلى التماسك والتضامن من خلال جعل الفرقة الناجية هي كل المسلمين ، وليس كما توهمه قلة من أفراد الأمة ، ويصرّون على أن أفراد الفرقة الناجية قليلون جداً لهم علامتهم المسجّلة وشكلهم المتميّز ، وكل من ليس منهم فهو عدو لدود لهم بل عدو لله ولرسوله حسب زعمهم .

إن هذه النظرة التي تتسم بحَوْلٍ فِكْرِيٍّ ، وفتنة في القلب ، مع لباس الزور والبهتان بأن انطلاقتهم هذه من الكتاب والسنة ، ويُلبَّسُون على العامة بالعبارات الضخمة والألفاظ الخلافة .

وأقول: هل من السنة الحكم على الغالبية العظمى من المسلمين بأنهم من أهل النار؟ هل من السنة تكفير من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ هل من السنة التنطع في دين الله ، والمغالاة فيه ، وتضييق دائرة الحلال حتى الاختناق ، وتوسيع دائرة الحرام؟ إن سنة النبي ﷺ قدرت على إحياء أجيال بدلت الأرض غير الأرض ، وحطّمت إمبراطوريات ذاهبة في الطول والعرض ، كانت قائمة على الضلال والظلم ، إن سنة النبي ﷺ أنعشت جماهير كانت في غيبوبة فأطلقتها تسعى ، فعرفت المنهج والغاية ، فجمعت بين المسلمين ، ورحمت المساكين ، وناصرت الضعفاء ، والمظلومين ،

وأوجدت أمة كانت كالجسد الواحد، تعيش قضية واحدة، تدافع من أجلها، وتجاهد في سبيلها، إن المشكلة التي نطلب من أولي الأبواب حلها، هي مناصحة نفر من الناس يرون أن الحق حكر عليهم وحدهم، وينظرون إلى الآخرين نظرة انتقاص واستخفاف، وأنهم هلكت وهم الفرقة الناجية فقط من دون المسلمين أجمعين .

إن هذا التفكير تفكير صبياني والرسول ﷺ يرد على من يتحكم بمصائر الأمة ويحكم عليها بالهلاك، بأنه هو الخاسر . فقد جاء في صحيح مسلم حديث رقم (2623) وصحيح ابن حبان رقم (5762) وفي سنن أبي داود رقم (4983) ومسنند الإمام أحمد رقم (7671) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» . كما أن النبي ﷺ حذرنا من الحكم على أحد من المسلمين بالكفر، أو بدخول النار، فهذا غيب، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى وبخاصة إذا سمعنا منه كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولقد رأيت هذه الرسالة على صغر حجمها مَوْفَقَةً ، دالة على حسن الظن بكافة المسلمين من أمة سيدنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام، ودلّل المؤلف فيها على أنهم جميعاً أمة الإجابة، والفرقة الناجية، وأثبت فساد قول وزعم خوارج هذا الزمان، من الذين احتكروا لأنفسهم وزعموا أنهم وحدهم الفرقة الناجية من دون المسلمين أجمعين، وقد أورد المؤلف - جزاه الله تعالى خيراً - الكثير من الاستشهادات الدالة على خروج أولئك، وتطرفهم وتكفيرهم وتشريكهم لغيرهم من الأمة المرحومة، أمة الحبيب

سيدنا محمد ﷺ، وكان مُوفِّقاً في ذلك كله، فجزاه الله تعالى خيراً وأدام توفيقه، وقد ورد في الأثر: «لن تقوم الساعة حتى يلعن آخر هذه الأمة أولها»، أي سلفها، وقد فعلوا ذلك، فوجب تحذير الأمة منهم كما فعل المؤلف و«الدين النصيحة» والحمد لله رب العالمين .

وفي هذه الرسالة المفيدة : (الفرقة الناجية هي الأمة الإسلامية) نجد المؤلف قد اعتمد فضيلته على نصوص من الكتاب والسنة، تؤكد أن الحق الذي يجب المصير إليه هو: الاعتقاد بأن جميع المسلمين الموحِّدين (أهل لا إله إلا الله) هم الفرقة الناجية من الخلود في النار، وأما بالنسبة لدخولها بسبب الذنوب ثم الخروج منها فموكول إلى مشيئة الله تعالى، وهو في هذا التَّهَجُّبِ الطَّيِّبِ يريد أن تتوحَّد الأمة لنبذ الخلافات، والاجتماع على كلمة الحق في نصررة العقيدة الصحيحة، التي كان عليها سيدنا رسول الله ﷺ، وآل بيته المكرَّمون، وأصحابه الطيبون، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . فجزى الله فضيلته خير الجزاء على أعماله المبرورة كما أحب أن أنوه إلى أن هذه الرسالة لاقت ترحيباً عالمياً، وقبولاً ربانياً منقطع النظير، حيث لو بحثت عنها الآن بعنوان «الفرقة الناجية هي الأمة الإسلامية كلها» تجدها في مواقع كثيرة جداً من المواقع الإلكترونية، وإشادات رائعة بها وبمؤلفها من شتى أصقاع العالم الإسلامي، وطبعت في دبي في شهر واحد أربع مرات .

6- هداية الذاكرين إلى سير وسلوك العارفين:

إن الغاية من التصوف والتزكية هي: معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية،

ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني، في ظل المعراج الأحمدي، وتحت رايته، بخطوات القلب وصولاً إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود، فالطريقة والتزكية والتصوف سر إنساني رفيع، وكمال بشري سام، ولا شك أن أعظم وسيلة لعمل القلب وتشغيله هي: التوجه إلى الحقائق الإيمانية، والإحسانية، والعرفانية، بالإقبال على ذكر الله تعالى، ولقد رأيت المؤلف قدم كلمة طيبة موجزة في بيان معنى السير، والسلوك والبيعة، والطريق، والرياضة، والمجاهدة، والسَّفر، وتعريفًا موجزًا بالطريقة النقشبندية وأورادها وبختمها.

كما تضمنت هذه الرسالة شرحاً لقصيدة ابن الميلى، والتي مطلعها: (من ذاق طعم شراب القوم يدره). والشرح لسيدى ابن علان الصديقي الشاذلي، وشرحاً لقصيدة أبي مدين (عنوان التوفيق في آداب الطريق)، والتي مطلعها: (ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا)، شرحها سيدي ابن عطاء الله السكندري رحمته، وتخميساً لقصيدة أبي مدين، لسيدى محيي الدين بن عربي رحمته.

7- طريق الولاية عند الإمام الشعراني:

لقد رأيت أن مؤلف هذا الكتاب قد قام بدراسة شاملة عن الإمام الشعراني، الذي هو أحد أقطاب أهل التصوف في عصره، ومن العلماء الذين أخلصوا لله في سرهم وعلانيتهم، وتحققوا بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فشملمهم الله برحمته، وأكرمهم بمعرفته، وأفاض عليهم

من علمه، فزادوا له حباً، وبه معرفةً، فحياتهم ليل قائم، ونهار صائم، وحينئذ دائم، وذكر متواصل، يقتفون أثر رسولهم الكريم محمد ﷺ لأن اتباع النبي عليه الصلاة والسلام شرط جوهرى في التصوف، فهو على حد تعبير أهل المعرفة: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة.

والإمام الرباني العابد الزاهد الفقيه الشعراني عبد الوهاب بن أحمد رحمه الله تعالى، هو طراز فريد من علماء نهلوا من روح الإسلام وجوهره، ووقفوا حياتهم على تبين معالمه.

وكان للدينا نوراً بدد ظلامها، وهدياً أزال ضلالها، وكانوا لدينهم سنداً وحصناً، ولتعاليمه عزاً ورفعة.

وقد كان مناراً للسالكين بعده، جاهد في الله حق جهاده، على بصيرة وهدى، ولم يبق منعزلاً عن المجتمع الذي عاش فيه، ولكن وجد من الواجب عليه أن يكون أداة صالحة في ترقيته وتثقيفه، والأخذ بيد أفراده إلى ما هو أفضل، وساعده على ذلك حفظه لكتاب الله عز وجل وهو ابن سبع سنين، والتزام أداء الفرائض وهو ابن ثمان.

وللإمام الشعراني مؤلفات عديدة، في علوم شتى، مما يدل على إلمامه الواسع في علوم أهل عصره، والإحاطة بما وقع له من كتب المبرزين، من قدامى ومعاصرين.

فقد كتب في جميع الفنون، ونزع إلى مزاولة التصوف قبل أن يسلك على أرباب الطريق، فراض نفسه على تحمل المشاق في ذلك. ويعد الإمام عبد الوهاب الشعراني مبدعاً في تأليفه وبخاصة في الفقه المقارن

كما في كتاب الميزان، الذي وفق فيه بين أئمة الفقه الإسلامي، ومبدعاً في فهمه للتصوف، وذلك باختصار الطريق على السالكين ومطالبتهم التحقق بالعبودية، ووضع من أجل ذلك (الأنوار القدسية)، وداعيةً إسلامياً إلى التحلي بالأخلاق المحمدية والصفات الربانية، وزعيماً شعبياً بمحاربتة الظلم، ووقوفه في وجه الطغاة والحكام المستبدين وعالماً نفسياً، عرف أمراض النفوس وعللها، فقدم لها العلاج الشافي المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وكان الشعراني رحمه الله الذي تخرج من الأزهر عالماً مستنيراً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ .

وقد شغلت شخصية الشعراني بال النقاد والمستشرقين، منهم (ماكدونالد) فقد قال في وصفه: (إن الشعراني كان رجلاً دراكاً نفاذاً مخلصاً واسع العقل، وكان عقله من العقول النادرة، في الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى).

وقال عنه (نيكلسون): إنه أعظم صوفي عرفه العالم الإسلامي كله .
لقد أبرز المؤلف كنزاً مخبوءاً من كنوز هذا الإمام الكبير، ليستفيد الناس من سيرته ومؤلفاته، وليتعرفوا على عقلية هذا الإمام، الذي ألف أكثر من ثلاثمائة كتاب، بعضها لم يسبق إليه مما جعل كثيراً من العلماء والنقاد، يشيدون به، وينوهون بمؤلفاته .

8- الموازين الذرية في بيان عقائد الفرق العلية:

إسهام في بعث الحياة الروحية لدى المسلمين، من خلال تقديم كتاب

جعل مؤلفه الخلاصة منه - كما ذكر ذلك في المقدمة - أنه لا يجوز لأحد أن يكفر أحداً يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا يصح إخراج أحد من الإسلام إلا ببينة لا تقبل التأويل ولا الاحتمال، ولا يكون ذلك إلا بنص أو إجماع.

ولعل نشر هذا الكتاب يساهم في ردم الفجوة بين المسلمين، التي أحدثتها التيارات المعاصرة، المتضاربة في الآراء، حتى كفر بعضهم بعضاً، لأمر فرعي ليس من أمور الدين الأساسية، وكان من أعظم آثار التكفير في الجماعات الإسلامية تناول آيات وأحاديث الصفات فمن أولها على وفق ما يقتضي اللسان العربي اتهمه بعضهم بالتعطيل والجهمية والمروق من الدين، بل عدوه ملحداً وأخرجوه من الملة الإسلامية، ومن حملها على ظاهرها عدوه مجسماً مشبهاً وألحقوه باليهود وكفروه، وأخرجوه من الإسلام، فجاء الإمام الشعراني في كتابه (الموازن الذرية في بيان عقائد الفرق العلية) بما يشرح الصدر ويرأب الصدع، ويلم الشعث، ويوحد الصف، ويبين أن جميع الموحدين مصيبون في تناولهم لآيات الصفات، إذ أرجع الجميع إلى ميزان دقيق، فمن أول راعى جانب حضرة الإطلاق، ومن أخذ بالظاهر راعى حضرة التقييد، والكل موحد والكل مؤمن.

كما أن هذا الكتاب (الموازن الذرية) يعد كتاباً مهماً في الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي إذ استطاع أن يقرب القضايا الإيمانية إلى أفهام الناس بأسلوب شائق، واستطاع أن يتناول المسائل المهمة في التصوف الإسلامي، ويقدمها لقمة سائغة لمفكري الأمة والباحثين في مجال الفكر

الفلسفي الإسلامي ، ولذلك نجد الشعراني يمتدح الفلسفة ويثني على بعض الفلاسفة وينكر على من ذمهم ، ويعلل ذلك بالجهل منهم لمدلول كلمة الفلسفة ، التي تعني محب الحكمة ، ويصنف أفلاطون من العلماء العارفين بالله تعالى .

9- فقه الطهارة والصلاة على المذهب الشافعي مقارنةً بالمذاهب الأخرى:

إن خير ما يشتغل به الإنسان معرفة الأحكام الشرعية إذ بهذا العلم يعرف الحلال من الحرام ، والصحيح من العبادة والفاقد منها . وهذا الكتاب «فقه الطهارة والصلاة» على مذهب الإمام الشافعي رحمته الله قدمه للسادة القراء وفيه ما يفيدهم من الأبحاث المهمة وبخاصة بعض الأبحاث التي يكثر السؤال عنها ، ومنها: (حكم القراءة من المصحف في صلاة الفرض والنفل ، حكم إمامة المرأة للنساء ، الأدلة القوية على سنة الجمعة القبلية ، والكيفيات التي يؤدي بها الوتر) ، وغير ذلك مما يشرح صدورهم إن شاء الله تعالى من أحكام وفضائل .

وارتأى مؤلفها إضافة بعض الأحكام على المذاهب الأخرى ليعم نفعها ولينتفع بها المسلمون الذين يودون القيام بالصلاة المفروضة على الوجه المشروع ، والتقرب إلى الله تعالى بالطريق الصحيح .

وهذا الكتاب يعدُّ خدمة لهذا الدين القويم وذلك نظراً لحاجة المسلمين إلى رسالة تعرض أحكام الطهارة والصلاة مشفوعة بالأدلة ، وتظهر مدى صلة المذهب الشافعي الوثيقة بالكتاب والسنة واجتهادات الصحابة

ﷺ أجمعين .

والله أسأل أن ينفع بها العباد، ويصلح بها الفساد، وأن يجعلها في صالح عملنا جميعاً، وأن يتقبلها منا فهو نعم المولى ونعم النصير .

10- أحكام صلاة الجماعة والجمعة:

هذه رسالة موجزة جمع فيها المؤلف المسائل الهامة المتعلقة بصلاة الجماعة والجمعة لتكون لأئمة المساجد تذكرة، وللمؤمنين تبصرة، اعتمد في جمعها على أمهات كتب المذهب الشافعي؛ كالمجموع، والروضة، ومغني المحتاج وغيرها، وذكر آراء الأئمة الآخرين في بعض المسائل التي تحتاج إلى بسط الآراء فيها، وقد عالجت هذه الرسالة الصغيرة مسائل مهمة يكثر السؤال عنها مثل: حكم الدعاء جماعة بعد الصلاة، القنوت في الصلاة، حكم صلاة الجماعة عند الأئمة الأربعة رضي الله عنهم، حكم إعادة الصلاة، حكم عد الذكر من التسيح والتحميد والتكبير بالأصابع وبالسبحة والحصى، وصفات الأئمة وغير ذلك مما يهم أمر الإمام والمأموم .

بالإضافة إلى أحكام صلاة الجمعة، فرائضها وشروط وجوبها، آدابها، سننها، مكروهاتها .

وتعرض إلى بعض الموضوعات ذات الصلة بالجماعة، منها: صلاة النافلة جماعة، وأحكام صلاة الوتر ومشروعية أدائه ثلاث ركعات: بتشهدين وبسلامين (أي: ركعتين+ ركعة) كما هو الأفضل عند الشافعية والمالكية والحنابلة، وثلاث ركعات متصلات بتشهدين وسلام واحد كصلاة

المغرب، كما هو عند السادة الحنفية، وثلاث ركعات متصلات بتشهد واحد فقط على سبيل الأفضلية عند الشافعية إن أداه متصلاً وعلى سبيل الحتم والإلزام عند الحنابلة إن أداه كذلك، عملاً بالأحاديث الثابتة في ذلك، ودعا المؤلف إلى استتابة من يقول ببطلان الوتر بأدائه بإحدى الكيفيات الثابتة عن النبي ﷺ، وبين المؤلف أحكام صلاة التراويح: عدد ركعاتها، صلاتها جماعة وفرادى، حكم أدائها عشرين ركعة بتشهد واحد فقط في آخرها.

11- الإيجاز في أحكام الزواج:

فإنَّ النكاح به بقاء الخلق، وقد شرع الله سبحانه وتعالى له أحكاماً ليكون العالم العامل بها سائراً على نهج الأنبياء والمرسلين، يجد المؤمن فيه عفافه وبقائه ومُتَعَهُ، والحصول على ذريةٍ صالحة ليكون بهم موصولاً بالخير العميم.

ولما كانت أبواب النكاح وما يتعلق به من أحكام كبيرة الحجم، متعددة الفصول، متشعبة المسائل، حتى غدت مستعصية الاستيعاب على كثير من العامة، مضمونة بالفهم على غير أهلها من العلماء والباحثين، لهذا أراد المؤلف أن يقرب أحكام النكاح للعامة، ويجعل أهم مسائله قريبة التداول من قبل السادة العلماء الأكارم، وذلك من خلال اختصار ما يتعلق به من أحكام، وتبسيط عبارة الفقهاء بحيث يسهل على الجميع فهمها، وإدراك مضامينها، فجاء بحمد الله تعالى رسالة مختصرة مفيدة، في مسائل النكاح على المذهب الشافعي، مع المقارنة بالمذاهب الأخرى، ولم يذكر المؤلف

الإحالة لأقوال المذاهب إلى مصادرها لأن أمر هذه الرسالة مبني على الاختصار، وما نقله في الأغلب هو القول المعتمد في كل مذهب، وهذا ما أراد المؤلف تحريره من المسائل، وجمعه من الفرائد.

12- بهجة الناظرين من روضة الطالبين ألف مسألة مختارة:

إن كتاب روضة الطالبين للإمام النووي من أمهات كتب المذهب الشافعي، وعليه المعوّل في الفتوى عند الشافعية، ولما كان الكتاب كبيراً جداً، إذ يقع في اثني عشر مجلداً، أصبح الرجوع إليه صعباً وشاقاً لضخامته وكثرة فروعه، فقام المؤلف بتلخيص المسائل المهمة التي يحتاجها طلبة العلم في جميع أبواب الفقه، ولم يتصرف المؤلف بعبارة المؤلف رحمه الله تعالى، بل أبقاها على حالها غالباً، إلا في بعض الأحيان للتوضيح، وهو نادر جداً. فجاء الكتاب بحمد الله تعالى مختصراً للروضة مذلاً لمسالكها ميسراً لطلبة العلم القطوف من ينعمها وفريد مسائلها، والحمد لله رب العالمين.

وختاماً هذا غيض من فيض معين هذه الموسوعة وسلسيلها الدعوي، والآن نترك فرصة المطالعة والمتابعة للقراء الكرام، أيّاً كانوا ذكوراً أم إناثاً، صغاراً أم كباراً، لكي ينهلوا وينالوا الحظ الأوفر والنصيب الأكبر من نفع الأسفار المباركة الثيرة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، على فضله العظيم الأكبر، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد أهل الدنيا والمحشر، وعلى آله وصحبه عدد كيزان الكوثر.

الفقير إلى عفو ربه العلي القدير
الأستاذ الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي
المستشار برابطة العالم الإسلامي سابقاً
مكة المكرمة حرسها الله آمين
1432/10/6هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده ، ويدفع عني وعن المسلمين نِقْمه ، الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، القائل في محكم تنزيله: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122].

الحمدُ لله مُسهِّلٌ ما صَعَبَ من الأمور الكائنات ، فاتح فاتحة الفتح الميسرات ، المتقدِّس عن الحدوث والنقصان والآفات ، المُستحقُّ لكمالِ النعوتِ والصفات ، المُسيِّحُ بصنوف اللغات ، المحمودِ على جميع الأفعال والحالات ، أحمده على ترادفِ نِعْمِهِ السائغات ، وتواردِ مَنَنِه السابغات ، حمداً دائماً على مرِّ الأوقات والساعات ، والحمدُ لله المُنفردِ بالدوام ، الباقي بعدَ فناء الأيّام ، المُوجدِ لِلخَلْقِ بعدَ العدم ، المُفني لَهُم بعدَ أَنْ تَبَتَّ أَعْمَالُهُمْ فِي الصُّحُفِ كَمَا جَرَى بِهِ الْقَلَمُ ، العالِمِ بِمَا انطوتَ عَلَيْهِ أسرارُهُمْ فِي الحَالِ وَفِي القِدَمِ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِي النعم كلها دون سواه ، شَهَادَةَ عَبْدٍ مُضْطَرٌّ إِلَيْهَا عِنْدَ زَلَّةِ القَدَمِ ، وما توفيقِي إِلَّا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيبُ ، لا فلاحَ إِلَّا لمن هَدَاهُ ، ولا صلاحَ إِلَّا لمن عصمه

من اتّباع هواه . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ إِلَىٰ أَكْرَمِ الْأُمَمِ ، وهو عبده الذي ارتضاه ، ونبّيه الذي اختاره واجتباها ، ورسوله الذي ائتمنه واصطفاه ، ورفعاه وأعلاه ، وخصّه بختم النبوة وحباه ، وأبانه بأعلى منازل الفضل على كل آدمي عداه .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ أَصْحَابِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ أَزْوَاجِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا كَثِيرًا ، عدد خلقك ، ورضا نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك ، كلما ذكرك الذاكرون ، وغفل عن ذكرك الغافلون .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، وَعَلَىٰ آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارَكْ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ، وَاخْتِمْ لَنَا بِخَيْرٍ ، وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أَوَّلِ مُتَلَقِّ لَفِيضِكَ الْأَوَّلِ ، صَلَاةً نَشْهَدُكَ بِهَا مِنْ مَرَاتِهِ ، وَنَصِلُ بِهَا إِلَىٰ حَضْرَتِكَ مِنْ حَضْرَةِ ذَاتِهِ ، قَائِمِينَ لَكَ وَلَهُ بِالْأَدَبِ الْوَافِرِ ، مَغْمُورِينَ مِنْكَ وَمِنْهُ بِالْمَدَدِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، اللَّهُمَّ أَفْضُ صَلَاةٍ صَلَوَاتِكَ وَسَلَامَةٍ تَسْلِيمَاتِكَ عَلَىٰ أَوَّلِ التَّعْيِينَاتِ الْمُفَاضَةِ مِنَ الْعَمَاءِ الرَّبَّانِيِّ ، وَآخِرِ التَّنَزُّلَاتِ الْمُضَافَةِ إِلَىٰ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَنَقْطَةِ الْأَمْرِ الْجَوَالَةِ بِدَوَائِرِ الْأَكْوَانِ ، سِرِّ الْهُيُوتِ الَّتِي فِي كُلِّ شَيْءٍ سَارِيَةٍ ، وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَجْرَدَةٌ وَعَارِيَةٌ ، كَلِمَةِ الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ ،

وفاتحةِ الكَنْزِ الْمُطْلَسِ، الْمُظْهِرِ الاسْمِ الْجَامِعِ بَيْنَ عَجَزِ الْعِبُودِيَّةِ وَشُهُودِ عِظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالنَّفْسِ الرَّحْمَانِيِّ السَّارِي بِمَوَادِّ الْكَلِمَاتِ التَّامَّاتِ، وَالْفَيْضِ الْأَقْدَسِ الذَّاتِيِّ الَّذِي تَعَيَّنَتْ بِهِ الْأَعْيَانُ وَاسْتَعْدَادَاتُهَا، وَالْفَيْضِ الْمُقَدَّسِ الصِّفَاتِيِّ الَّذِي تَكَوَّنَتْ بِهِ الْأَكْوَانُ وَاسْتِمْدَادَاتُهَا، مَطْلَعِ شَمْسِ الذَّاتِ فِي سَمَاءِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَمَنْبَعِ الْإِفَاضَاتِ فِي رِيَاضِ النَّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ، خَطِّ الْوَحْدَةِ بَيْنَ قَوْسِي الْأَحَدِيَّةِ وَالْوَحِيدِيَّةِ، وَمَرْكَزِ إِحَاطَةِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، اللَّهُمَّ يَا رَبَّ يَا مَنْ لَيْسَ حِجَابُهُ إِلَّا النُّورَ، وَلَا خِفَاؤُهُ إِلَّا شِدَّةَ الظُّهُورِ، أَسْأَلُكَ بِكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَاةً تُكْحِلُ بِهَا بَصِيرَتِي بِالنُّورِ الْمَرْشُوشِ فِي الْأَزَلِ، لِأَشْهَدَ فَنَاءً مَا لَمْ يَكُنْ، وَبِقَاءً مَا لَمْ يَزَلْ، وَأَرَى الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ فِي أَصْلِهَا مَعْدُومَةً مَفْقُودَةً، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ لَمْحَةٍ وَنَفْسٍ بَعْدَ كُلِّ مَعْلُومٍ لَكَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيَّ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَحَبِيبِكَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْحَبِيبِ، الْعَالِي الْقَدْرِ، الْعَظِيمِ الْجَاهِ، صَاحِبِ النُّورِ الْأَزْهَرِ، وَالْجَاهِ الْأَكْبَرِ، وَالْحَوْضِ وَالْكَوْثَرِ، صَلَاةً كُلُّ عُسْرٍ لَنَا وَلذَرِينَا بِهَا يَتَيْسَّرُ، وَكُلُّ ذَنْبٍ لَنَا بِهَا يُغْفَرُ، وَكُلُّ عَيْبٍ لَنَا بِهَا يُسْتَرُ، وَكُلُّ نَقْصٍ فِي دِينِنَا وَدُنْيَانَا بِهَا يُجْبَرُ، وَكُلُّ عَدُوٍّ وَظَالِمٍ لَنَا بِهَا يُدْحَرُ، وَعَلَى رَدِّ مَا أَخَذَهُ مِنَّا يُغْلَبُ وَيُقْهَرُ، وَكُلُّ خَيْرٍ آتَيْتَهُ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، يَأْتِي إِلَيْنَا حَالًا وَيَخْضُرُ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ لَمْحَةٍ وَنَفْسٍ بَعْدَ كُلِّ مَعْلُومٍ لَكَ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيَّ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْحَبِيبِ،

العاليِ القدرِ العظيمِ الجاهِ ، صلاةً تُشْفِينَا بِهَا وَذُرِّيَّتَنَا مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ
وَبِأَسِّ ، وَتُغْنِينَا بِهَا عَنْ جَمِيعِ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ، اللَّهُمَّ أَغْنِنَا بِذِكْرِكَ عَنْ
ذِكْرِهِمْ ، وَبِخَيْرِكَ عَنْ خَيْرِهِمْ ، وَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْخُصُوصِيَّةِ مِنْ بَيْنِهِمْ ،
وَنَجِّنَا بِقُدْرَتِكَ مِنْ شَرِّهِمْ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَسَلَّمَ ، فِي كُلِّ لَمْحَةٍ وَنَفْسٍ بِعَدَدِ كُلِّ مَعْلُومٍ لَكَ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ بِحَرِّ أَنْوَارِكَ ، وَمَعْدِنِ
أَسْرَارِكَ ، وَلِسَانِ حُجَّتِكَ ، وَعَرُوسِ مَمْلَكَتِكَ ، وَإِمَامِ حَضْرَتِكَ ، وَطِرَازِ
مُلْكِكَ ، وَمِفْتَاحِ خَزَائِنِ رَحْمَتِكَ ، وَطَرِيقِ شَرِيعَتِكَ ، الْمَتَلَدِّ بِتَوْحِيدِكَ ،
إِنْسَانِ عَيْنِ الْوُجُودِ ، وَالسَّبَبِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ ، عَيْنِ أَعْيَانِ خَلْقِكَ الْمَتَقَدِّمِ
مِنْ نُورِ ضِيَائِكَ ، صَلَاةً تَدُومُ بِدَوَامِكَ ، وَتَبْقَى بِبِقَائِكَ ، لَا مُنْتَهَى لَهَا
دُونَ عِلْمِكَ ، صَلَاةً تُرْضِيكَ وَتُرْضِيهِ وَتَرْضَى بِهَا عَنَّا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ،
وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ ، وَأَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمِيَامِينَ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، صَلَاةً تُكْرِمُنَا بِهَا
وَذُرِّيَّتَنَا بِكَمَالِ الْحُبِّ لَكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، وَكَمَالِ الْحُبِّ وَالِاتِّبَاعِ
وَالْمُرَافَقَةِ لِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَعْلَى جَنَّاتِ الْخُلْدِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَسَلَّمَ فِي كُلِّ لَمْحَةٍ وَنَفْسٍ بِعَدَدِ كُلِّ مَعْلُومٍ لَكَ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الرَّسُولِ ،
صَلَاةً تَمُنُّ بِهَا عَلَيْنَا وَعَلَى ذُرِّيَّتِنَا بِجَاهِهِ عِنْدَكَ بِالْقَبُولِ مَعَ الْوُصُولِ ،
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ الْعُصُورِ وَالذُّهُورِ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ ،

صَلَاةٌ تُكْرِمُنَا بِهَا وَذَرِّبْتَنَا بِجَاهِهِ عِنْدَكَ بِتَمَامِ النُّورِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ
الْكَامِلَةِ، وَالْعَفْوِ وَالْعَافِيَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فِي
كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الْكَرِيمِ،
صَلَاةً تُسَعِّفُنَا بِهَا بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى وَوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، بِنُورٍ يَشْفِي مِنَّا
الْقَلْبَ وَالْجِسْمَ السَّقِيمَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ عَدَدَ مَا وَسِعَهُ عِلْمُ اللَّهِ
الْعَظِيمِ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَاحِبِ خَيْرِ الْكُتُبِ،
صَلَاةً تَرْفَعُ بِهَا عَن بَصَائِرِنَا وَأَرْوَاحِنَا وَقُلُوبِنَا الْحُجْبَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَسَلِّمْ فِي كُلِّ لَمَحَةٍ وَنَفْسٍ عَدَدَ كُلِّ حَرْفٍ نَطَقَ بِهِ نَاطِقٌ أَوْ كُتِبَ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَاةً تُقَرِّبُنَا بِهَا وَذَرِّبْتَنَا
إِلَيْكَ، وَتَجْمَعُ بِهَا شَمَلَنَا عَلَيْكَ، وَتَفْتَحُ لَنَا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالْفَهْمِ
وَالْيَقِينِ، وَالتَّقَى وَالتَّوْفِيقِ، وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعَفْوِ وَالْعَافِيَةِ خَزَائِنَكَ، وَتُسَبِّغُ
بِهَا عَلَيْنَا رِزْقَكَ وَسِتْرَكَ وَلُطْفَكَ وَرَحْمَتَكَ، وَتُدْخِلُنَا بِهَا جَنَّتِكَ، وَتَلْقِينَا
بِهَا فِي الدَّارَيْنِ نَضْرَةً وَسُرُورًا، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ عَدَدَ مَا وَسِعَهُ
عِلْمُ اللَّهِ، صَلَاةً دَائِمَةً بِدَوَامِ مُلْكِ اللَّهِ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ صَلَاةً أَنْتَ لَهَا أَهْلٌ وَهُوَ لَهَا أَهْلٌ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ لِمَا أُغْلِقَ
وَالْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، نَاصِرِ الْحَقِّ بِالْحَقِّ، الْهَادِي إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ،
وَعَلَى آلِهِ حَقَّ قَدْرِهِ وَمَقْدَارِهِ الْعَظِيمِ .

وَصَلِّ اللّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ بِعَدَدِ حَسَنَاتِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ، فِي كُلِّ لَمَحَةٍ وَنَفْسٍ بِعَدَدِ كُلِّ مَعْلُومٍ لَكَ.

اللّهُمَّ جَدِّدْ وَجَرِّدْ فِي هَذَا الْوَقْتِ وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ مِنْ صَلَوَاتِكَ التَّامَّةِ، وَتَحِيَّاتِكَ الزَّاكِيَّاتِ وَرِضْوَانِكَ الْأَكْبَرِ الْأَتَمِّ عَلَى أَكْمَلِ عَبْدٍ لَكَ فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ بَنِي آدَمَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَقَمْتَهُ لَكَ ظِلًّا، وَجَعَلْتَهُ لِحَوَائِجِ خَلْقِكَ قِبْلَةً وَمَحَلًّا، وَاصْطَفَيْتَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَقَمْتَهُ بِحَجَّتِكَ، وَأَظْهَرْتَهُ بِصُورَتِكَ، وَاخْتَرْتَهُ مُسْتَوًى لِتَجَلِّيَاتِكَ، وَمَنْزِلًا لِتَنْفِيذِ أَوْامِرِكَ وَنَوَاهِيكَ فِي أَرْضِكَ وَسَمَاوَاتِكَ، وَوَاسِطَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَخْلُوقَاتِكَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَاةً أَنْتَ لَهَا أَهْلٌ، اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَاةً هُوَ لَهَا أَهْلٌ. اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ كَمَا لَا نَهَايَةَ لِكَمَالِكَ وَعَدَدَ كَمَالِهِ.

وَصَلِّ اللّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّديَّةِ، وَاللَّطِيفَةِ الْأَحَدِيَّةِ، شَمْسِ سَمَاءِ الْأَسْرَارِ وَمَظْهَرِ الْأَنْوَارِ، وَمَرْكَزِ مَدَارِ الْجَلَالِ، وَقُطْبِ فَلَكِ الْجَمَالِ، النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ كَمَا أَمَرْتَنَا أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَصَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَصَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ بِعَدَدِ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ، وَصَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ بِعَدَدِ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ، وَصَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ. وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيِّدنا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، رسول

الله ﷺ ، صاحبِ النورِ الأزهرِ ، والجاهِ الأكبرِ ، والحوضِ والكوثرِ ،
 حاملِ لواءِ قسمةِ العطاءِ الرباني ، وسدةِ المددِ الفياضِ الصمداني ﷺ ،
 من توسل به آدم ﷺ ، وأخذ له ميثاق الأنبياء على تصديقه ﷺ ، سيدي
 محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ ، الذي في بعض درسه ﷺ علم
 إدريس ، وفي طيِّ خوفه ﷺ بكاء داود ، وفي ضمن وجده ﷺ حزن
 يعقوب ، وفي سر جده ﷺ صبر أيوب ، بعض غناه ﷺ يزيد على
 ملك سليمان ، حاز ﷺ خلة الخليل ، ونال ﷺ تكليم موسى ، واسترجع
 له ﷺ النظر عند قاب قوسين ، فهو ﷺ جملة الجمال ، وكل الكمال ،
 وزينة الدهر ، يزيد ﷺ على الأنبياء زيادة الشمس على البدر ، والبحر
 على القطر ، فهو ﷺ صدرهم وبدرهم ، وهو ﷺ واسطة عقد الأنبياء ،
 وعليه ﷺ يدور أمرهم ، قطب فلکهم ، عين كتيبتهم ، جوهرة قلاذتهم ،
 بيت قصيدتهم ، حاتمهم ، خاتمهم ، تحركت لتعظيمه ﷺ السواكن ،
 فحن إليه ﷺ الجذع ، وسبح الحصى ، وتزلزل الجبل ، وتكلم الذئب ،
 كلُّ كنى عن شوقه وحبه له ﷺ بلغته .

اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ على سيدي ومولاي الحبيب الأعظم
 رسول الله ﷺ ، من إذا قامت القيامة فموسى صاحبه ﷺ ، وعيسى
 حاجبه ﷺ ، والخليل في عسكره ﷺ ، وآدم ينادي بلسان حاله : يا ولد
 صورتى ويا والد معناني ، ما صعد من بحور الأكوان أشرف من درة
 نينا صلى الله عليه وآله وسلم ، طرة غرته ﷺ أحسن من جمال
 يوسف ، لعاب فيه ﷺ أشفى من البرء ، شمس شرعه ﷺ لا يدركها
 كسوف ناسخ ، وقمر دينه ﷺ لا يدخل في محاق .

اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ على سيدي ومولاي الحبيب الأعظم
 ﷺ قائد الغر الميامين القائل: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ،
 وَاللَّهُ الْمُعْطِي وَأَنَا الْقَاسِمُ ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ
 خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ» . صلاة دائمة ترضيك يا رب
 وترضيه وترضى بها عني وعمن قام بقراءتها أو ساهم بطباعتها من
 عبادك المؤمنين ، وعلى آله وصحبه مصابيح الهدى والصفوة من
 المؤمنين الصادقين .

أما بعد: فإن تفسير بعض آيات القرآن الكريم شرف عظيم ، كما أنه
 مقتحم صعب ، لأن من قال بالقرآن برأيه وإن أصاب فقد أخطأ ، كما ورد
 عن جنذب رضي عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال في كتاب الله عز
 وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ» [رواه أبو داود والترمذي] وعن ابن عباس قال:
 قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»
 [رواه الترمذي] فذكر العلماء أن النهي عن تفسير القرآن بالرأي لا يخلو إما
 أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط ، أو
 المراد به أمر آخر ، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في تفسير
 القرآن إلا بما سمعه ، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد فسروا القرآن
 واختلفوا في تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه ، كيف وقد
 دعا النبي ﷺ لابن عباس «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ؟ فإن
 كان التأويل مسموعاً كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك !؟

وإنما النهي يحمل على وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه ،

فيتأول القرآن على وفق هواه ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى .

الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بغريب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ونحو ذلك .

كما أن القرآن الكريم له معانيه الكبيرة والكثيرة، والدلالات المتعددة، والإشارات إلى المعاني الراقية، ولذلك ألزم العلماء مفسري القرآن الكريم شروطاً ليست سهلة التناول لكل أحد من التوسع في علم العربية وغير ذلك ، قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ما من آية إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد هو عبارة وإشارة وأحكام الحلال والحرام، والمطلع مراده من العباد بها، **وجعل القرآن عبارة وإشارة ولطائف وحقائق، فالعبارة للسمع، والإشارة للعقل، واللطائف للمشاهدة، والحقائق للاستسلام.**

وحكي عن جعفر الصادق بن محمد الباقر أنه قال: كتاب الله على أربعة أشياء: العبادة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبادة للعوام والإشارة للخوادم، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء .

وإن من فضل الله تعالى وجوده وكرمه عليّ أن وفقني للتدريس في جامع سيدنا زكريا بحلب، وكان درسي في يوم الأحد بعد صلاة العصر مباشرة من كل أسبوع، وكان فيما ألقيته عليهم تفسير الفاتحة الشريفة، ونظراً لما للفاتحة من معان عظيمة، ودروس وعبر ومسائل تفوق العد

والحصر، أحببت أن أجمع ما ألقيته عليهم في كتاب لتعم فائدته، وليكون تذكرة لإخواني المتابعين للدرس يعودون إليه متى شاءوا، بعد أن شجعني على ذلك بعض المقربين إليّ، والصفوة من أحبتي، وحرصهم على المشاركة في تكاليف طباعته، مبتغين الأجر والثواب، ولينالوا الجزاء الأوفى من الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة.

ولما كان أصل هذا الكتاب محاضرات ودروساً ارتجالية، ومن شأن الدروس أن تخلو من الإحالات وذكر المراجع، لهذا خلا هذا الكتاب في أغلب مواضعه من عزو المعلومة إلى مصدرها، لأنني عوّلت في جمع مادة الكتاب على المعلومة النافعة، بغض النظر عن قائلها، عاملاً بالحكمة التي تقول: العبرة بما قال وليست بمن قال، والعبرة بالقابل بغض النظر عن القائل.

وقد يوجه بعضهم إليّ اعتراضاً مفادُه: أن مقدمة كتبي تكاد تكون مكررة ومعادة في الغالب؟

والجواب: أنني أفعل ذلك عن عمد وسبق إصرار، لأنني أتخذ من صيغ الحمد لله تعالى، ومن الصلاة على سيدنا محمد ﷺ وسيلة لي إلى الله عز وجل، أرجو أن أنال بها يوم القيامة رحمة الله تعالى ومغفرته ورضوانه، وشفاعة سيدنا محمد ﷺ.

هذا، وإنني لم أتبع طريقة المفسرين في كتابي هذا من ذكر الآية ثم بيان ما يستفاد منها بذكر المعنى العام والخاص ونحو ذلك، بل جعلت الكتاب على نفس الطريقة التي ألقيتها على أحبتي في جامع

سیدنا زکریا ﷺ فی حلب ، وذلك بذكر الآیة ثم ذكر المسائل المستفادة
منها تعداداً ، والله أسأل أن يتقبل ذلك مني فإنه نعم المولى ونعم النصير .

** ** *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مسائل مهمة تتعلق بسورة الفاتحة

أولاً: فضائل الفاتحة وما يستنبط منها:

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ وَمَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْقُوبَ ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ ، فَهِيَ خِدَاجٌ ، هِيَ خِدَاجٌ ، هِيَ خِدَاجٌ ، غَيْرُ تَمَامٍ» . قَالَ : فَقُلْتُ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنِّي أَحْيَانًا أَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ ؟ قَالَ : فَغَمَزَ ذِرَاعِي ، ثُمَّ قَالَ : اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ يَا فَارِسِيُّ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : فَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : «افْرُؤُوا ، يَقُولُ الْعَبْدُ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : حَمِدَنِي عَبْدِي ، وَيَقُولُ الْعَبْدُ : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يَقُولُ اللَّهُ : أَتْنِي عَلَيَّ عَبْدِي ، وَيَقُولُ الْعَبْدُ : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يَقُولُ اللَّهُ : مَجَدَّنِي عَبْدِي ، يَقُولُ الْعَبْدُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ،

يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿﴾ فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

وفي سنن البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب رضي الله عنه وهو قائمٌ يصلي، فصَرَخَ به فقال: «تعال يا أباي». فعجلَ أبي في صلاته، ثمَّ جاءَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما منعَكَ يا أباي أن تُجيبني إذ دعوتك؟ أليس الله تعالى يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟» الآية قالَ أباي: جُرْمٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَدْعُونِي إِلَّا أَجْبَتُكَ، وَإِنْ كُنْتُ مُصَلِّيًا. قالَ: «تُحِبُّ أَنْ أَعْلَمَكَ سُورَةَ لَمْ يَنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟». فقالَ أباي: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قالَ: «لَا تَخْرُجْ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ حَتَّى تَعْلَمَهَا». والتَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَمْشِي يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا بَلَغَ الْبَابَ لِيَخْرُجَ قَالَ لَهُ أباي: السُّورَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَقَفَ فَقَالَ: «نَعَمْ، كَيْفَ تَقْرَأُ فِي صَلَاتِكَ؟». فقرأَ أباي أمَّ الْقُرْآنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنزِلَ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، وَإِنَّهَا لَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي الَّذِي أَتَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

وفي البخاري ومسلم: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا من أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفرٍ فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَضَافُوهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُوهُمْ فَقَالُوا لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ رَاقٍ؟ فَإِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ

لَدِيْعٍ أَوْ مُصَابٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : نَعَمْ ، فَأَتَاهُ فَرَاقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَبَرَأَ الرَّجُلُ ، فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِنْ غَنَمِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَقَالَ : حَتَّى أَذْكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ، فَتَبَسَّمَ وَقَالَ : « وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ ؟ ! ثُمَّ قَالَ : « خُذُوا مِنْهُمْ وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ » .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن جابر عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال : « فَاتِحَةُ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ » .

وفي كتاب الثواب لأبي الشيخ ابن حبان عن عطاء قال : « إِذَا أَرَدْتَ حَاجَةً فَافْرَأْ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ حَتَّى تَخْتِمَهَا تُقْضَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .

❖ وأما ما يستنبط منها من أحكام وفوائد :

فقد ذكر الإمام الفخر الرازي في تفسيره (2/1) : أما قوله جل جلاله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فاعلم أن الحمد إنما يكون حمداً على النعمة ، والحمد على النعمة لا يمكن إلا بعد معرفة تلك النعمة ، لكن أقسام نعم الله خارجة عن التحديد والإحصاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: 34] ، ولنتكلم في مثال واحد ، وهو أن العاقل يجب أن يعتبر ذاته ، وذلك لأنه مؤلف من نفس وبدن ؛ ولا شك أن أدون الجزأين وأقلهما فضيلة ومنفعة هو البدن ، ثم إن أصحاب التشريح وجدوا قريباً من خمسة آلاف نوع من المنافع والمصالح التي دبرها الله عز وجل بحكمته في تخليق بدن الإنسان .

ثم إن من وقف على هذه الأصناف المذكورة في «كتب التشریح» عرف أن نسبة هذا القدر المعلوم المذكور إلى ما لم يعلم وما لم يذكر كالقطرة في البحر المحيط، وعند هذا يظهر أن معرفة أقسام حكمة الرحمن في خلق الإنسان تشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أكثر.

ثم إذا ضُمَّت إلى هذه الجملة آثارُ حكم الله تعالى في تخليق العرش والكرسي وأطباق السموات، وأجرام النيرات من الثوابت والسيارات، وتخصيص كل واحد منها بقدر مخصوص ولون مخصوص وغير مخصوص، ثم يضم إليها آثار حكم الله تعالى في تخليق الأمهات والمولدات من الجمادات والنباتات والحيوانات وأصناف أقسامها وأحوالها، علم أن هذا المجموع مشتمل على ألف مسألة أو أكثر أو أقل.

ثم إنه تعالى نبه على أن أكثرها مخلوق لمنفعة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [البجائية: 13] وحينئذٍ يظهر أن قوله جل جلاله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مشتمل على ألف مسألة، أو أكثر أو أقل.

ثانياً: أسماء سورة الفاتحة وأسباب هذه التسمية:

أسمائها قريبة من ثلاثين، منها: الفاتحة، فاتحة الكتاب، الحمد، سورة الحمد، الشافية، الشفاء، سورة الشفاء، الأساس، أساس القرآن، أم القرآن، أم الكتاب، الوافية، الكافية، الصلاة، سورة

الصَّلَاةَ ، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث ، يعني فاتحة الكتاب ، والسَّبع المثاني ؛ لأنها تُتَنَّى في كل ركعة ، أو لاشتمالها على الثَّناء على الله تعالى ، أو لتثنية نزولها ، سورة الفاتحة ، سورة الثَّناء ، سورة أمَّ القرآن ، سورة أم الكتاب ، سورة الأساس ، الرُّقِيَّة ، لقوله ﷺ «وما أدراك أنها رُقِيَّة»!؟

وسميت فاتحة الكتاب: لأن الله بها افتتح القرآن . وقيل: وجه التسمية بفاتحة الكتاب إما لافتتاح المصاحف والتعليم وقراءة القرآن والصلاة بها ، وإما لأن الحمد فاتحة كل كلام ، وإما لأنها أول سورة نزلت ، وإما لأنها أول ما كتب في اللوح المحفوظ ، وإما لأنها فاتحة أبواب المقاصد في الدنيا ، وأبواب الجنان في العقبى ، وإما لأن انفتاح أبواب خزائن أسرار الكتاب بها ، لأنها مفتاح كنوز لطائف الخطاب بانجلائها ينكشف جميع القرآن لأهل البيان ، لأن من عرف معانيها يفتح بها أقفال المتشابهات ، ويقتبس بسناها أنوار الآيات .

وسميت أم القرآن وأم الكتاب: لأنها أصل القرآن منها بدئ القرآن ، وأم الشيء: أصله ، ويقال لمكة: أم القرى لأنها أصل البلاد دحيت الأرض من تحتها .

وقيل: لأنها مقدمة وإمام لما يتلوها من السور ، ويبدأ بكتابتها في المصحف وبقراءتها في الصلاة .

وقيل: سميت بأم القرآن ، وأم الشيء أصله لأن المقصود من كل القرآن تقرير أمور أربعة: إقرار بالألوهية والنبوة وإثبات القضاء والقدر .

فإن قيل: إنَّ اشتهار السورة الكريمة بأم الكتاب في أوائل عهد النبوة، قبل تحصيل المجموع بنزول الكل؟ قلنا: يكفي تحصيله باعتبار تحققه في علمه عزَّ وجل، أو في اللوح، أو باعتبار أنه أنزل جملةً إلى السماء الدنيا، وأملاه جبريل على السفرة، ثم كان يُنزل على النبي ﷺ نُجوماً في ثلاثٍ وعشرين سنةً كما هو المشهور، ومدار التسمية كونه مبدأً للكتاب على الترتيب المعهود، لا في القراءة في الصلاة، ولا في التعليم ولا في النزول كما قيل.

وقيل: سميت أمَّ القرآن لكونها أصلاً ومنشأً له، إما لمبدئيتها له، وإما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله عز وجل، والتعبد بأمره ونهيه، وبيان وعده ووعيده، أو على جملة معانيه من الحكَم النظرية، والأحكام العملية، التي هي سلوكُ الصراط المستقيم، والاطلاعُ على معارج السعداء، ومنازل الأَشقياء.

وتسمى أم القرآن لحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن» ولاشتمالها على المعاني التي في القرآن، كما تسمى سورة الواقعة والكافية لذلك، وتسمى سورة الكنز لقوله ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى: «فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشي» [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

وتسمى سورة الشفاء والشفافية لقوله عليه السلام: «فاتحة الكتاب شفاء من كل داء إلا السام».

وسورة الأساس فإنها أساس القرآن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا اعتلت أو اشتكيت فعليك بالأساس.

وسميت الفاتحة أيضاً بسورة السؤال، وسورة الشكر، وسورة الدعاء، لاشتمالها عليها.

وسميت بالسبع المثاني: لأنها سبع آيات، أو لأن كل آية منها تقوم مقام سبع من القرآن، فمن قرأها أعطي ثواب قراءة الكل، أو لأن من فتح فاه بقراءة آياتها السبع غلقت عنه أبواب النيران السبعة.

وقيل: سميت مثاني لأنها تثنى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة. وقال مجاهد: سميت مثاني لأن الله تعالى استثنى لها هذه الأمة فذخرها لهم.

وقيل: سميت السبع بالمثاني لأنها تشفع في كل ركعة سورة حقيقة أو حكماً، أو لأن نزولها مرتين مرة في مكة ومرة في المدينة.

ثالثاً: مقصود الفاتحة:

المقصود من نزول هذه السورة تعليم العباد التيمُّن والتبَّرك باسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء الأمور، وتلقين العباد شكر نعم المنعم؛ والتوكُّل عليه في باب الرِّزق المقسوم، وتقوية رجاء العبد برحمة الله تعالى، والتَّنبية على ترقُّب العبد الحسابَ والجزاء يوم القيامة، وإِخلاص العبوديَّة عن الشرك، وطلب التوفيق والعصمة من الله، والاستعانة والاستمداد في أداء العبادات، وطلب الثبات والاستقامة على طريق خواصَّ عباد الله، والرَّغبة في سلوك مسالكهم، وطلب الأمان من العُصب والضلال في جميع الأحوال، والأفعال، وختم

الجميع بكلمة آمين، فإنها استجابة للدعاء، واستنزال للرحمة، وهي خاتم الرحمة التي ختم بها فاتحة كتابه.

ومن مقاصد الفاتحة أيضاً: أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنی والصفات العليا إليها ومدارها عليها، وهي: الله، والرب، والرحمن.

وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة، ف«إياك نعبد» مبني على الإلهية، «وإياك نستعين» على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته، والثناء والمجد كمالان لعظيم قدسه.

وتضمنت إثبات المعاد وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

ومن مقاصد سورة الفاتحة إثبات النبوات وذلك من جهات عديدة:

الأول: كونه رب العالمين، فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملاً لا يُعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به.

الثاني: أخذها من اسم «الله»، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم الرحمن حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلاً وإخراج الحب، فاقضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، أما أولو الألباب فقد أدركوا منه أمراً وراء ذلك.

الرابع: من ذكر يوم الدين، فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه، وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسبق الأبرار إلى النعيم والفجار إلى الجحيم.

الخامس: من قوله «إياك نعبد»، فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادته وهي شكره وحبه وخشيته أمر فطري ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول يستحيل تعطيل العالم عنه، فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل ولم يؤمن به، ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به.

السادس: من قوله «اهدنا الصراط المستقيم» فالهداية هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل

إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في قلب العبد يزيد ويحبب إلى القلب ويجعله مؤثراً له راضياً به راغباً فيه، وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملمته ولا نهتدي لتفاصيله أمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

ثم إنَّ للهداية مرتبةً أخرى - وهي آخر مراتبها - وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة وهو الصراط الموصل إليها فمن هدي في هذه الدار الدنيا إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدي هناك في الآخرة إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على

متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار...

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حدو القذة بالقذة جزاءً وفاقاً، ﴿هَلْ نُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ ولينظر الشبهات والشهوات التي تُعيقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم فإنها الكلايب التي بجانبتي ذاك الصراط تخطفه وتُعيقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر.

السابع: من معرفة نفس المسؤول وهو الصراط المستقيم، ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعيينه طريقاً للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة، فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته، وإضافته إلى المنعم عليهم ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعيينه طريقاً.

والصراط تارة يضاف إلى الله إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ ، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ﴾ وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة لكونهم أهل سلوكه ، وهو المنسوب لهم وهم المارون عليه .

الثامن: من ذكر المنعم عليهم وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال ، فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة ، لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق أو جاهلاً به ، والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له ، فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة ، فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه ، وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ ، والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه ، والجاهل بالحق هو الضال ، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل ، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل ، فكل منهما ضال مغضوب عليه ، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به

ومن هاهنا كان اليهود أحق به وهو متغلظ في حقهم كقوله تعالى في حقهم: ﴿بِسْمَا أَشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة:90] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ

مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنِ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِيبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ
وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿ [المائدة:60] .
والجاهل بالحق أحق باسم الضلال ، ومن هنا وصفت النصارى به في
قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا
وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة:77] فالأولى في سياق الخطاب
مع اليهود ، والثانية في سياقه مع النصارى ، وفي الترمذي وصحيح ابن
حبان من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «اليهود
مغضوب عليهم والنصارى ضالون» [سنن الترمذي] .

ففي ذكر المنعم عليهم وهم من عرف الحق واتبعه ، والمغضوب
عليهم وهم من عرفه واتبع هواه ، والضالين وهم من جهله ، ما يستلزم
ثبوت الرسالة والنبوة ، لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود ،
وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة .

رابعاً: عدد آيات سورة الفاتحة:

وأما عدد الآيات فسبع بالإجماع ؛ غير أن منهم من عدَّ ﴿ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ ﴾ دون البسمة ؛ ومنهم من عكس . وشدَّ قوم وقالوا: ثمان آيات .
وشدَّ آخرون فجعلوها ستَّ آيات ، وعدد كلماتها خمس وعشرون ،
وعدد حروفها مئة وثلاثة وعشرون حرفاً .

واختلف الأئمة في شأن البسمة في أوائل السور الكريمة فقيل: إنها ليست من القرآن أصلاً، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه ومذهب مالك، والمشهور من مذهب قدماء الحنفية، وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها. وقيل: إنها آية مفردة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها، وهو الصحيح من مذهب الحنفية، وقيل: هي آية تامة من كل سورة صُدِّرت بها، وهو قول ابن عباس وقد نُسب إلى ابن عمر أيضاً رضي الله عنهم، وعليه يُحمل إطلاقُ عبارة ابن الجوزي في زاد المسير حيث قال: روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنها أنزلت مع كل سورة، وهو أيضاً مذهب سعيد بن جبيرة والزُّهري وعطاء وعبد الله ابن المبارك، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما، وهو القول الجديد للشافعي رحمه الله، ولذلك يُجهر بها عنده.

وقيل: إنها آية من الفاتحة مع كونها قرآناً في سائر السور أيضاً من غير تعرض لكونها جزءاً منها أو لا، ولا لكونها آية تامة أو لا، وهو أحد قولَي الشافعي على ما ذكره القرطبي. ونقل عن الخطابي أنه قول ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم.

وقيل: إنها آية تامة في الفاتحة وبعضُ في البواقي. وقيل: بعضُ آية في الفاتحة وآية تامة في البواقي.

خامساً: موضع نزول الفاتحة:

قيل: نزلت بمكة وهو الصحيح، لأنه لا يعرف في الإسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب. وقيل: نزلت بالمدينة مرة، وبمكة مرة. ولهذا قيل

لها: السَّبْع المِثْنَانِي ؛ لأنها تُنِيت في النَّزول ، والأوَّل أصح (أنها مكية) ، لأن الله تعالى مَنْ عَلَى الرَّسول ﷺ بقوله ﴿وَلَقَدْ ءَايَنَّاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87] والمراد منها فاتحة الكتاب وسورة الحجر مكية فلم يكن يمن عليه بها قبل نزولها .

سادساً: قراءة الفاتحة في الصلاة:

عدَّ مالك والشافعي الفاتحة ركناً من أركان الصلاة خلافاً لأبي حنيفة وأحمد ، وحجتهما قوله ﷺ للذي علمه الصلاة: «اقرأ ما تيسر من القرآن» .

وقال عبد الله بن المبارك: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يُسمعهم صوته ، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية ، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204] . وهذا مذهب طائفة من العلماء وهو أحد قولي الشافعية ، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة ، وقال الشافعي في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام ، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وقد أفردها الإمام البخاري مصنفاً على حدة ، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً ، والله أعلم .

وروى ابن المبارك عن ثابت بن عجلان قال: سمعت ابن جبير يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا﴾ قال: الإنصات

يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة، وهذا اختيار ابن جرير: أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، كما جاء في الأحاديث بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة.

وقال الخازن في تفسيره: (233/2): واختلف العلماء في القراءة خلف الإمام: فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسرّ، يُروى ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ وهو قول الأوزاعي وإليه ذهب الشافعي.

وذهب قوم إلى أن يقرأ فيما أسرّ الإمام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الإمام فيه، يروى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم ابن محمد، وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق.

وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسرّ الإمام أو جهر، يروى ذلك عن جابر وإليه ذهب أصحاب الرأي.

حجة من لا يرى القراءة خلف الإمام ظاهر هذه الآية، وحجة من قال: يقرأ في السرية دون الجهرية قوله: إن الآية تدل على الأمر بالاستماع لقراءة القرآن ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الإمام، فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية جمعاً بين دلائل الكتاب والسنة، وحجة من أوجب القراءة خلف الإمام في الصلاة السرية والجهرية قال: الآية واردة في غير الفاتحة لأن دلائل السنة قد دلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف

الإمام، ولم يفرق بين السرية والجهرية .

قالوا: وإذا قرأ الفاتحة خلف الإمام تتبع سكتاته ولا ينازعه في القراءة ولا يجهر بالقراءة خلفه، ويدل عليه ما روى عبادة بن الصامت قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: «أراكم تقرؤون وراء إمامكم»؟ قال: قلنا: يا رسول الله أي والله، قال: «لا تفعلوا إلا بأمر القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها» أخرجه الترمذي بطوله وأخرجاه في الصحيحين أقصر منه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج - يقولها ثلاثاً - غير تمام» فقل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ قال: اقرأ بها في نفسك... وذكر الحديث .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ يعني لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به من أوامره ونواهيه. اهـ.

*** ** *

تفسير قوله تعالى

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

وفيه إحدى وثلاثون مسألة:

1 - معنى «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»: أي أستجيرُ بجناب

الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنيائي ، أو يصدني عن فعل ما أمرتُ به ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله تعالى .

والاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله تعالى من شر كل ذي شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللياذُ يكون لطلب الخير كما قال المتنبّي:

يا من ألوذُ به فيما أوّمله ومن أعوذ به ممّا أحاذره

والرجيم: أي المطرود، وأصلُ الرجم الرميُّ بالحجارة. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «ما من مولودٍ يولد إلا والشيطانُ يَمسه حين يولد فيستهلُّ صارخاً من مسّه إلا مريمَ وابنهَا» [رواه البخاري ومسلم] ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كلِّ مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

2 - قال العز ابن عبد السلام في تفسيره (56/1): قولنا: «أعوذ

بالله من الشيطان الرجيم» بحسب اللغة فنقول: قوله: «أعوذ» مشتق من العوذ، وله معنيان: أحدهما: الالتجاء والاستجارة، والثاني: الالتصاق يقال: «أطيب اللحم عوذه» وهو ما التصق منه بالعظم، فعلى الوجه الأول معنى قوله «أعوذ بالله» أي: ألتجئ إلى رحمة الله تعالى وعصمته، وعلى الوجه الثاني معناه ألتصقُ نفسي بفضل الله وبرحمته.

وأما «الشيطان» ففيه قولان: الأول: أنه مشتق من الشطن، وهو البعد، يقال: شطن دارك أي بعد، فلا جرم سمي كل متمرد من جن وإنس ودابة شيطاناً لبعده من الرشاد والسداد، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿ [الأنعام: 112] فجعل
من الإنس شياطين ، وركب عمر بردوناً فطفق يتبختر به فجعل يضربه
فلا يزداد إلا تبخترأ فنزل عنه وقال: ما حملتموني إلا على شيطان .
والقول الثاني: أن <الشیطان> مأخوذ من قوله: شاط يشیط
إذا بطل ، ولما كان كل متمرّد كالباطل في نفسه بسبب كونه مبطلاً سمي
شیطاناً .

وأما «الرجيم» فمعناه المرجوم ، فهو فعيل بمعنى مفعول . كقولهم:
كف خضيب أي مخضوب ، ورجل لعين ، أي ملعون .
ثم في كونه مرجوماً وجهان: الأول: أن كونه مرجوماً كونه ملعوناً
من قبل الله تعالى ، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْعَانَ رَجِيمًا﴾ [الحجر:
34] واللعن يسمى رجماً ، وحكى الله تعالى عن والد إبراهيم عليه
السلام أنه قال له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمْنَاكَ﴾ [مریم: 46] قيل: عنى به
الرجم بالقول ، وحكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ
تَنْتَهَ يَلْنُوحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: 116] وفي سورة يس:
﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ [يس: 18] .

والوجه الثاني: أن الشيطان إنما وصف بكونه مرجوماً لأن الله
تعالى أمر الملائكة برمي الشياطين بالشهب والثواقب طرداً لهم من
السموات ، ثم وصف بذلك كل شرير متمرّد .

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ففيه وجهان:

الأول: أن الغرض من الاستعاذة الاحتراز من شر الوسوسة، ومعلوم أن الوسوسة كأنها حروف خفية في قلب الإنسان، ولا يطلع عليها أحد، فكأن العبد يقول: يا من هو على هذه الصفة التي يسمع بها كل مسموع، ويعلم كل سر خفي، أنت تسمع وسوسة الشيطان وتعلم غرضه فيها، وأنت القادر على دفعها عني، فادفعها عني بفضلك، فلهذا السبب كان ذكر السميع العليم أولى بهذا الموضوع من سائر الأذكار.

الثاني: أنه إنما تعين هذا الذكر بهذا الموضوع اقتداءً بلفظ القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأعراف: 200] وقال في حم السجدة: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36].

3 - قال أبو السعود في تفسيره (4/152): ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي إذا أردت قراءته، عبّر بها عن إرادتها على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب إيداناً بأن المراد هي الإرادة المتصلة بالقراءة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فاسأله عز جاره أن يعيدك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ من وساوسه وخطراته كيلا يوسوسك عند القراءة فإن له همّةً بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ الآية، وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها

للتنبية على أنها لغيره عليه الصلاة والسلام وفي سائر الأعمال الصالحة لهم، فإنه عليه السلام حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما ظنكم بمن عداه عليه السلام وفيما عدا القراءة من الأعمال؟ وسيأتي تفصيل الكلام في ذلك برقم (5).

4 - حقيقة الاستعاذة: والاستعاذة لا تتم إلا بعلم وحال وعمل: أما العلم: فهو كون العبد عالماً بكونه عاجزاً عن جلب المنافع الدينية والدينيوية، وعن دفع جميع المضار الدينية والدينيوية، وأن الله تعالى قادر على إيجاد جميع المنافع الدينية والدينيوية، وعلى دفع جميع المضار الدينية والدينيوية قدرة لا يقدر أحد سواه على دفعها عنه. فإذا حصل هذا العلم في القلب تولد عن هذا العلم حصول حالة في القلب، وهي انكسار وتواضع، ويعبر عن تلك الحالة بالتضرع إلى الله تعالى والخضوع له، ثم إن حصول تلك الحالة في القلب يوجب حصول صفة أخرى في القلب وصفة في اللسان.

أما الصفة الحاصلة في القلب: فهي أن يصير العبد مريداً لأن يصونه الله تعالى عن الآفات ويخصه بإفاضة الخيرات والحسنات. وأما الصفة التي في اللسان: فهي أن يصير العبد طالباً لهذا المعنى بلسانه من الله تعالى، وذلك الطلب هو الاستعاذة، وهو قوله: «أعوذ بالله».

5 - وقت الاستعاذة: اتفق أكثر العلماء على أن وقت قراءة الاستعاذة قبل قراءة الفاتحة، واحتجوا بما روى جبير بن مطعم أن

النبي ﷺ حين افتتح الصلاة قال: الله أكبر كبيراً ثلاث مرات، والحمد لله كثيراً ثلاث مرات، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاث مرات، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه.

وعن النخعي أنه بعدها، وهو قول داود الأصفهاني، وإحدى الروایتين عن ابن سيرين، وهؤلاء قالوا: الرجل إذا قرأ سورة الفاتحة بتمامها وقال: «آمين» فبعد ذلك يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» واستدلوا على صحة قولهم بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98] وقالوا: دلت هذه الآية على أن قراءة القرآن شرط، وذكر الاستعاذة جزء، والجزء متأخر عن الشرط، فوجب أن تكون الاستعاذة متأخرة عن قراءة القرآن، ثم قالوا: وهذا موافق لما في العقل، لأن من قرأ القرآن فقد استوجب الثواب العظيم، فلو دخله العجب في أداء تلك الطاعة سقط ذلك الثواب، لما ورد في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ؛ وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَكَلِمَةُ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ». فهذا السبب أمره الله سبحانه وتعالى بأن يستعيد من الشيطان، لئلا يحمله الشيطان بعد قراءة القرآن على عمل يحبط ثواب تلك الطاعة.

وقد أخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب القراءة أبو هريرة ومالك رضي الله عنه وابن سيرين وداود وحمزة من القراء، وعن ابن مسعود

ﷺ: قرأتُ على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال عليه السلام: «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» هكذا أقرأنيه جبريلُ عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ» [رواه الثعلبي في تفسيره بسند ضعيف].

6 - حكم الاستعاذة: أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي إذا أردت أن تقرأ، فأوقع الماضي موقع المستقبل، وهذا الأمر على الندب في قول الجمهور في كل قراءة في غير الصلاة.

وذهب بعض أهل العلم - منهم عطاء - إلى القول بوجوب التعوذ قبل قراءة القرآن الكريم، واستدلوا بأن قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ أمر، وهو للوجوب، ثم إنه يجب القول بوجوبه عند كل القراءات، لأنه تعالى قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على التعليل، والحكم يتكرر لأجل تكرر العلة. واستدلوا أيضاً بأنه تعالى أمر بالاستعاذة لدفع الشر من الشيطان الرجيم، لأن قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98] مشعر بذلك، ودفع شر الشيطان واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فوجب أن تكون الاستعاذة واجبة وأن طريقة الاحتياط توجب الاستعاذة.

7 - التعوذ في الصلاة: التعوذ مستحب قبل القراءة عند

الأكثرين ، وقال مالك: لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ في قيام شهر رمضان .

8 - هل يسر بالتعوذ أو يجهر؟ قال الشافعي رحمته الله في «الأم»:

روي أن عبد الله بن عمر لما قرأ أسر بالتعوذ، وعن أبي هريرة أنه جهر به، ثم قال: فإن جهر به جاز، وإن أسر به أيضاً جاز، وقال في «الإملاء»: ويجهر بالتعوذ، فإن أسر لم يضر، بيد أن الجهر عنده أولى، وأقول: الاستعاذة إنما تقرأ بعد الافتتاح وقبل الفاتحة، فإن ألحقناها بما قبلها لزم الإسرار، وإن ألحقناها بالفاتحة لزم الجهر، إلا أن المشابهة بينها وبين الافتتاح أتم.

وقال الإمام النووي في الأذكار (70/1 - 71): اعلم أن التَعَوُّذ بعد دعاء الاستفتاح سنة بالاتفاق، وهو مقدمة للقراءة، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98] معناه عند جماهير العلماء: إذا أردت القراءة فاستعد بالله.

واعلم أن اللفظ المختار في التَعَوُّذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وجاء: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ولا بأس به، ولكن المشهور المختار هو الأوّل، وروينا في سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقي وغيرها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل القراءة في الصلاة: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ نَفْخِهِ وَنَفْثِهِ وَهَمْزِهِ» وفي رواية: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ

هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ» وجاء في تفسيره في الحديث ، أن همزه: المؤتة ، وهي الجنون ، ونفخه: الكبر ، ونفثه: الشعر ، والله أعلم .

واعلم أن التعمّد مستحبّ ليس بواجب ، لو تركه لم يَأْثَمَ ولا تبطلُ صلاته سواء تركه عمداً أو سهواً ، ولا يسجد للسهو ، وهو مستحبّ في جميع الصلوات الفرائض والنوافل كلها ، ويستحبّ في صلاة الجنّازة على الأصحّ ، ويستحبّ للقارئ خارج الصلاة بإجماع أيضاً .

واعلم أن التعمّد مستحبّ في الركعة الأولى بالاتفاق ، فإن لم يتعمّد في الأولى أتى به في الثانية ، فإن لم يفعل ففيما بعدها ، فلو تعمّد في الأولى هل يستحبّ في الثانية؟ فيه وجهان: أحدهما أنه يستحبّ لكنه في الأولى أكد .

وإذا تعمّد في الصلاة التي يُسرّ فيها بالقراءة أسرّ بالتعمّد ، فإن تعمّد في التي يُجهر فيها بالقراءة فهل يجهر؟ فيه خلاف: من الشافعية من قال: يُسرّ ، وقال الجمهور: للشافعي في المسألة قولان: أحدهما يستوي الجهر والإسرار ، وهو نصّه في الأم . والثاني يُسنّ الجهر ، وهو نصّه في الإملاء . ومنهم من قال: فيه قولان أحدهما: يجهر ، صححه الشيخ أبو حامد الإسفرايني إمام العراقيين وصاحبه المحاملي وغيرهما ، وهو الذي كان يفعله أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يُسرّ ، وهو الأصحّ عند جمهور أصحابنا ، وهو المختار ، والله أعلم .

9 - ركن الاستعاذة الأعظم: هو علمه بالله تعالى ، وعلمه بنفسه ، أما علمه بالله: فهو أن يعلم كونه سبحانه وتعالى عالماً بجميع

المعلومات، فإنه لو لم يكن الأمر كذلك لجاز ألا يكون الله عالماً به ولا بأحواله، فعلى هذا التقدير تكون الاستعاذة به عبثاً، ولا بدّ أن يعلم كونه قادراً على جميع الممكنات وإلا فربما كان عاجزاً عن تحصيل مراد العبد، ولا بدّ أن يعلم أيضاً كونه جواداً مطلقاً، إذ لو كان البخل عليه جائزاً لما كان في الاستعاذة فائدة، ولا بدّ أيضاً أن يعلم أنه لا يقدر أحد سوى الله تعالى على أن يعينه على مقاصده، إذ لو جاز أن يكون غير الله يعينه على مقاصده لم تكن الرغبة قوية في الاستعاذة بالله، وذلك لا يتم إلا بالتوحيد المطلق، وأعني بالتوحيد المطلق أن يعلم أن مدبر العالم واحد.

وأما علمه بنفسه: هو أن يعلم أيضاً أن العبد غير مستقل بأفعال نفسه، إذ لو كان مستقلاً بأفعال نفسه لم يكن في الاستعاذة بالغير فائدة، فثبت بما ذكرنا أن العبد ما لم يعرف عزة الربوبية وذلة العبودية لا يصح منه أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وبالجملة فالاستعاذة تطهر القلب عن كل ما يكون مانعاً من الاستغراق في الله، والتسمية توجه القلب إلى هيبة جلال الله، والله الهادي.

10 - هل التعوذ في الصلاة لأجل القراءة؟ أم لأجل الصلاة؟

عند أبي حنيفة ومحمد هو لأجل القراءة، وعند أبي يوسف هو لأجل الصلاة، ويتفرع على هذا الأصل: أن المؤتم هل يتعوذ خلف الإمام أم لا؟ عندهما لا يتعوذ، لأنه لا يقرأ، وعنده يتعوذ، وجه

قولهما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98] علق الاستعاذة على القراءة، ولا قراءة على المقتدي، فلا يتعوذ، ووجه قول أبي يوسف أن التعوذ لو كان للقراءة لكان يتكرر بتكرر القراءة، ولما لم يكن كذلك بل كرر بتكرر الصلاة دل على أنها للصلاة لا للقراءة.

11 - صيغ الاستعاذة: قال تعالى في سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ

الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98] وقال في سورة أخرى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: 6] وفي سورة ثالثة ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200] فلهذا السبب اختلف العلماء: فقال الشافعي: واجب أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وهو قول أبي حنيفة، قالوا: لأن هذا النظم موافق لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98] وموافق أيضاً لظاهر الخبر الذي روينا عن جبير بن مطعم، وقال أحمد: الأولى أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم» جمعاً بين الآيتين، وقال بعضهم: الأولى أن يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»، لأن هذا أيضاً جمع بين الآيتين.

وروى البيهقي في كتاب «السنن» بإسناده عن أبي سعيد الخدري أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر ثلاثاً وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. وقال الثوري والأوزاعي: الأولى

أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أول ما نزل جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام قال: قل يا محمد: أستعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1].

12 - بعض التعويذات النبوية:

جاء في سنن الترمذي عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَقَرَأَ الثَّلَاثَ آيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ، إِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ».

وجاء في صحيح البخاري عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ. اللَّهُمَّ اغْسِلْ قَلْبِي بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرْدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَالْمَأْثَمِ، وَالْمَعْرَمِ».

وأخرج البخاري عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ،
وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ».

وأخرج البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَتَعَوَّذُ
مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ.

وأخرج البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ:
«أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ
يَمُوتُونَ».

وفي موطأ مالك قال: بَلَغَنِي أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ
صلى الله عليه وسلم: إِنِّي أُرْوَعُ فِي مَنَامِي. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ
اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ
يَحْضُرُونَ».

وَعَنْ مَالِكٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ
صلى الله عليه وسلم، فَرَأَى عِفْرِيْتًا مِنَ الْجِنِّ يَطْلُبُهُ بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا التَفَتَ رَسُولُ
اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَأَاهُ، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيْلُ: أَفَلَا أَعَلَّمَكْ كَلِمَاتٍ تَقُولُهُنَّ، إِذَا قُلْتَهُنَّ
طَفِئَتْ شُعْلَتُهُ، وَخَرَّ لِنَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «بَلَى»، فَقَالَ جَبْرِيْلُ:
«فَقُلْ: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَبِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ، اللَّاتِي لَا
يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَشَرِّ مَا يَعْرُجُ
فِيهَا، وَشَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَشَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ فِتْنِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ، وَمِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ».

وفي موطأ مالك عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَسْلَمَ قَالَ: مَا

نِمْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟» فَقَالَ : لَدَغْتَنِي عَقْرَبٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أُمْسَيْتَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ تَضُرَّكَ» .

وَعَنْ مَالِكٍ ، عَنْ سُمَيِّ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ ، عَنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ حَكِيمٍ ، أَنَّ كَعْبَ الْأَخْبَارِ قَالَ : لَوْلَا كَلِمَاتٌ أَقُولُهُنَّ ، لَجَعَلْتَنِي يَهُودُ حِمَارًا . فَقِيلَ لَهُ : وَمَا هُنَّ؟ فَقَالَ : أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ مِنْهُ ، وَبِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ ، وَبِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى كُلِّهَا ، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَبَرًّا وَذَرَأً .

وعند ابن ماجه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبَطَانَةُ» .

وقال رسول الله ﷺ : «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ : بِاسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح ، واللفظ للترمذي . وفي رواية أبي داود: «لَمْ تُصِبْهُ فَجَاءَةٌ بَلَاءٍ» .

وفي سنن أبي داود والنسائي وغيرهما بالإسناد الصحيح عن عليّ رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول عند مضجعه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَبِكَلِمَاتِكَ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ،

اللَّهُمَّ أَنْتَ تَكْشِفُ الْمَعْرَمَ وَالْمَأْتَمَ، اللَّهُمَّ لَا يُهْزَمُ جُنْدُكَ، وَلَا يُخْلَفُ وَعُدُّكَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ» .

وفي سنن أبي داود والترمذي وابن السني وغيرها، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم من الفزع كلمات: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَخْضُرُونِ» قال: وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن مَنْ عقل من بنيه، وَمَنْ لم يعقل كتبه فعلقه عليه. قال الترمذي: حديث حسن .

وفي رواية ابن السني: جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشكا أنه يفزع في منامه، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَخْضُرُونِ» فقالها، فذهب عنه .

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا» وفي رواية «فَلَا يُحَدِّثْ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ فَإِنهَا لَا تَضُرُّهُ» .

وفي صحيح البخاري ومسلم، عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ - وفي رواية: الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ - مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ شِمَالِهِ ثَلَاثًا وَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنهَا لَا تَضُرُّهُ» وفي رواية «فَلْيَبْصُقْ» بدل: فلينفث،

والظاهر أن المراد النفث ، وهو نفخ لطيف لا ريق معه .

وفي سنن أبي داود وغيره عن عبد الله بن عمر الخطاب رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «يَا أَرْضُ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ وَشَرِّ مَا فِيكَ، وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكَ، وَشَرِّ مَا يَدُبُّ عَلَيْكَ؛ أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ، وَمِنْ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ، وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ» .

وفي كتاب ابن السني عن أبي برزة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا صَلَّى الصبح - قال الراوي: لا أعلم إلا قال في سفر - رفع صوته حتى يسمع أصحابه: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي جَعَلْتَهُ عِصْمَةً أَمْرِي، اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي جَعَلْتَ فِيهَا مَعَاشِي - ثلاثَ مرَّات - اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي جَعَلْتَ إِلَيْهَا مَرْجِعِي - ثلاثَ مرَّات - اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ؛ اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ - ثلاثَ مرَّات - لا مانعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» .

13 - قال بعض الصالحين في شرح ما يستفتح به الصلاة: قوله

ﷺ: «سبحانك اللهم وبحمدك» في هذا المقام ينكشف له نور سبحات الجلال ، وقوله ﷺ: «تبارك اسمك» إشارة إلى الدوام المنزه عن الإفناء والإعدام ليطالع حقيقة الأزل في القدم وحقيقة الأبد في البقاء ، فيتجلى له نور الأزل والأبد، وقوله ﷺ: «وتعالى جدك» إشارة إلى أنه أعلى وأعظم من أن تكون صفات جلاله ونعوت كماله محصورة في القدر المذكور، وقوله ﷺ: «ولا إله غيرك» إشارة إلى أن صفات الجلال

وسمات الكمال له تعالى لا لغيره، فهو الكامل الذي لا كامل إلا هو، وفي الحقيقة لا هو إلا هو، وهاهنا يكلّ اللسان وتدهش الأبواب.

ثم عد أيها المصلي إلى نفسك وحالك وقوله ﷺ: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض»، فقولك في الصلاة: «سبحانك اللهم وبحمدك» معراج الملائكة المقربين حيث قالوا: ﴿وَمَنْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30] وهو أيضاً معراج محمد ﷺ لأن معراجه مفتوح بقوله: «سبحانك اللهم وبحمدك»، وقوله «وجهت وجهي» معراج الخليل ﷺ، وقولك: «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي» معراج الحبيب محمد ﷺ. فقد جمع المصلي بين معراج الملائكة المقربين ومعراج عظماء الأنبياء والمرسلين.

ثم إذا فرغت من هذه الحالة فقل: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» لتدفع العجب عن نفسك، وفي هذا المقام يفتح لك أحد أبواب الجنة وهو باب المعرفة، وبقولك: ﴿سَمِ اللَّهُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يفتح باب الذكر، وبقولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يفتح باب الشكر، وبقولك: «الرحمن الرحيم» يفتح باب الرجاء، وبقولك: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يفتح باب الخوف، وبقولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يفتح باب الإخلاص المتولد من معرفة العبودية ومعرفة الربوبية، وبقولك: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يفتح باب الدعاء

والتضرع ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، وبقولك: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إِنْخِ يفتح باب الاقتداء بالأرواح الطيبة والاهتداء بأنوارهم، فجنات المعارف الربانية انفتحت لك أبوابها الثمانية بهذه المقاليد الروحانية، فهذا بيان المعراج الروحاني في الصلاة.

14 - قولنا: (أعوذ بالله): اعتراف بعجز النفس وبقدرة الرب، وهذا يدل على أنه لا وسيلة إلى القرب من حضرة الله إلا بالعجز والانكسار، ثم من الحكم «من عرف نفسه فقد عرف ربه» والمعنى من عرف نفسه بالضعف والقصور عرف ربه بأنه هو القادر على كل مقدور، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالفضل والعدل، ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربه بالكمال والجلال.

15 - (أعوذ بالله): عروج من الخلق إلى الخالق بأن يستدل باحتياج الخلق على وجود الحق الغني القادر، (أعوذ) فيه إقرار على نفسه بالفقر والحاجة، (بالله) إشارة إلى الغنى التام للحق وبأن الحق قادر على تحصيل كل الخيرات ودفع كل الآفات، وأن غيره غير موصوف بهذه الصفة، فلا دافع للحاجات إلا هو، ولا معطي للخيرات إلا هو، فعند مشاهدة هذه الحالة يفرُّ العبد من نفسه ومن كل شيء سوى الحق، فيشاهد في هذا الفرار سر قوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾.

16 - الإقدام على الطاعات لا يتيسر إلا بعد الفرار من الشيطان، وذلك هو الاستعاذة بالله، إلا أنك إذا عرفت هذه الحالة فقد

شاهدت عجزك واعترفت بقصورك فأنا أعينك على الطاعة وأعلمك كيفية الخوض فيها فقل: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

17 - إن سر الاستعاذة هو الالتجاء إلى قادر يدفع الآفات عنك ، ولقد اختصت قراءة القرآن بالاستعاذة لأن أجلّ الأمور التي يلقي الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن ، لأن من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرحمن وتفكر في وعده ووعيده وآياته وبيناته ازدادت رغبته في الطاعات ورهبته عن المحرمات ؛ فلهذا السبب صارت قراءة القرآن من أعظم الطاعات ، فلا جرم كان سعي الشيطان في الصد عنه أبلغ ، وكان احتياج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد ، فهذه الحكمة .

18 - الشيطان عدو الإنسان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6] فلما وصل القارئ الحضرة وشاهد أنواع البهجة والكرامة نسي العدو وأقبل بالكلية على خدمة الحبيب ، فالمقام الأول: هو الفرار وهو قوله: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) والمقام الثاني: وهو الاستقرار في حضرة الملك الجبار فهو قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم).

19 - قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79] فالقلب لما تعلق بغير الله واللسان لما جرى بذكر غير الله حصل فيه نوع من اللوث ، فلا بدّ من استعمال الطهور ، فلما قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ حصل الطهور ، فعند ذلك يستعد للصلاة الحقيقية وهي ذكر الله تعالى

فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ .

20 - الشيطان يعاديك منذ سبعين سنة وأنت تحبه، وهو يخالفك في كل الخيرات وأنت توافقه في كل المرادات، فترك هذه الطريقة المذمومة وأظهر عداوته فقل: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

21 - انظر إلى قصة أبيك فإنه أقسم بأنه له من الناصحين، ثم كان عاقبة ذلك الأمر أنه سعى في إخراجه من الجنة، وأما في حقل فإنه أقسم بأنه يضللك ويغويك فقال: ﴿فِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِينَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ** ﴿ فإذا كانت هذه معاملته مع من أقسم أنه ناصحه، فكيف تكون معاملته مع من أقسم أنه يضلله ويغويه؟

22 - قال الفخر الرازي: لعل قائلاً يقول: لِمَ لَمْ يَقُلْ: «أعوذ بالملائكة» مع أن أدون ملك من الملائكة يكفي في دفع الشيطان؟ فما السبب في أن جعل ذكر هذا الشيطان في مقابلة ذكر الله تعالى؟ وجوابه: كأنَّ الله تعالى يقول: عبدي إنه يراك وأنت لا تراه، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُونَهُمْ﴾ [الأعراف: 27] وإنما نفذ كيده فيكم لأنه يراكم وأنتم لا ترونه، فتمسكوا بمن يرى الشيطان ولا يراه الشيطان، وهو الله سبحانه وتعالى فقولوا: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

23 - أدخل الألف واللام في الشيطان ليكون تعريفاً للجنس؛

لأن الشياطين كثيرة مرئية وغير مرئية، بل المرئي ربما كان أشد،
حكى عن بعض الواعظين أنه قال في مجلسه: إن الرجل إذا أراد أن
يتصدق فإنه يأتيه سبعون شيطاناً فيتعلقون بيديه ورجليه وقلبه ويمنعونه
من الصدقة، فلما سمع بعض القوم ذلك قال: إني أقاتل هؤلاء
السبعين، وخرج من المسجد وأتى المنزل وملاً ذيله من الحنطة وأراد
أن يخرج ويتصدق به فوثبت زوجته وجعلت تنازعه وتحاربه حتى
أخرجت ذلك من ذيله، فرجع الرجل خائباً إلى المسجد فقال الواعظ:
ماذا عملت؟ فقال: هزمت السبعين فجاءت أمهم فهزمتني.

وأما إن جعلنا الألف واللام للعهد فهو أيضاً جائز، لأن جميع
المعاصي برضى هذا الشيطان، والراضي يجري مجرى الفاعل له،
وإذا استبعدت ذلك فاعرفه بالمسألة الشرعية، فإن قراءة الإمام عند
أبي حنيفة قراءة للمقتدي من حيث رضي بها وسكت خلفه.

24 - الحكمة من أنه لا بدّ قبل القراءة من التعوذ، وأما سائر
الطاعات فإنه لا يتعوذ فيها: أنّ العبد قد يتلوّث لسانه بالكذب والغيبة
والنميمة، فأمر الله تعالى العبد بالتعوذ ليصير لسانه طاهراً فيقرأ بلسان
طاهر كلاماً أنزل من رب طيب طاهر.

24 - كأنه تعالى يقول: إنه شيطان رجيم، وأنا رحمن رحيم،
فابتعد عن الشيطان الرجيم لتصل إلى الرحمن الرحيم.

26 - الشيطان عدوك، وأنت عنه غافل غائب، قال تعالى:

﴿إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوُونَهُمْ﴾ [الأعراف: 27]، فعلى هذا

لك عدو غائب ولك حبيب غالب ، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَيَّ
أَمْرِهِ﴾ [يوسف: 21] فإذا قصدك العدو الغائب فافزع إلى الحبيب
الغالب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده .

27 - قال ابن عبد السلام: الفرق بين أن يقال: «أعوذ بالله»
وبين أن يقال: «بالله أعوذ»: الأول لا يفيد الحصر ، والثاني يفيد ، فلم
ورد الأمر بالأول دون الثاني مع أنا بيِّنًا أن الثاني أكمل ؟ وأيضا جاء
قوله: «الحمد لله» وجاء قوله: «الله الحمد» وأما هنا فقد جاء «أعوذ
بالله» وما جاء قوله «بالله أعوذ» فما الفرق ؟

الجواب: قوله: «أعوذ بالله» لفظه الخبر ومعناه الدعاء ، والتقدير:
اللهم أعذني ، ألا ترى أنه قال: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِيَدِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ﴾ كقوله: «أستغفر الله» أي اللهم اغفر لي ، والدليل عليه أن قوله:
(أعوذ بالله) إخبار عن فعله ، وهذا القدر لا فائدة فيه إنما الفائدة في
أن يعيذه الله ، فما السبب في أنه قال: «أعوذ بالله» ولم يقل أعذني ؟

والجواب أن بين الرب وبين العبد عهداً كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا
بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وقال: ﴿وَأَوْفُوا بَعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ فكأنَّ
العبد يقول: أنا مع لؤم الإنسانية ونقص البشرية وفيئ بعهد عبوديتي
حيث قلت: «أعوذ بالله» فأنت مع نهاية الكرم وغاية الفضل والرحمة
أولى بأن تفي بعهد الربوبية فتقول: إني أعينك من الشيطان الرجيم .

28 - جاء في البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ ابْنَةَ الْجَوْنِ

لَمَّا دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَنَا مِنْهَا قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عُذْتُ بِعَظِيمٍ ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ». فمعنى أعوذ: ألتجئ وأعتصم وأتحرز.

29 - وفي صحيح البخاري عن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَانِ فَأَحَدُهُمَا أَحْمَرٌ وَجْهُهُ وَانْتَفَحَتْ أُوْدَاغُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ» فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَقَالَ: وَهَلْ بِي جُنُونٌ؟!

وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد قال: <أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم؛ فإذا قال ذلك؛ قال الشيطان: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ> [رواه أبو داود].

30 - ومنها: الشيطان عدو الإنسان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6] والرحمن مولى الإنسان وخالقه ومصالح مهماته، ثم إن الإنسان عند شروعه في الطاعات والعبادات خاف العدو فاجتهد في أن يتحرى مرضاة الله مالكة ليخلصه من زحمة ذلك العدو وأقبل بالكلية على خدمة الحبيب، فالمقام الأول هو الفرار وهو قوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» والمقام الثاني هو الاستقرار في حضرة الملك الجبار وهو قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم».

31 - قال الفخر الرازي: ومن اللطائف أن قوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾

إشارة إلى نفي ما لا ينبغي من العقائد والأعمال، وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾

إشارة إلى ما ينبغي من الاعتقادات والعمليات، فقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لا

يصير معلوماً إلا بعد الوقوف على جميع العقائد الحقة،

والأعمال الصافية، وهذا هو الترتيب الذي يشهد بصحته العقل

الصحيح، والحق الصريح.

*** **

تفسير قوله تعالى

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

* وفيه إحدى وأربعون مسألة:

1 - قال الفخر الرازي في تفسيره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

تسعة عشر حرفاً، والزبانية تسعة عشر، فالله تعالى يدفع بليتهم بهذه الحروف التسعة عشر، واليوم بليته أربع وعشرون ساعة، ثم فرض خمس صلوات في خمس ساعات فبقي التسع عشرة ساعة لا تستغرق بذكر الله تعالى، وهذه التسعة عشر حرفاً تقع كفارات للذنوب الواقعة في تلك التسع عشرة، وكلمة التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهي سبع كلمات.

وأبواب النار سبعة، وكل كلمة تغلق باباً من أبواب النيران، وعدة حروفها أربعة وعشرون حرفاً، وساعات الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فمن قالها مخلصاً بها من قلبه كفر كل حرفٍ منها ذنوب ساعة، والحمد لله ثمانية أحرف، وأبواب الجنة ثمانية، فمن قال: «الحمد لله» تحقيقاً وفهماً وذوقاً فتحت له أبواب الجنة الثمانية بإذن الله تعالى. اهـ.

وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: من

أراد أن ينجيهِ اللهُ من الزبانية التسعة عشر فليقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ ﴿ فيجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد. ذكره ابن عطية والقرطبي ووجهه ابن عطية ونصره بحديث «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يتدرونها» لقول الرجل: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفاً وغير ذلك..

2 - اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّمْلِ، وَاخْتَلَفُوا فِي كَوْنِهَا فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، فَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ: لَيْسَتْ فِي أَوَائِلِ السُّورِ بِآيَةٍ، وَإِنَّمَا هِيَ اسْتِفْتَاخٌ لِيُعْلَمَ بِهَا مُبْتَدَأُهَا، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: هِيَ آيَةٌ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ، قَوْلًا وَاحِدًا؛ وَهَلْ تَكُونُ آيَةً فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ؟ الْأَصْحَحُ أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ.

جاء في أحكام القرآن لابن العربي (189/4): وَرَوِيَ عَنْ أَبِي ابْنِ كَعْبٍ: آخِرُ مَا نَزَلَ بَرَاءَةٌ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنَا فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَمْ يَأْمُرْنَا فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ بِشَيْءٍ. فَلِذَلِكَ ضُمَّتْ إِلَى الْأَنْفَالِ، وَكَانَتْ شَبِيهَةً بِهَا.

وقال النسفي في تفسيره: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك للابتداء بها، وهو مذهب أبي حنيفة ومن تابعه رحمهم الله، ولذا لا يجهر بها عندهم في الصلاة، وقراء مكة والكوفة على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله، ولذا يجهرون بها في الصلاة، وقالوا: قد أثبتها السلف في المصحف مع الأمر بتجريد

القرآن عما ليس منه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من تركها فقد ترك مئة وأربع عشرة آية من كتاب الله .

3 - بسم الله: تعني معاني عديدة:

منها: أن هذا العمل تفعله لا بسلطتك ولا بقوتك وإنما باسمه سبحانه وتعالى وبسلطته وبحوله وقوته ، مرضاة له وتنفيذاً لأمره ، فإنني باسم إلهي وربّي وباسم الله مليكي وخالقي أفعلُ كذا وأقولُ كذا .
ومنها: أبدأ ببسم الله تعالى ، فإذا أضمر العبد الفعل أولاً فكأنه انتقل من رؤية فعله إلى رؤية وجوب الاستعانة باسم الله ، ومن قال: «باسم الله» ثم أضمر الفعل ثانياً فكأنه رأى وجوب الاستعانة بالله ثم نزل منه إلى أحوال نفسه .

ومنها: ما ذكره القرطبي في تفسيره (98/1): معنى «بسم الله» ، أي بالله ، ومعنى «بالله» أي بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه ، وقال بعضهم: معنى قوله: «بسم الله» يعني بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته ، وهذا تعليم من الله تعالى عباده ، ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جل وعز . ا.هـ .

ومنها: أن مقصد المبتدئ بالبسملة ينبغي أن يكون: جميع عمله ذلك مقارناً ببركة اسم الله تعالى .

4 - قال الفخر الرازي في تفسيره (61/1): كل العلوم تدرج

في الكتب الأربعة ، وعلومها في القرآن ، وعلوم القرآن في الفاتحة ،

وعلوم الفاتحة في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، وعلومها في الباء، من بسم الله، وذلك أن المقصود من كل العلوم وصول العبد إلى الرب، وهذه الباء للإلصاق، فهو يوصل العبد إلى الرب وهو نهاية المطلب وأقصى الأمد. وقيل: إنما وقع ابتداء كتاب الله تعالى بالباء دون الألف، لأن الألف تطاول وترفع، والباء انكسر وتساقط، ومن تواضع لله رفعه الله.

5 - وقال أيضاً في تفسيره (62/1): الباء من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ﴾ متعلقة بمضمر، فنقول: هذا المضمر يحتمل أن يكون اسماً، وأن يكون فعلاً، وعلى التقديرين فيجوز أن يكون متقدماً، وأن يكون متأخراً، فهذه أقسام أربعة. أما إذا كان متقدماً وكان فعلاً فكقولك: أبدأ باسم الله، وأما إذا كان متقدماً وكان اسماً فكقولك: ابتداء الكلام باسم الله، وأما إذا كان متأخراً وكان فعلاً فكقولك: باسم الله أبدأ، وأما إذا كان متأخراً وكان اسماً فكقولك: باسم الله ابتدائي.

والذي يجب البحث هاهنا عنه هو: هل التقديم أولى أم التأخير؟

فنقول: كلاهما وارد في القرآن، أما التقديم فكقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

بِحُرَّتِهَا وَمُرْسَتْهَا﴾ [هود: 41]، وأما التأخير فكقوله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾

[العلق: 1]، وأقول: التقديم عندي أولى، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى قديم واجب الوجود لذاته، فيكون وجوده سابقاً

على وجود غيره، والسابق بالذات يستحق السبق، في الذكر.

الثاني: قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: 3] ، وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ
الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4].

الثالث: أن التقديم في الذكر أدخل في التعظيم.

الرابع: أنه قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهاهنا الفعل متأخر عن الاسم ،
فوجب أن يكون في قوله: (بسم الله) كذلك ، فيكون التقدير باسم الله
أبتدىء.

الخامس: قال الفخر الرازي: سمعت الشيخ الوالد ضياء الدين عمر
رضي الله عنه يقول: سمعت الشيخ أبا القاسم الأنصاري يقول: حضر الشيخ أبو
سعيد بن أبي الخير الميهني مع الأستاذ أبي القاسم القشيري فقال
الأستاذ القشيري: المحققون قالوا: ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله بعده ، فقال
الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير: ذاك مقام المريدين ، أما المحققون
فإنهم ما رأوا شيئاً إلا وكانوا قد رأوا الله قبله .

قلت (أي الرازي): وتحقيق الكلام أن الانتقال من المخلوق إلى
الخالق إشارة إلى برهان الآن ، والنزول من الخالق إلى المخلوق
برهان اللم ، ومعلوم أن برهان اللم أشرف ، وإذا ثبت هذا فمن أضم
الفعل أولاً فكأنه انتقل من رؤية فعله إلى رؤية وجوب الاستعانة باسم
الله ، ومن قال: (باسم الله) ثم أضم الفعل ثانياً فكأنه رأى وجوب
الاستعانة بالله ثم نزل منه إلى أحوال نفسه . ١٠هـ

6 - سيدنا نوح عليه السلام لما ركب السفينة قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

بَجْرَدِهَا وَمُرْسِنَهَا ﴿ فوجد النجاة بنصف هذه الكلمة ، فمن واظب على هذه الكلمة طول عمره كيف يبقى محروماً من النجاة؟

7 - جاء في تفسير التستري: أنه سئل عن معنى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال: الباء بهاء الله عز وجل ، والسين سناء الله عز وجل ، والميم مجد الله عز وجل ، والله: هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها ، وبين الألف واللام منه حرف مكنى غيب من غيب إلى غيب ، وسر من سر إلى سر ، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة . لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس ، الآخذ من الحلال .

8 - والباء باء الملايسة ، هي المصاحبة ، وهي الإلصاق أيضاً ،

فهذه مترادفات في الدلالة على هذا المعنى ، قال صاحب «الكشاف»: وهذا الوجه - أي الملايسة - أعرب وأحسن . أي أحسن من جعل الباء للآلة ، أي أدخل في العربية وأحسن ، لما فيه من زيادة التبرك بملايسة جميع أجزاء الفعل لاسمه تعالى .

9 - قال أبو عبيد: ذكر الاسم في قوله: «بسم الله» صلة زائدة ،

والتقدير بالله ، قال: وإنما ذكر لفظة الاسم: إما للتبرك ، وإما ليكون فرقاً بينه وبين القسم ، والمراد من قوله: «بسم الله» قوله: ابدؤوا باسم الله ، والله تعالى لما أمرنا بالابتداء فهذا الأمر إنما يتناول فعلاً من أفعالنا ، وذلك الفعل هو لفظنا وقولنا ، فوجب أن يكون المراد أبداً بذكر الله ، والمراد أبداً بسم الله ، وأيضاً فالفائدة فيه أنه كما أن ذات الله تعالى

أشرف الذوات فكذلك ذكره أشرف الأذكار، واسمه أشرف الأسماء، فكما أنه في الوجود سابق على كل ما سواه وجب أن يكون ذكره سابقاً على كل الأذكار، وأن يكون اسمه سابقاً على كل الأسماء، وعلى هذا التقدير فقد حصل في لفظ الاسم هذه الفوائد الجليلة.

10 - قال بعض أهل العلم في معنى الباء: معناها الاستعانة أو الملازمة تبركاً، أي باسم الله أقرأ، أو أتلو، وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص، كما في <إياك نعبد>، وتقديرُ أبدأ لاقتضائه اقتصارَ التبرك على البداية مُخَلِّ بما هو المقصود، أعني شمولَ البركة للكل، وادعاءً أن فيه امتثالاً بالحديث الشريف من جهة اللفظ والمعنى معاً.

وتقدير «أقرأ» من جهة المعنى فقط ليس بشيء، فإن مدار الامتثال هو البدء بالتسمية لا تقدير فعله، إذ لم يقل في الحديث الكريم: كلُّ أمرٍ ذي بال لم يُقَلَّ فيه أو لم يُضَمَّر فيه أبدأً. وهذا إلى آخر السورة الكريمة مقولٌ على ألسنة العباد تلقيناً لهم، وإرشاداً إلى كيفية التبرك باسمه تعالى، وهدايةً إلى منهاج الحمد وسؤالِ الفضل.

وإنما كُسرَت الباء ومن حق الحروف المفردة أن تُفتَح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر، كما كُسرَت لامُ الأمر، ولامُ الإضافة داخلةً على المُظهِر للفصل بينهما وبين لامِ الابتداء.

11 - الاسم لفظ جُعِلَ دالاً على ذات حسية أو معنوية بشخصها أو نوعها، وجعله أئمة البصرة مشتقاً من السمو وهو الرفعة، وهذا

اعتداد بالأصل والغالب، وإلا فقد توضع الأعلام لغير ما يهتم به، وإنما أقحم لفظ اسم مضافاً إلى علم الجلالة إذ قيل: (بسم الله) ولم يقل: بالله، لأن المقصود أن يكون الفعل المشروع فيه من شؤون أهل التوحيد الموسومة باسم الإله الواحد، فلذلك تقحم كلمة اسم في كل ما كان على هذا المقصد كالترسمية على النسك، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 118] وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 119]، وكالأفعال التي يقصد بها التيمن والتبرك وحصول المعونة مثل: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: 1]، فاسم الله هو الذي تمكن مقارنته للأفعال لا ذاته.

12 - قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 74]

أمرٌ بأن يقول: سبحان الله، وقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: 26] أمرٌ بتنزيه ذاته وصفاته عن النقائص، فاستعمال لفظ الاسم في هذا بمنزلة استعمال سمات الإبل عند القبائل، وبمنزلة استعمال القبائل شعار تعارفهم، واستعمال الجيوش شعارهم المصطلح عليه. والخلاصة أن كل مقام يقصد فيه التيمن والانتساب إلى الرب الواحد الواجب الوجود يعدى فيه الفعل إلى لفظ اسم الله كقوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرُدًا وَمُرْسَهًا﴾ [هود: 41]، وفي الحديث في دعاء الاضطجاع: «باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه» وكذلك المقام الذي يقصد فيه ذكر اسم الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي

قل: سبحان الله، وكقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1]، وكل مقام يقصد فيه طلب التيسير والعون من الله تعالى يعَدَى الفعل المسؤول إلى علم الذات باعتبار ما له من صفات الخلق والتكوين كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾ [الإنسان: 26]، وقوله في الحديث: «اللهم بك نصبح وبك نمسي» أي بقدرتك ومشيتك، وكذلك المقام الذي يقصد فيه توجه الفعل إلى الله تعالى كقوله تعالى: ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾. ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ أي نزه ذاته وحقيقته عن النقائص. فمعنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: أقرأ قراءة ملابسة لبركة هذا الاسم المبارك.

13 - الله: هو اسم الذات الواجب الوجود، المستحق لجميع صفات الكمالات، المنزه عن جميع العيوب والنقائص والآفات. واسمه تعالى تقرر في لغة العرب قبل دخول الإشراك فيهم، فكان أصل وضعه دالاً على انفراده بالألوهية، إذ لا إله غيره، فلذلك صار علماً عليه، ولذلك أرادوا به المعبود بحق رداً على أهل الشرك قبل دخول الشرك في العرب، وتنبهوا على أنه تعالى أولى من يُؤَلَّه ويُعبد لأنه خالق الجميع.

واسم الله دالٌّ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الواضحات، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال

وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم كقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، ويقال: الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك، فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال.

والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله تعالى، واسم الله دال على كونه مألوهاً معبوداً تؤلهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكوته مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله.

وصفات الجلال والجمال أخص باسم الله تعالى، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة أخص باسم الرب، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرفقة واللفظ أخص باسم الرحمن، وكرر إيذاناً بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن الذي الرحمة وصفه، والرحيم الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ﴾

رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ولم يجئ: رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين ، مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه الموصوف به .

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان للممتلى غضباً، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك ، فبناء فعلان للسعة والشمول ، ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيراً كقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ فاستوى على عرشه باسم الرحمن ، لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها ، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم ، كما قال تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات ، فلذلك وسعت رحمته كل شيء ، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضِعٌ عَلَى الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبَ غَضَبِي»، وفي لفظ: «فهو عنده على العرش»، فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ووضعه عنده على العرش ، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ يفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى .

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة وهي الله والرب والرحمن ، كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب؟ وكيف

جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع ولها الفرق، فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والإخبات والخشية والتذلل والخضوع إلا له، وهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقٌ مشرك في السعير، وفريقٌ موحدٌ في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم كما أن الربوبية هي التي جمعتهم، فالدين والشرع والأمر والنهي مظهره وقيامه من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده، فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

14 - ومن مباحث هذه الآية: أن الباء في قوله «بِسْمِ اللَّهِ» باء

الإلصاق، وهي متعلقة بفعل، والتقدير: باسم الله أشعر في أداء الطاعات، وهذا المعنى لا يصير ملخصاً معلوماً إلا بعد الوقوف على أقسام الطاعات، وهي العقائد الحقة والأعمال الصافية مع الدلائل والبيّنات، ومع الأجوبة عن الشبهات، وهذا المجموع ربما زاد على

عشرة آلاف مسألة .

وقال الفخر أيضاً: لأرباب الإشارات والمجاهدات هاهنا دقيقة ، وهي أن لام التعريف ولام الأصل من لفظة «الله» اجتمعا فأدغم أحدهما في الثاني ، فسقط لام المعرفة وبقي لام لفظة الله ، وهذا كالتنبيه على أن المعرفة إذا حصلت إلى حضرة المعروف سقطت المعرفة وفنيت وبطلت ، وبقي المعروف الأزلي كما كان من غير زيادة ولا نقصان .

15 - قال الفخر الرازي في تفسيره (2/1): قد اشتهر عند العلماء

أن لله تعالى ألفاً وواحداً من الأسماء المقدسة المطهرة ، وهي موجودة في الكتاب والسنة ، ولا شك أن البحث عن كل واحد من تلك الأسماء مسألة شريفة عالية ، وأيضاً فالعلم بالاسم لا يحصل إلا إذا كان مسبقاً بالعلم بالمسمى ، وفي البحث عن ثبوت تلك المسميات ، وعن الدلائل الدالة على ثبوتها ، وعن أجوبة الشبهات التي تذكر في نفيها مسائل كثيرة ، ومجموعها يزيد على الألوف .

16 - الرحمن فعلان من رحم ، والرحيم فعيل منه ، واشتقاقه من

الرحمة ، وهي ترك عقوبة من يستحقها أو إرادة الخير لأهله . وأصله الرقة والتعطف ، ومنه الرحم لرقتها وانعطافها على ما فيها . ولهذا جاء: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وربما يقال: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، لأن رحمته في الدنيا عمت المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وفي الآخرة اختصت بالمؤمنين . فالرحمن خاص اللفظ عام المعنى ، والرحيم بالعكس . أما خصوص الرحمن فمن حيث لا يسمى به إلا الله تعالى لأنه

من الصفات الغالبة ، وأما عمومه فمن حيث إنه يشمل جميع الموجودات من طريق الخلق والرزق والنفع . وأما عموم الرحيم فاشترك تسمية الخلق به ، وأما خصوصه فرجوعه إلى اللطف بالمؤمنين والتوفيق لهم .

17 - مناسبة الجمع في البسمة بين علم الجلالة وبين صفتي

الرحمن الرحيم: قال البيضاوي: إن المُسمِّي إذا قصد الاستعانة بالمعبود الحق الموصوف بأنه مُولي النعم كلها جليلها ودقيقها يذكر عَلم الذات إشارة إلى استحقاقه أن يستعان به بالذات ، ثم يذكر وصف الرحمن إشارة إلى أن الاستعانة على الأعمال الصالحة وهي نِعَم ، وذكر الرحيم للوجوه التي سنذكرها في عطف صفة الرحيم على صفة الرحمن .

وإن النصارى كانوا يبتدئون أدعيتهم ونحوها باسم الأب والابن والروح القدس إشارة إلى الأقانيم الثلاثة عندهم ، فجاءت فاتحة كتاب الإسلام بالرد عليهم موقظة لهم بأن الإله الواحد وإن تعددت أسماؤه فإنما هو تعدد الأوصاف دون تعدد المسميات ، يعني فهو رد عليهم بتغليظ وتبليد . وقد صح أن فواتح النصارى وأدعيتهم كانت تشتمل على ذلك الشرك فجاءت فاتحة المسلمين مليئة بالتوحيد .

18 - قال الفخر الرازي في تفسيره (142/1): الرحمن: هو

المنعم بما لا يتصور صدور جنسه من العباد ، والرحيم: هو المنعم بما يتصور جنسه من العباد ، حكى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: كنت ضيفاً لبعض القوم فقدم المائدة ، فنزل غراب وسلب رغيفاً ، فاتبعته تعجباً ، فنزل في بعض التلال ، وإذا هو برجل مقيد مشدود اليدين ، فألقى

الغراب ذلك الرغيف على وجهه .

وروي عن ذي النون أنه قال: كنت في البيت إذ وقعت ولولة في قلبي ، وصرت بحيث ما ملكت نفسي ، فخرجت من البيت وانتهيت إلى شط النيل ، فرأيت عقرباً قوياً يعدو فتبعته فوصل إلى طرف النيل فرأيت ضفدعاً واقفاً على طرف الوادي ، فوثب العقرب على ظهر الضفدع وأخذ الضفدع يسبح ويذهب ، فركبت السفينة وتبعته فوصل الضفدع إلى الطرف الآخر من النيل ، ونزل العقرب من ظهره ، وأخذ يعدو فتبعته ، فرأيت شاباً نائماً تحت شجرة ، ورأيت أفعى تقصده ، فلما قربت الأفعى من ذلك الشاب وصل العقرب إلى الأفعى ، فوثب العقرب على الأفعى فلدغها ، والأفعى أيضاً لدغت العقرب ، فماتا معاً ، وسلم ذلك الإنسان منهما .

ويُحكى أن ولد الغراب عندما يخرج من قشر البيضة يخرج من غير ريش ، فيكون كأنه قطعة لحم أحمر ، والغراب يفر منه ولا يقوم بتربيته ، ثم إن البعوض يجتمع عليه لأنه يشبه قطعة لحم ميت ، فإذا وصلت البعوض إليه التقم تلك البعوض واغتذى بها ، ولا يزال على هذه الحال إلى أن يقوى وينبت ريشه ويخفي لحمه تحت ريشه ، فعند ذلك تعود أمه إليه ، ولهذا السبب جاء في أدعية العرب: يا رازق النعاب في عشه . فظهر بهذه الأمثلة أن فضل الله عام ، وإحسانه شامل ، ورحمته واسعة .

واعلم أن الحوادث على قسمين: منه ما يظن أنه رحمة مع أنه لا

يكون كذلك، بل يكون في الحقيقة عذاباً ونقمة، ومنه ما يظن في الظاهر أنه عذاب ونقمة مع أنه يكون في الحقيقة فضلاً وإحساناً ورحمة، أما القسم الأول: فالوالد إذا أهمل ولده حتى يفعل ما يشاء ولا يؤدبه ولا يحمله على التعلم، فهذا في الظاهر رحمة وفي الباطن نقمة. وأما القسم الثاني: كالوالد إذا حبس ولده في المكتب وحمله على التعلم فهذا في الظاهر نقمة، وفي الحقيقة رحمة، وكذلك الإنسان إذا وقع في يده الأكلة فإذا قطعت تلك اليد فهذا في الظاهر عذاب، وفي الباطن راحة ورحمة، فالأبله يغتر بالظواهر، والعاقل ينظر في السرائر.

19 - قال الضحاك: الرحمن بأهل السماء حيث أسكنهم السموات

وطوقهم الطاعات وأنطق ألسنتهم بأنواع التسيحات وجنبهم الآفات وقطع عنهم المطاعم واللذات، والرحيم بأهل الأرض حيث أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب. قال عكرمة: الرحمن برحمة واحدة، والرحيم بمئة رحمة، كما قال ﷺ: «إن لله تعالى مئة رحمة وإنه أنزل منها رحمة واحدة إلى الأرض فقسّمها بين خلقه فيها يتعاطفون وبها يتراحمون، وأخر تسعاً وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة».

20 - قال ابن المبارك: الرحمن الذي إذا سئل أعطى، والرحيم

الذي إذا لم يسأل غضب. قال ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه» [رواه الترمذي]، الرحمن بالنعماء وهي ما أعطى وحبا، والرحيم بالأواء وهي ما صرف وزوى.

21 - الرحمن بالإنقاذ من النار ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ

فَأَتَقَدَّمُكُمْ مِنْهَا ﴿ آل عمران: 103 ﴾ والرحيم بإدخالهم الجنان ﴿ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: 46].

22 - إنما قدم الرحمن وهو الأعلى على الرحيم ، والعادة التدرج من الأدنى إلى الأعلى ، لأن الرحمن يتناول عظام النعم وأصولها ، فأردافه بالرحيم كاللتممة ليتناول ما دق منها ولطف .

23 - اعلم أن الأشياء التي أنعم الله تعالى بها على الخلق أربعة أقسام:

الأول: ما يكون نافعاً وضرورياً معاً ، وذلك في الدنيا التنفس ، فإنه لو انقطع لحظة واحدة مات ، وفي الآخرة معرفة الله فإنها إذا زالت عن القلب لحظة واحدة مات القلب واستوجب عذاب الأبد .

الثاني: أن يكون نافعاً لا ضرورياً ، كالمال في الدنيا وكسائر العلوم والمعارف في الآخرة .

الثالث: أن يكون ضرورياً لا نافعاً ، كآفات والعلل ولا نظير لهذا القسم في الآخرة .

الرابع: ألا يكون نافعاً ولا ضرورياً ، كالفقر في الدنيا والعذاب في الآخرة .

وبالجملة فكل نعمة أو نقمة دنيوية أو أخروية فإنما تصل إلى العبد أو تندفع عنه برحمة الله تعالى وفضله من غير شائبة غرض ولا ضميمة علة ، لأنه الجواد المطلق والغني الذي لا يفتقر ، فينبغي ألا

ترجى إلا رحمته ولا يخشى إلا عقابه. وإن نوحاً ﷺ لما ركب السفينة قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ بَجَرْنَهَا وَمُرْسِنَهَا﴾ [هود: 41] فنجا بنصف هذه الكلمة، فما ظنك بمن واطب على الكلمة طول عمره كيف يبقى محروماً من النجاة؟!

24. قال الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾: الناس ثلاثة: سابق بالخيرات، ومقتصد، وظالم لنفسه. فقال: أنا الله للسابقين، الرحمن للمقتصدين، الرحيم للظالمين، وأيضاً الله هو معطي العطاء، والرحمن هو المتجاوز عن زلات الأولياء، والرحيم هو المتجاوز عن الجفاء، ومن كمال رحمته كأنه تعالى يقول: أعلم منك ما لو علمه أبواك لفارقاك، ولو علمته المرأة لجفتك، ولو علمته الأمة لأقدمت على الفرار منك، ولو علمه الجار لسعى في تخريب الدار، وأنا أعلم كل ذلك وأستره بكرمي لتعلم أني إله كريم.

25. والله تعالى يوجب ولايته ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: 257]، والرحمن يستدعي محبته ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]، والرحيم يفيض رحمته ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43].

هو رحيم بهم في ستة مواضع: في القبر وحسراته، والقيامة وظلماته، وقراءة الكتب وفزعاته، والصراط ومخافته، والنار ودركاته،

والجنة ودرجاته .

26 - لما كانت سورة التوبة مشتملة على القتال والبراءة لم يكتب في أولها «بسم الله الرحمن الرحيم» ، وأيضاً السنة أن يقال عند الذبح: «بسم الله والله أكبر» ولا يقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» ، فلما وفقك الله لذكر هذه الكلمات كل يوم سبع عشرة مرة في الصلوات المفروضة دل ذلك على أنه ما خلقك للقتل والعذاب وإنما خلقك للرحمة والثواب .

27 - مشروع للعبد مطلوبٌ منه أن يُبَسِّمَ عند قراءة كل سورة من كتاب الله تعالى إلا عند قراءة سورة التوبة فإنه لا يبسم ، وإن كان في الصلاة المفروضة يبسم سراً إن كانت الصلاة جهرية .

28 - ويسن للعبد أن يقول: باسم الله ، عند الأكل والشرب ، ولبس الثوب . وعند دخول المسجد والخروج منه ، وعند الركوب . وعند كل أمر ذي بال . كما يجب عليه أن يقول: بسم الله والله أكبر ، عند الذبح والنحر . . .

29 - الرَّحِيمِ اسْمٌ لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ أَنْ يَنْتَحِلُوهُ ، تَسَمَّى بِهِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . فالمقام الأول: هو الفرار وهو قوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ والمقام الثاني: هو الاستقرار في حضرة الملك الجبار فهو قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

30 - قال بعض العلماء: الباء مكسورة لأن الدخول على الله لا

يكون إلا بالذل والانكسار .

31 - مرض موسى عليه السلام واشتد وجع بطنه ، فشكا إلى الله تعالى ، فدلّه على عشب في المفازة ، فأكل منه فعوفي بإذن الله تعالى ، ثم عاوده ذلك المرض في وقت آخر فأكل ذلك العشب فازداد مرضه ، فقال: يا رب ، أكلته أولاً فانتفعت به ، وأكلته ثانياً فازداد مرضي ، فقال: لأنك في المرة الأولى ذهبت مني إلى الكلاء فحصل فيه الشفاء ، وفي المرة الثانية ذهبت منك إلى الكلاء فازداد المرض ، أما علمت أن الدنيا كلها سم قاتل وترياقها اسمي ؟

32 - قال الفخر الرازي في تفسيره: روي أن سائلاً وقف على باب رفيع فسأل شيئاً فأعطي قليلاً ، فجاء في اليوم الثاني بفأس وأخذ يخرب الباب فقبل له: ولم تفعل ذلك؟ فقال: إمّا أن يجعل الباب لائقاً بالعطية أو العطية لائقة بالباب .

إلهنا إن بحار الرحمة بالنسبة إلى رحمتك أقل من الذرة بالنسبة إلى العرش ، فكما ألقيت في أول كتابك على عبادك صفة رحمتك فلا تجعلنا محرومين عن رحمتك وفضلك .

33 - إن سيدنا سليمان عليه السلام نال مملكة الدنيا والآخرة بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: 30] ، فالمرجو أن العبد إذا قاله فاز بملك الدنيا والآخرة .

34 - قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ

فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاِ إِنِّي أَتَىٰكَ الْكُرْبِيُّ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ

مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ فِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: ﴿كُنْتُ كَرِيمٌ﴾ فِيهِ سِتَّةُ أَقْوَالٍ:

الْأَوَّلُ: لِخَتْمِهِ، وَكَرَامَةِ الْكِتَابِ خَتْمُهُ.

الثَّانِي: لِحُسْنِ مَا فِيهِ مِنْ بَلَاغَةٍ وَإِصَابَةٍ مَعْنَى.

الثَّلَاثُ: كَرَامَةُ صَاحِبِهِ؛ لِأَنَّهُ مَلِكٌ.

الرَّابِعُ: كَرَامَةُ رَسُولِهِ؛ لِأَنَّهُ طَائِرٌ؛ وَمَا عَاهَدَتِ الرُّسُلُ مِنْهَا.

الخَامِسُ: لِأَنَّهُ بَدَأَ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ.

السَّادِسُ: لِأَنَّهُ بَدَأَ فِيهِ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا الْجِلَّةُ.

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَمَرَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ:

لِعَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِنِّي أُقِرُّ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ مَا

اسْتَطَعْتُ، وَإِنَّ بَنِيَّ قَدْ أَقَرُّوا لَكَ بِذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَحَدٌ قَبْلَ سُلَيْمَانَ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ: الْوَصْفُ الْكَرِيمُ فِي الْكِتَابِ غَايَةُ الْوَصْفِ؛ أَلَا

تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾؟ وَأَهْلُ الزَّمَانِ يَصِفُونَ الْكِتَابَ

بِالْخَطِيرِ، وَبِالْأَثِيرِ، وَبِالْمَبْرُورِ؛ فَإِنْ كَانَ لِمَلِكٍ قَالُوا: الْعَزِيزُ. وَأَسْقَطُوا

الْكَرِيمَ غَفْلَةً، وَهُوَ أَفْضَلُهَا خَصْلَةً.

فَأَمَّا الْوَصْفُ بِالْعَزِيزِ فَقَدْ اتَّصَفَ بِهِ الْقُرْآنُ أَيْضًا؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ .
فَهَذِهِ عِزَّتُهُ ، وَلَيْسَتْ لِأَحَدٍ إِلَّا لَهُ ؛ فَاجْتَنِبُوهَا فِي كُتُبِكُمْ ، وَاجْعَلُوا بَدَلَهَا
الْعَالِي ، تَوْقِيَةً لِحَقِّ الْوَلَايَةِ ، وَحِيَاطَةً لِلدِّيَانَةِ .

35 - قال العز بن عبد السلام في تفسيره (160/1): إن قال

قائل: لم قدم سليمان عليه السلام اسم نفسه على اسم الله تعالى في
قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾؟ فالجواب أن بلقيس لما وجدت ذلك
الكتاب موضوعاً على وسادتها ولم يكن لأحد إليها طريق ورأت الهدهد
واقفاً على طرف الجدار علمت أن ذلك الكتاب من سليمان، فأخذت
الكتاب وقالت: إنه من سليمان، فلما فتحت الكتاب ورأت بسم الله
الرحمن الرحيم قالت: وإنه بسم الله الرحمن الرحيم.

36 - وأثر عن بعضهم أنه قال: وجدت أثراً فيه: من رفع قرطاساً

من الأرض فيه «بسم الله الرحمن الرحيم» إجلالاً له تعالى كُتِبَ عند
الله من الصديقين . وقصة بشر الحافي لما رأى كاغداً مكتوباً فيه: بسم
الله الرحمن الرحيم، فرفعه وطيبه بالمسك، فرأى في النوم قائلاً
يقول: يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ستر ما بين
أعين الجن وعورات بني آدم إذا نزعوا ثيابهم أن يقولوا: بسم الله
الرحمن الرحيم» [رواه الترمذي]، والإشارة فيه أنه إذا صار هذا الاسم
حجاباً بينك وبين أعدائك من الجن في الدنيا، أفلا يصير حجاباً بينك
وبين الزبانية في العقبى؟

37 - كتب قيصر إلى عمر رضي الله عنه أن بي صداعاً لا يسكن ، فابعث لي دواء ، فبعث إليه عمر قلنسوة فكان إذا وضعها على رأسه يسكن صداعه ، وإذا رفعها عن رأسه عاوده الصداع ، فعجب منه ففتش القلنسوة فإذا فيها كاغد مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم .

وعن ابنِ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهما أنه رضي الله عنه قَالَ : «مَنْ تَوَضَّأَ وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ كَانَ طَهُورًا لِجَمِيعِ بَدَنِهِ ، وَمَنْ تَوَضَّأَ وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ كَانَ طَهُورًا لِأَعْضَاءِ وَضُوئِهِ » [أخرجه الدارقطني والبيهقي] ، فإذا كان الذكر على الوضوء طهوراً لكل البدن فذكره عن صميم القلب أولى أن يكون طهوراً للقلب عن الكفر والبدعة .

38 - طلب بعضهم آية من خالد بن الوليد فقال : إنك تدعي الإسلام فأرنا آية لنسلم ، فقال : اتئوني بالسم القاتل ، فأتي بطاس من السم ، فأخذها بيده وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، وشرب الكل وقام سالماً بإذن الله تعالى ، فقال المجوس : هذا دين حق .

39 - كتب عارف «بسم الله الرحمن الرحيم» وأوصى أن تجعل في كفته ، فقيل له : أي فائدة لك فيه ؟ فقال : أقول يوم القيامة : إلهي بعثت كتاباً وجعلت عنوانه بسم الله الرحمن الرحيم ، فعاملني بعنوان كتابك .

40 - قد حلل أحدهم فكرة العلاج بالبسملة بذكره أن ما ورد في السنة الشريفة من أن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم وأن الإنسان إن لم يذكر التسمية فإن الشيطان يشارك الإنسان في طعامه وشرابه وحتى

في سكنه وتقل البركة في الطعام، ومن خلال العلاج بالطاقة يعتبر أن التنفس أيضاً طاقة والجسم يستطيع أن يعيش إلى ساعات طويلة بدون غذاء ولكن لا يستطيع أن يعيش لدقائق بدون تنفس، وبما أن الشيطان يشارك الإنسان في طعامه حتماً يشاركه في تنفسه، كما أظهر العلم أن من وظائف الدم إيصال الأوكسجين إلى خلايا الجسد، فالتسمية الشريفة إذاً تحرم الشيطان من أن يستفيد من الغذاء إذ سوف تحرمه أيضاً من الاستفادة من الأوكسجين لأنه تم تحصينه بذكر الله تعالى .

41 - بعض المواضع التي تُسن فيها البسملة:

أ - أخرج الترمذي في سننه وحسنه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ مَنْزِلِهِ، فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هُدَيْتَ وَوُقِيْتَ وَكُفَيْتَ، قَالَ: فَيَلْقِيهِ شَيْطَانٌ آخَرُ، فَيَقَالُ لَهُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هَدِيَ وَوُقِيَ وَكُفِيَ؟» .

ب - وفي كتاب ابن السني، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سِتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَطْرَحَ ثِيَابَهُ: بِاسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» .

ج - روى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أم سلمة رضي الله عنها، واسمها هند: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من بيته قال: «بِاسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُضِلَّ أَوْ أُضَلَّ،

أَوْ أَرْلَّ أَوْ أَرْلَّ، أَوْ أَظْلَمَ أَوْ أَظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» .

د - قال النووي في الأذكار: إذا دخل بيته يستحب أن يقول: باسم الله، وأن يكثر من ذكر الله تعالى، وأن يسلم سواء كان في البيت آدمي أم لا، لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً﴾ .

وفي الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بُنَيَّ إِذَا دَخَلْتَ عَلَىٰ أَهْلِكَ فَسَلِّمْ تَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِكَ» قال الترمذي: حديث حسن صحيح .

هـ - وفي سنن أبي داود عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلْيُقَلِّ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلِجِ وَخَيْرِ الْمَخْرَجِ، بِاسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا، وَبِاسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ رَبَّنَا تَوَكَّلْنَا، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَىٰ أَهْلِهِ» .

و - وفي كتاب ابن السني، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا عَلِيُّ أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا وَقَعْتَ فِي وَرْطَةٍ قُلْتَهَا؟ قُلْتُ: بلى، جعلني الله فداءك، قال: إِذَا وَقَعْتَ فِي وَرْطَةٍ فَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْرِفُ بِهَا مَا شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ» .

ز - في كتاب ابن السني، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إِذَا عَسَرَ عَلَيْهِ أَمْرٌ مَعِيشَتِهِ أَنْ يَقُولَ إِذَا

خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللَّهِ عَلَى نَفْسِي وَمَالِي وَدِينِي، اللَّهُمَّ رَضِّنِي
بِقَضَائِكَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا قُدِّرَ لِي حَتَّى لَا أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ وَلَا
تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ».

ح - وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه
بالأسانيد الصحيحة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال: «يا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ قال: نَعَمْ، قال: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ
اللَّهِ أَرْقِيكَ».

ط - ولابن السني عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: مرضت فكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذني، فعوذني يوماً، فقال: «بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ، أُعِيدُكَ بِاللَّهِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ مِنْ شَرِّ مَا تَجِدُ». فلما استقلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً قال:
«يا عُثْمَانُ تَعَوَّذْ بِهَا فَمَا تَعَوَّذْتُمْ بِمِثْلِهَا».

ي - وفي شعب الإيمان للبيهقي عن أبي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ، عَمَّنْ
كَانَ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَهُ عَلَى حِمَارٍ، فَعَثَرَ الْحِمَارُ،
فَقُلْتُ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: «لَا تُقُلْ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ:
تَعَسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ: صَرَعْتُهُ بِعِزَّتِي، وَإِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ
اللَّهِ، تَصَاغَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ حَتَّى يَكُونَ أَصْغَرَ مِنَ الذُّبَابِ».

ك - أخرج مالك، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي من

حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ ، أَنَّهُ شَكَاَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أُسْلِمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأْلَمُ مِنْ جَسَدِكَ ، وَقُلْ : بِاسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا ، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ» .

وَعِنْدَ مَالِكٍ : «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ» قَالَ : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا كَانَ بِي ، فَلَمْ أَزَلْ أَمُرُ بِهَا أَهْلِي وَغَيْرَهُمْ .

ل - وفي شعب الإيمان من حديث أمية بن محشبي: في الرجل الذي أكل ولم يُسم حتى ما بقي من طعامه إلا لُقمة، فقال: بِسْمِ اللَّهِ أَوْلَهُ وَآخِرُهُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا زَالَ يَأْكُلُ الشَّيْطَانُ مَعَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ، اسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِهِ» .

م - جاء في الأذكار للنووي أنه ورد في سنن أبي داود وابن ماجه، ومسنند أبي عوانة الإسفراييني المخرَج على صحيح مسلم، رحمهم الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ أَقْطَعُ» وفي رواية «بِحَمْدِ اللَّهِ» وفي رواية: «بِالْحَمْدِ فَهُوَ أَقْطَعُ» وفي رواية «كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَجْذَمُ» وفي رواية: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ» .

ن - جاء في صحيح البخاري ومسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ،

اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا . فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدَّ لَمْ يَضُرَّهُ» وفي رواية للبخاري «لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا» .


س - رَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ كَانَ طَهُورًا لِجَمِيعِ بَدَنِهِ ، وَمَنْ تَوَضَّأَ وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ كَانَ طَهُورًا لِأَعْضَاءِ وَضُوئِهِ» .
وَالْمُرَادُ بِالطَّهَّارَةِ الطَّهَّارَةُ مِنَ الذُّنُوبِ لِأَنَّ الْحَدِيثَ لَا يَتَجَزَّأُ .

*** **

تفسير قوله تعالى

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وفيه سبع وخمسون مسألة:

1 - أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ وَمَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْقُوبَ ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فِيهَا خِدَاجٌ فِيهَا خِدَاجٌ غَيْرُ تَمَامٍ» ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، إِنِّي أَكُونُ أَحْيَانًا وَرَاءَ الْإِمَامِ ؟ قَالَ : فَغَمَزَ ذِرَاعِي ، وَقَالَ : يَا فَارِسِيُّ اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ - وَقَالَ الْقَعْنَبِيُّ : اقْرَأْهَا فِي نَفْسِكَ - فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : يَقُولُ الْعَبْدُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يَقُولُ اللَّهُ : حَمَدَنِي عَبْدِي ، يَقُولُ الْعَبْدُ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ يَقُولُ اللَّهُ : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، وَيَقُولُ الْعَبْدُ : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يَقُولُ اللَّهُ : مَجَدَّنِي عَبْدِي ، وَيَقُولُ الْعَبْدُ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، يَقُولُ الْعَبْدُ : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾  صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ فَهَؤُلَاءِ

لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» .

وعن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: لأَعْلَمَنَّكَ أعْظَمَ سورةٍ في القرآن قبل أن تخرجَ من المسجد. قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأَعْلَمَنَّكَ أعْظَمَ سورةٍ في القرآن. قال: «نعم». ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبعُ المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتِيَتْهُ» أخرجه البخاريّ وأحمد وأبو داودَ والنسائيّ .

2 - قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إيماء إلى أن

الحمد ليس مجرد الحمد فقط، بل ينبغي أن يقترن مع الحمد العلمُ بصفات الكمال ونعوت الجلال وهذه أمهاتها، وقد يقال: في إجراء هذه الأوصاف بعد ذكر اسم الذات الجامع لصفات الكمال إشارة إلى أن الذي يحمده الناس ويعظمونه إنما يكون حمده وتعظيمه لأحد أمور أربعة: إما لكونه كاملاً في ذاته وصفاته وإن لم يكن منه إحسان إليهم، وإما لكونه محسناً إليهم ومتفضلاً عليهم، وإما لأنهم يرجون لطفه وإحسانه في الاستقبال، وإما لأنهم يخافون من كمال قدرته.

فهذه هي الجهات الموجبة للحمد والتعظيم، فكأنه سبحانه يقول: يا عبادي إن كنتم تحمدون وتعظمون للكمال الذاتي والصفاتى فاحمدوني فإني أنا الله، وإن كنتم تعظمون للإحسان السالف والتربية والإنعام فإني أنا رب العالمين، وإن كان للرجاء المترقب والطمع في المستقبل فإني أنا الرحمن الرحيم، وإن كان للخوف والرهبة فإني أنا

مالك يوم الدين .

3 - ﴿أَحْمَدُ﴾ اللام للعهد أي: الحمد الكامل وهو حمد الله تعالى لنفسه، أو حمد الرسل، أو كَمَّل أهل الولاية، أو حمد الملائكة، أو حمد جميع المؤمنين، وعلى قدر تصور العبد لحمد من ذكر، ينال أجر الحامدين فرادى ومجتمعين .

قال الفاكهي: سمعت شيخنا أبا العباس المرسي يقول: قلت لابن النحاس: ما تقول في الألف واللام في «الحمد» أجنبية هي أم عهدية؟ فقال: يا سيدي قالوا: إنها جنسية، فقلت له الذي أقول: إنها عهدية وذلك أن الله تعالى لما علم عجز خلقه عن كنه حمده حمد نفسه بنفسه في أزله نيابة عن خلقه قبل أن نحمده، فقال: أشهدك أنها للعهد. واستأنس له بما صح عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله: «اللهم لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» .

وأغرب من هذا ما ذهب إليه بعض ساداتنا الصوفية - قدس الله تعالى أسرارهم، وليس بالغريب عندهم - أن الحمد لله على حد الكبرياء لله و﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54] فهو الحامد والمحمود والجميع شؤونه . ولهم كلام غير هذا والكل يُسقى بماء واحد .

وعن إمامنا الماتريدي رَوَّح الله تعالى روحه أنه جعل هذا حمداً من الله تعالى لنفسه قال: وإنما حمد نفسه ليعلم الخلق، ولا ضير في ذلك لأنه سبحانه هو المستحق لذاته والحقيق بما هنالك إذ لا عيب يمسّه ولا آفة تحل به .

أو للعموم والاستغراق أي: جميع المحامد والثناء للمحمود أصلاً والممدوح عدلاً والمعبود حقاً عينية كانت تلك المحامد أو عرضية من المَلَك أو من البشر أو من غيرهما كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44] ، والحمد عند الصوفية: إظهار كمال المحمود، وكماله تعالى: صفاته وأفعاله وآثاره.

- ومعنى أن أَل في «الحمد» للاستغراق: أن المستحق لجميع المحامد ولكافة ألوان الثناء هو الله تعالى، وإنما كان الحمد مقصوراً في الحقيقة على الله، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه، إذ هو الخالق لكل شيء.

قيل: (أل) في الحمد للاستغراق؛ ليتناول كل أفراد الحمد المُحَقَّقَة والمُقَدَّرَة، وقيل: للجنس، ومعناه: أن الحمد الكامل ثابتٌ لله، وهذا يقتضي ثبوت كُلِّ ما يُحْمَدُ عليه من صفات كماله ونعوت جماله؛ إذ مَنْ عَدِمَ صفات الكمال؛ فليس بمحمود على الإطلاق، ولكن غايته أنه محمودٌ من وجهٍ دون وجهٍ، ولا يكون محموداً من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد؛ إلا مَنْ حاز صفات الكمال جميعها، فلو عَدِمَ منها صفة واحدة؛ لنقص من حمده بسببها.

4 - قول العبد «الحمد لله» يقتضي الثناء عليه لما له من الجلال والعظمة والوحدانية والعزة والإفضال والعلم والمقدرة والحكمة وغير ذلك من الصفات، ويتضمن معاني أسمائه الحسنی التسعة والتسعين

ويقتضي شكره والثناء عليه بكل نعمة أعطاها ورحمة أولها جميع خلقه في الآخرة والأولى، فيا لها من كلمة جمعت ما تضيق عنه المجلدات، ويكفيها أن الله جعلها أول كتابه وآخر دعوى أهل الجنة.

5 - الحمد والثناء ناشئ عن التوفيق للخير والإنعام على المثني، ونحن نسبح بحمدك، أي بتوفيقك وإنعامك، فإذا كان الله متصفاً بالخلق والملك والتصرف والحكمة والعلم والرحمة والمغفرة ونحوها من الصفات الجليلة فله الحمد المطلق، والحمد هو الثناء على الجميل الاختياري من جهة التعظيم من نعمة وغيرها كالعلم والكرم.

6 - الحمد ثناء على المحمود لكمال ذاته ولو لم يصلك منه شيء، وكمال الذات ليس إلا الله سبحانه وحده، وليس في الكون ولا في المخلوقات من هو كامل لذاته، بل هو مكمل من غيره، ولا بد أن فيه جانب نقص، حتى الرسل أقل ما يقال فيهم: أنهم ماتوا، والموت نقص، والمولى سبحانه وتعالى حياته دائمة باقية.

هذا معنى الحمد، حمدت الله يعني: اعتقدت أن له أوصافاً كاملة، وذكرت بلساني ذلك، فإن كرر المدح صار ثناء، كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى علي عبدي».

7 - معنى الحمد لله: أن المستحق لجميع المحامد ولكافة ألوان

الثناء هو الله تعالى ، وإنما كان الحمد مقصوراً في الحقيقة على الله ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، فهو في الحقيقة حمد لله ، لأنه - سبحانه وتعالى - هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه . والحمدُ هو الثناء على الله - عز وجل - بما هو أهله ، وهو نقيض الذم ، والحمدُ لله وحده ؛ لأن جميع المحامد له سبحانه فهو الكامل في صفاته وأفعاله الحميدة .

8 - قال بعض الصالحين : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذا

إثبات لجميع أنواع المحامد لله - جل وعلا - والحمد هو الثناء على الله - جل وعلا - بصفاته وأسمائه وأفعاله ، سواء منها ما كان متعلقاً بالخلق ، أو متعلقاً بذاته - جل وعلا . فنحن نحمد الله - جل وعلا - عليها ، وهذا الحمد يستغرق جميع المحامد كلها ما كان منها في الأولى ، وما كان منها في الأخرى ، والظاهر منها والباطن ، وعلى كل حال يُحمد الله - جل وعلا .

9 - قيل الحمد : هو ذكر الله عز وجل والثناء عليه بما له من

الأسماء الحسنی والصفات العلا ، وبما أنعم وأحسن على عباده ، وهو على قسمين :

- ثناء عليه بما هو له كالثناء بالتسبيح والتكبير والتهليل .

- وثناء عليه بما يكون منه وهو الشكر على ما أسبغ من الآلاء

والنعم، وله العواقب، فإن مرجع الحمد ليس إلا إلى الله، فإنه المثنى على العبد والمثنى عليه.

10 - قيل: الحمد: هو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة لها. فلو أخبر مخبر بمحاسن غيره من غير محبة لها لم يكن حامداً، ولو أحبها ولم يخبر بها لم يكن حامداً. والرب - سبحانه وتعالى - إذا حمد نفسه، فذكر أسماءه الحسنی وصفاته العلا، وأفعاله الجميلة، وأحب نفسه المقدسة، كان هو الحامد والمحمود، والمثنى والمثنى عليه، والممجد والممجد، والمحِبَّ والمحبوب، وكان هذا غاية الكمال، الذي لا يستحقه غيره، ولا يوصف به إلا هو.

والحمد هو الثناء، والثناء ناشئ عن التوفيق للخير والإنعام على المثنى، فنزل الناشئ عن السبب منزلة السبب فقال: ونحن نسبح بحمدك، أي بتوفيقك وإنعامك.

والحمد نوعان: حمد على إحسانه إلى عباده، وهو من الشكر، وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله. وهو لا يكون إلا لمن هو في نفسه مستحق للحمد، وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال. وهي أمور وجودية، فإن الأمور العدمية المحضة لا مدح فيها ولا خير ولا كمال. ومعلوم أن كل ما يحمد فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال، فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق، وهو أحق من كل محمود.

والحمد ضد الذم، والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته، ولا يكون حمد المحمود إلا مع محبته، ولا ذم المذموم إلا مع بغضه. والله سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة. ولا تكون عبادة إلا إذا اقترنت بحب المعبود، ولا يكون حمد إلا إذا اقترنت بحب المحمود. والله جل وعلا هو المعبود، وهو المحمود ولهذا كانت الخطب في الجمع والأعياد وغير ذلك مشتملة على هذين الأصلين: تحميده، وتوحيده، وكان أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله.

المراد بالنعم: النعمُ الدنيويةُ، كالعافية والرزق والصحة ودفع المكروه ونحو ذلك، والحمدُ هو من النعم الدينية، وكلاهما نعمةٌ من الله، لكن نعمة الله على عبده بهدايته لشكر نعمه بالحمد عليها أفضل من نعمه الدنيوية على عبده، فإنَّ النعم الدنيوية إن لم يقترن بها الشكرُ كانت بليَّة، كما قال أبو حازم: كلُّ نعمة لا تقرب من الله فهي بليَّة. فإذا وفق الله عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر كانت هذه النعمة خيراً من تلك النعم وأحبَّ إلى الله عز وجل منها، فإنَّ الله يحب المحامد، ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها.

والثناء بالنعم والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحبُّ إليهم من أموالهم، فهم يبذلونها طلباً للثناء، والله عز وجل أكرم الأكرمين وأجودُ الأجودين، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلب منهم الثناء

بها وذكرها والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكراً عليها، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، لكنه يُحِبُّ ذلك من عباده، حيث كان صلاحُ العبد وفلاحه وكمالُه في شكر خالقه.

ومن فضله أنه نسب الحمد والشكر إليهم، وإن كان هذا من أعظم نعمه عليهم، فهو الذي أعطاهم ما أعطاهم من الأموال ثم استقرض منهم بعضه ومدحهم بإعطائه، والكلُّ ملكه، ومن فضله، ولكن كرمه اقتضى ذلك.

11 - الحمد يرد من الله مطلقاً ومقيداً: أما المقيد فلا بد أن

يكون مقيداً بصفة فعل، كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وكقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقد يكون مقيداً بصفة تنزيه: كقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً﴾ والحمد بكل وجه شكر، وكذلك من أُعطي المزيد من الأذكار فهو شكر كله، لأنه ثناء على الله، فأما زيادته التي تحصل لمن أثنى عليه بما هو عليه، فهي أن يعطيه الحق من العلم الذاتي به سبحانه ما يثني به عليه، وهو قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، وأما إذا أثنى عليه بما يكون منه فإنه يزيده من ذلك ليثابر عليه بالثناء على الله به، فعلى كل حال يعطي الزيادة.

12 - الحمد من العبد: قوليٌّ وفعليٌّ وحاليٌّ: فالحمد القولي: هو

حمد اللسان وثناءه على الحق بما أثنى به بنفسه على نفسه على لسان

أنبيائه، وكل حامد بالحمد القولي يعرف محموده بإسناد صفات الكمال إليه فهو يستلزم التعريف .

والحمد الفعلي: هو الإتيان بالأعمال البدنية من العبادات والخيرات ابتغاءً لوجه الله تعالى، وتوجهاً إلى جنابه الكريم لأن الحمد كما يجب على الإنسان باللسان كذلك يجب عليه بحسب كل عضو بل على كل عضو كالشكر وعند كل حال من الأحوال كما قال النبي ﷺ: «الحمد لله على كل حال» وذلك لا يمكن إلا باستعمال كل عضو فيما خلق لأجله على الوجه المشروع عبادة للحق تعالى وانقياداً لأمره لا طلباً لحفظ النفس ومرضاتها.

والحمد الحالي: هو الاتصاف بالمعارف والأخلاق الإلهية، وهو الذي يكون بحسب الروح والقلب، كالاتصاف بالكمالات العلمية والعملية، والتخلق بالأخلاق الإلهية، لأن الناس مأمورون بالتخلق بأخلاق الله تعالى لتصير الكمالات ملكة نفوسهم وذواتهم .

13 - أما حمد الله تعالى ذاته فهو على ثلاث أحوال:

الحمد القولي: فهو ما بلغنا في كتبه وصحفه من تعريفاته نفسه بالصفات الكمالية .

والحمد الفعلي: فهو إظهار كمالاته الجمالية والجلالية من غيبه إلى شهادته ومن باطنه إلى ظاهره ومن علمه إلى عينه في مجالي صفاته ومحال ولاية أسمائه .

والحمد الحالي: فهو تجلياته في ذاته بالفيض الأقدس الأولي،

وظهور النور الأزلي، فهو الحامد والمحمود جمعاً وتفصيلاً كما قيل:
لقد كنت دهرًا قبل أن يكشف الغطا إخالك أني ذاكر لك شاكر
فلما أضاء الليل أصبحت شاهداً بأنك مذکور وذکر وذاكر

14 - الفرق بين الحمد والشكر والمدح: أن يُقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجرداً من حبٍّ وإرادة أو مقروناً بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبارٌ عن محاسن الممدوح مع حبه وإجلاله وتعظيمه، وهو الثناء بالفضيلة، وهو أخص من المدح وأعم من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره ومما يكون منه وفيه، فقد يُمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يُمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، أي: أن الإنسان يُحمد على بذل المال والشجاعة والعلم ونحو ذلك مما يكون منه باختياره، ولا يُحمد على صباحة الوجه وطول القامة وحسن الخلق ونحو ذلك مما ليس له فيه اختيار.

والشكر لا يُقال إلا في مقابلة نعمة، فكلُّ شكر حمد، وليس كلُّ حمدٍ شكراً، وكلُّ حمد مدح، وليس كلُّ مدح حمداً.

15 - سئل شيخ الإسلام عن الحمد والشكر ما حقيقتهما؟ هل هما معنى واحد أو معنيان؟ وعلى أي شيء يكون الحمد؟ وعلى أي شيء يكون الشكر؟ فأجاب رحمه الله بقوله: الحمد يتضمّن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه سواء كان الإحسان إلى الحامد أو

لم يكن، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر، لأنه يكون على المحاسن والإحسان، فإن الله يُحمد على ما له من الأسماء الحسنی والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة والأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، ولهذا قال تعالى: ﴿اعْمَلُواْ آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾، والحمد إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعم من جهة أسبابه، ومن هذا الحديث: «الحمد لله رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده» [رواه البغوي في شرح السنة]، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها». اهـ كلامه رحمه الله تعالى.

فالحمد أعم متعلقاً، وأخص آلة، والشكر بالعكس.

16 - والحمد أعم من الشكر، لأن الشكر لا يكون إلا جزاء على نعمة، والحمد يكون جزاء كالشكر، ويكون ثناء ابتداء، كما أن الشكر قد يكون أعم من الحمد لأن الحمد باللسان، والشكر باللسان والقلب والجوارح - كما قدمنا.

وبه يتبين أن بين الحمد والشكر عمومًا وخصوصًا من وجه،

فيجتمعان فيما إذا كان باللسان في مقابلة نعمة، فهذا يُسَمَّى حمداً
ويُسَمَّى شكراً، وينفرد الحمد فيما إذا أثنى العبد على ربه بذكر أسمائه
الحسنى ونعوته العظيمة فهذا يُسَمَّى حمداً، ولا يُسَمَّى شكراً، وينفرد
الشكر فيما إذا استعمل العبد نعمة الله في طاعة الله فهذا يُسمى شكراً
ولا يُسَمَّى حمداً.

17 - إنَّ حمدَ الله هو الثناء على الله بذكر صفاته العظيمة ونعمه
العظيمة مع حبه وتعظيمه وإجلاله، وهو مختصُّ به - سبحانه - لا يكون
إلاَّ له، فالحمد كله لله رب العالمين؛ ولذلك قال - سبحانه - : ﴿الْحَمْدُ
لِلَّهِ﴾ بلام الجنس المفيدة للاستغراق، فالحمد كله له إمَّا ملكاً وإمَّا
استحقاقاً، فحمده لنفسه استحقاق، وحمد العباد له وحمد بعضهم
لبعض ملكٌ له...

فالقائل إذا قال: «الحمد لله» تضمَّن كلامه الخبر عن كلِّ ما يحمد
عليه تعالى باسم جامع محيطٍ متضمِّنٍ لكلِّ فرد من أفراد الحمد
المحققة والمقدَّرة، وذلك يستلزم إثبات كلِّ كمال يُحمد عليه الربُّ
تعالى؛ ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن
هذا شأنه، وهو الحميد المجيد.

18 - الحمد أيضاً هو الثناء باللسان على قصد التعظيم، سواء
تعلق بالنعمة أو بغيرها، والشكر ينبئ عن تعظيم المنعم، لكونه
منعماً، سواء كان باللسان، أو بالجنان، أو بالأركان، فمورد الحمد هو
اللسان وحده، ومتعلقه النعمة وغيرها، والشكر يعم اللسان وغيره،

ومتعلقه النعمة فقط ، فالحمد أعم من الشكر باعتبار المتعلق ، وأخص باعتبار المورد ، وعكسه الشكر ، فبينهما عموم وخصوص من وجه ، لأنهما يجتمعان في مادة ، وهو الثناء باللسان في مقابلة الإحسان ، ويفترقان في صدق الحمد فقط على الوصف بالعلم والشجاعة ، وصدق الشكر فقط على الثناء بالجنان أو الأركان في مقابلة الإحسان .

وقيل : الحمد أعم من الشكر ، وقيل : هما سواء . ونقيض الحمد : الذم ، ونقيض الشكر : الكفر . والألف واللام فيه للعموم ، أي : يستحق المحامد كلها ، والحمد هو ذكر محاسن المحمود وذكر فضائله ، وذكر صفاته الحميدة مع حبه وتعظيمه وإجلاله ، أي أن الحمد يستدعي من الحامد هذه الثلاثة : الحب ، والتعظيم ، والإجلال .

19 - الفرق بين الحمد والمدح : أن الحمد إخبار عن محاسن المحمود ، مع حبه وتعظيمه ، فلا بدّ فيه من اقتران الإرادة بالخير ؛ بخلاف المدح ، فإنه إخبار مجرد ، ولذلك كان المدح أوسع تناولاً ، لأنه يكون للحَيِّ والمَيِّت وللجماد أيضاً .

وقال بعضهم : الحمد : هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم : فالله سبحانه وتعالى كامل في ذاته ، وكذلك في أفعاله ، ففعله دائر بين العدل والإحسان .

وأما المدح : فإنه وصف الممدوح بالكمال أو بالصفات الحميدة ، لكن لا يلزم منه أن يكون محباً معظماً ، فقد يقترن مع المحبة والتعظيم وقد لا يقترن .

والحمد شامل للثناء والشكر والمدح ولذلك صدر كتابه بأن حمد نفسه بالثناء في قوله: «الحمد لله»، والشكر في قوله: «رب العالمين»، والمدح في «الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين» ثم ليس للعبد أن يحمده بهذه الوجوه الثلاثة حقيقة بل تقليداً ومجازاً؛ أما الأول فلأن الثناء والمدح بوجه يليق بذاته أو بصفاته فرع معرفة كنههما وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110] ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: 67] وأما الثاني فكما أن النبي ﷺ لما خوطب ليلة المعراج بأن أثنى عليّ فقال: «لا أحصي ثناء عليك»، وعلم أن لا بد من امتثال الأمر وإظهار العبودية فقال: «أنت كما أثنت على نفسك» فهو ثناء بالتقليد وقد أمرنا أيضاً أن نحمده بالتقليد بقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: 59] كما قال: ﴿فَانقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

20 - والمدح أعم من الحمد، والحمد أعم من الشكر، فالمدح أعم من الحمد لأنه يحصل للعاقل ولغير العاقل، وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان، فثبت أن المدح أعم من الحمد، وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام سواء كان ذلك الإنعام واصلاً إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك - كما تقدم - فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد وهو أعم من الشكر.

إذا عرفت هذا فنقول: إنما لم يقل: «المدح لله» لأننا بيّنا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار فقد يحصل لغيره. أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار، فكان قوله الحمد لله تصريحاً بأن المؤثر في وجود هذا العالم فاعلاً مختار خلقه بالقدرة والمشية، وهذا مشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة، فحينئذ يكون المطلوب الأصلي له وصول النعمة إليه، وهذه درجة حقيرة، فأما إذا قال بـ«الحمد لله» فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقاً للحمد لا لخصوص أنه تعالى أوصل النعمة إليه، فيكون الإخلاص أكمل، واستغراق القلب في مشاهدة نور الحق أتم، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت.

21 - وقال بعض أهل العلم: الفرق بين الحمد والمدح والشكر

أمور كثيرة:

منها: أن الحمد يختص بالثناء على الفعل الاختياري لذوي العلم، والمدح يكون في الاختياري وغيره ولذوي العلم وغيرهم كما يقال: مدحت اللؤلؤة على صفائها.

ومنها: أن الحمد يشترط صدوره عن علم لا ظن، وأن تكون الصفات المحمودة صفات كمال، والمدح قد يكون عن ظن وبصفة مستحسنة وإن كان فيها نقص ما.

ومنها: أن في الحمد من التعظيم والفخامة ما ليس في المدح، وهو أخص بالعقلاء والعظماء وأكثر إطلافاً على الله تعالى.

ومنها: أن الحمد إخبار عن محاسن الغير مع المحبة والإجلال، والمدح إخبار عن المحاسن، ولذا كان الحمد إخباراً يتضمن إنشاء، والمدح خبراً محضاً.

ومنها: أن الحمد مأمور به مطلقاً ففي الأثر: «من لم يحمد الناس لم يحمد الله» والمدح ليس كذلك: «احثوا في وجوه المداحين التراب» [رواه الإمام أحمد في مسنده].

ويشعر كلام الزمخشري في «الكشاف والفائق» بترادفهما، ففي الأول أنهما أخوان وجعل فيه نقيض المدح - أعني الذم - نقيضاً للحمد، وفي الثاني: الحمد المدح والوصف بالجميل، فالمدح عنده مخصوص بالاختياري وتأول المدح بالجمال وصباحة الوجه واحتمال أن يراد من الأخوين ما يكون بينهما اشتقاق كبير بأن يشتركا في الحروف الأصول من غير ترتيب كجذب وجذب، وأن الأدباء يجوزون التعريف بالأعم والنقيض.

ومنها: أن أهل الأصول يقولون: شكر المنعم واجب، ويريدون منه وجوب العبادة، وهي لا تتم إلا بهذه الثلاثة: القول باللسان، والعمل بالأركان، والاعتقاد والمحبة بالجنان، وإلا فالشكر اللغوي ليس إلا باللسان غير طيب فإن ظاهر الكتاب والسنة إطلاق الشكر على غير اللسان قال تعالى: ﴿اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: 13] وروى الطبراني عن النواس بن سمعان: «أن ناقة رسول الله ﷺ الجداء سرقت فقال: لئن ردها الله تعالى عليّ لأشكرنّ ربي فلما ردت

قال: الحمد لله، فانتظروا هل يحدث صوماً أو صلاة فظنوا أنه نسي فقالوا له: فقال: ألم أقل الحمد لله؟ فلو لم يفهموا رضي الله عنهم إطلاق الشكر على العمل لم ينتظروه.

ومنها: أن شكر الله تعالى لا يكون إلا بحمد الله تعالى، ولهذا قال ﷺ فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله تعالى عبد لا يحمده» [أخرجه البيهقي].

22 - والحمد: هو الذكر بالجميل على جهة تعظيم المذكور به ويصح على النعمة وغير النعمة. والحمد أيضاً: هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، نعمة كان أو غيرها؛ يقال: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على شجاعته.

وأما الشكر: فهو الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم، ويكون بالقلب واللسان والجوارح؛ قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمْ النَّعْمَاءُ مِنِّْي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

23 - قال بعض أهل العلم في الفرق بين الثناء والشكر: الثناء يكون على حسن فعال المثني عليه، كأن يصنع شيئاً ويبرز فيه. مثلاً: رأيت عمارة جيدة، وأعجبك التصميم والتنسيق الذي فيها فأثنت على المخطط لها أو المنفذ لها لحسن فعاله لا لكماله في شخصه ولو لم يأتك منه شيء، ومثله لو اخترع إنسان دواءً نافعاً، أو جهازاً صالحاً للناس، أو خدمة للناس، فتثني عليه لحسن فعاله ولو لم يأتك منه شيء.

وأما الشكر فهو يكون في مقابل ما يصل إليك ممن تشكره، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، فتشكر الله على نعمة العافية ونعمة الرزق ونعمة العلم ونعمة التوفيق، وعلى كل ما جاءك من الله من النعم، وكذلك تشكر زيداً؛ لأنه خدمك في كذا، أو ساعدك في كذا، فتشكره مقابل ما أسدى إليك من النعم، فتشكر الشخص على ما أتاك منه من خير، وتثني على حسن فعاله ولو لم يكن لك، وتحمد ولا يكون الحمد إلا لكمال الذات، ولا يكون ذلك إلا لله تعالى.

24 - مراتب الشكر: الشكر باللسان: هو الثناء على المنعم

والتحدث بالنعمة، قال رسول الله ﷺ «التحدث بالنعمة شكر» [رواه ابن أبي الدنيا].

والشكر بالجوارح: هو العمل بطاعة الله وترك معاصيه.

والشكر بالقلب: هو معرفة مقدار النعمة والعلم بأنها من الله وحده والعلم بأنها تفضل لا باستحقاق العبد.

25 - النعم التي يجب الشكر عليها لا تحصى، ولكنها تنحصر

في ثلاثة أقسام:

- نعم دنيوية: كالعافية والمال.
- ونعم دينية كالعلم والتقوى.
- ونعم أخروية: وهي جزاؤه بالثواب الكثير على العمل القليل في العمر القصير.

والناس في الشكر على مقامين:

- منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه خاصة .
- ومنهم من يشكر الله عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم .

والشكر على ثلاث درجات:

فدرجات العوام: الشكر على النعم .

ودرجة الخواص: الشكر على النعم والنقم وعلى كل حال .

ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن النعمة بمشاهدة المنعم .

ومن فضيلة الشكر أنه من صفات الحق ومن صفات الخلق ، فإن

من أسماء الله الشاكر والشكور .

26 - أيهما أفضل: كلمة «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»؟ أم كلمة

التوحيد «لا إله إلا الله»؟ ذهب بعض المحققين إلى أن كلمة «الحمد

للَّهِ» أفضل عنده من كلمة «لا إله إلا الله» لوجهين:

أحدهما: ما أخرجه أحمد عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَبِي سَعِيدِ

الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ أَرْبَعًا:

سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَمَنْ قَالَ:

سُبْحَانَ اللَّهِ، كُتِبَ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّتْ عَنْهُ عِشْرُونَ سَيِّئَةً، وَمَنْ

قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ

قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، كُتِبَ لَهُ ثَلَاثُونَ

حَسَنَةً، وَحُطَّتْ عَنْهُ ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً» .

والثاني: أن التوحيد الذي يقتضيه «لا إله إلا الله» حاصل في قولنا:

رب العالمين ، وزادت بقولنا: الحمد لله ، وفيه من المعاني ما قدمنا ،
وأما قول رسول الله ﷺ: «أفضل ما قلته أنا والنبئون من قبلي: لا إله
إلا الله» فإنما ذلك للتوحيد الذي يقتضيه ، وقد شاركتها «الحمد لله
رَبِّ الْعَالَمِينَ» في ذلك وزادت عليها ، وهذا المؤمن يقولها لطلب
الثواب ، وأما لمن دخل في الإسلام فيتعين عليه: لا إله إلا الله .

27 - للحمد مظاهر متعددة: فعند المحنة يكون الحمد بالرضى
عن الله فيما حكم به ، وعند النعمة الشكر ، فيقول في الضراء الحمد
لله على كل حال ، نظراً إلى النعمة الباطنة دون الشكر ، خوفاً من زيادة
المحنة لأن الله تعالى قال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]
والحمد على النعمة كالروح للجسد فلا بد من إحيائها .

وأبلغ الكلمات في تعظيم صنع الله وقضاء شكر نعمته الحمد ، ولذا
جعلت زينة لكل خطبة وابتداء لكل مدحة ، جاء في صحيح مسلم عن
أبي يحيى صهيب بن سنانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ
الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ
سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» .

28 - «الحمد لله» كلمة شريفة جليلة لكن لا بد من ذكرها في
موضعها وإلا لم يحصل المقصود منها ، قيل للسري السقطي: كيف
يجب الإتيان بالطاعة؟ قال: أنا منذ ثلاثين سنة أستغفر الله عن قولي
مرة واحدة: الحمد لله ، فقيل: كيف ذلك؟ قال: وقع الحريق في بغداد
واحترقت الدكاكين والدور ، فأخبروني أن دكاني لم يحترق فقلت:

الحمد لله ، وكان معناه أني فرحت ببقاء دكاني حال احتراق دكاكين الناس وكان حق الدين والمروءة ألا أفرح بذلك ، فأنا في الاستغفار منذ ثلاثين سنة عن قولي: الحمد لله ، فثبت بهذا أن هذه الكلمة وإن كانت جليلة القدر إلا أنه يجب رعاية موضعها .

29 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ الزُّرْقِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاذَ ابْنَ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ الْأَنْصَارِيِّ، يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِيهِ رِفَاعَةَ، أَنَّهُ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَغْرِبَ، فَعَطَسَ رِفَاعَةُ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، مُبَارَكًا عَلَيْهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَيْنَ الْمُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟» قَالَ رِفَاعَةُ: وَدِدْتُ أَنِّي عَدِمْتُ عِدَّةَ مَالِي وَلَمْ أَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الصَّلَاةَ حِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ الْمُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟» فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ: قُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ ابْتَدَرَهَا بِضْعَةٌ وَثَلَاثُونَ مَلَكًا أَيُّهُمْ يَضَعُ بِهَا». زَادَ فِي الْأَوَّلِ: «مُبَارَكًا عَلَيْهِ»، وَلَمْ يَقُلْ فِي الْإِعَادَةِ.

وإنما ابتدرها هذا العدد لأن ذلك عدد حروف هذه ، وبعضها على عدد أركان الأعمال ، وبعضها على قدر استعداد الذاكرين وقوتهم الروحية وهمتهم العلية .

30 - جاء في روح البيان (6/10): ﴿وَاللَّهُ غَفِيٌّ﴾ عن العالمين فضلاً عن إيمانهم وطاعته ﴿حَمِيدٌ﴾ يحمده كل مخلوق بلسان الحال

ويدل على اتصافه بالصفات الكمالية لأنه يحمده أولياؤه وإن امتنع أعداؤه، والحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال، ومن عرف أن الله تعالى هو الحميد في ذاته وصفاته وأفعاله شغله ذكره والثناء عليه عن غيره، لأن العبد وإن كثرت محامده من عقائده وأخلاقه وأفعاله وأقواله فلا يخلو عن مذمة ونقص، وأما النبي ﷺ فإنه محمد وأحمد ومحمود من كل وجه وله المحمودة والكمال، وورد في الأربعين الإدريسية: يا حميدَ الفِعال، إذا المن على جميع خلقه بلطفه» قال السهروردي رحمه الله: من داوم على هذا الدعاء أُكْرِمَ من الأموال ما لا يمكن ضبطه ٥٠١هـ.

قال ابن عجيبة في البحر المديد (83/8) ﴿حَمِيدٌ﴾ يحمده كلُّ مخلوقٍ بلسان الحال والمقال، أو: مستحق للحمد بذاته، وإن لم يحمده حامد.

وقال بعضهم «حميد» أي يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من النعم إلا ما في قلوب الكفار، وأما نفس لحمة القلب وسائر الأعضاء فجامدة في نفسها ولو منعها الكافر من التصرف في الخير، وأيضاً هو حميد ولو لم يثن الكافر بحمده ولم يعلمه، على أن غالب الكفار يعلمون أن الله منعم.

وقال الألويسي: ﴿حَمِيدٌ﴾ يحمده كل مخلوق بلسان الحال الذي هو أفصح من لسان المقال، أو مستحق جل شأنه للحمد بذاته وإن لم يحمده سبحانه حامد.

31 - فضل الحمد: وخرَّج مسلم أيضاً من رواية أبي الأسود

الدَّيْلِي، عن أبي ذرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى». وخرَّج الطبراني عن عطاء، عن ابن عمر، عن النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَانَ لَهُ بِهَا عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، كُتِبَ لَهُ بِهَا مِئَةٌ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ حَسَنَةٍ»، فقال رجل: كَيْفَ نَهْلِكُ بَعْدَ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْعَمَلِ، لَوْ وُضِعَ عَلَى جَبَلٍ لِأَثْقَلِهِ، فَتَقُومَ النِّعْمَةُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ، فَتَكَادُ أَنْ تَسْتَنْفِدَ ذَلِكَ كَلَّهُ، إِلَّا أَنْ يَتَطَاوَلَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ». قال سليمان التيمي: إِنَّ اللَّهَ أَنْعَمَ عَلَى الْعِبَادِ عَلَى قَدْرِهِ، وَكَلَّفَهُمُ الشُّكْرَ عَلَى قَدْرِهِمْ حَتَّى رَضِيَ مِنْهُمْ مِنَ الشُّكْرِ بِالاعْتِرَافِ بِقُلُوبِهِمْ بِنِعْمِهِ، وَبِالْحَمْدِ بِأَلْسِنَتِهِمْ عَلَيْهَا.

32 - جاء عند البيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن قال: قال

موسى - عليه السلام -: يا ربِّ، كَيْفَ يَسْتَطِيعُ آدَمُ أَنْ يُؤَدِّيَ شُكْرَ مَا صَنَعْتَ إِلَيْهِ؟ خَلَقْتَهُ بِيَدِكَ، وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِكَ، وَأَسَكَنْتَهُ جَنَّتَكَ، وَأَمَرْتَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَهُ، فَقَالَ: يَا مُوسَى، عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْي، فَحَمَدَنِي عَلَيْهِ، فَكَانَ ذَلِكَ شُكْرًا لِمَا صَنَعْتَهُ.

وكتب بعضُ عمالِ عمر بن عبد العزيز إليه: إني بأرضٍ قد كثرت فيها النِّعم، حتى لقد أشفقتُ على أهلها مِنْ ضَعْفِ الشُّكْرِ، فكتب إليه

عُمَرُ: إِنِّي قَدْ كُنْتُ أُرَاكَ أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِمَّا أَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْعِمْ عَلَيَّ عَبْدٍ نِعْمَةً، فَحَمِدَ اللَّهُ عَلَيْهَا، إِلَّا كَانَ حَمْدُهُ أَفْضَلَ مِنْ نِعْمِهِ، لَوْ كُنْتُ لَا تَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمَنْزِلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوُّهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَأَيُّ نِعْمَةٍ أَفْضَلُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ؟

33 - قوله ﷺ: «إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»

هكذا ذكر لنا جابر رضي الله عنه صيغة التلبية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الطويل. والنعمة هي: كل ما فيه نعمة: كالعيش والرخاء والصحة والمال، كل ذلك فيه نعمة الحياة؛ لأن الشخص إذا توفرت له الأموال توفرت له الغذاء، واكتملت له الصحة، وكانت حياته ناعمة، بخلاف ما إذا كان في شظف من العيش، أو كان في مرض، أو كان في شدة فحياته تكون خشنه، فالنعمة من النعمة التي يطمئن إليها الإنسان، ويركن إليها ويستريح بها، وكل ما في الوجود من نعمة فهو من الله كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾

[النحل: 53] وقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34] أيَّ نعمةٍ؛ لأن النكرة إذا أضيفت إلى معرفة دلت على العموم، (من) هنا جاءت قبل النكرة للتعميم، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾، فهي تفوق الحد وتفوق الحصر، والإحصاء مأخوذ من الحصر: كالعَد من واحد واثنين وثلاثة إلى ما لا نهاية، فإذا جاء الإنسان ونظر في شخصه فقط، وفيما أنعم الله عليه في ذاته وفي تكوينه من بصر وسمع وتذوق وحركة فلن يستطيع أن يحصي هذه الفضائل والنعم التي أنعم الله تعالى بها عليه.

وهنا قال: «إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» أي: إن كمال الذات لا يساويك يا رب فيه أحد، ولا شريك لك في ذلك، وكذلك في نعمك على خلقك ليس هناك من هو شريك لك في الإنعام، فالحمد والنعمة لك، والملك لك تتصرف فيه كيف شئت لا شريك لك.

34 - المؤمن إذا أعلن على ملاء العالم، وسمع وشهد الحجر والشجر والمدر والجن والإنس أنه يقر بأن الحمد والكمال لله سبحانه، وأن كل نعمة على منعمٍ عليه بها فهي لله لا شريك له، فهل يليق به أن يتوجه بعد ذلك إلى غير الله بتزلف أو ثناء، أو بطلب أو باستعانة، أو برغبة فيما عنده؟! هذا الذي نتوجه إليه هو من مخلوقات الله، وكل ما عند المخلوق نعمة من الله تعالى، فلماذا نذهب إلى هذا المخلوق الذي أنعم الله عليه، ولا نذهب إلى المنعم سبحانه وتعالى؟ ولهذا فإن

في التلبية تجديد التوحيد لله سبحانه وتعالى .

35 - معنى الباء في «سبحان الله وبحمده» وفي قوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الباء للمصاحبة، أي سبحوا الله تسبيحاً مقروناً بالحمد مصاحباً به .

36 - للحمد أسباب إذا تجددت نعمة فإنك تحمده عليها، ونعم

الله تتجدد بالغدو والآصال كما في قوله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها» [رواه مسلم]، وأينا يستغني عن الأكل والشرب في اليوم عدة مرات؟ إذاً فإذا تجددت هذه النعمة، فإنك تحمده عليها.

كذلك أيضاً تقول بعد الفراغ من التخلي: (الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ منفعته، وأذهب عني أذاه)، أو بعد الخروج من الخلاء فتقول: (الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني)، فلا يستغني الإنسان أن يحمد الله في كل الحالات، إذاً فالله تعالى محمود دائماً إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال .

37 - قوله: «الحمد لله» المحمود بكل لسان، قد تقول: كيف

يكون ذلك مع أن كثيراً من الألسن لا يعرفون الله، أو لا يعترفون بفضله فضلاً عن أن يحمده؟

والجواب: أن الألسن ناطقة بحمده إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال، فألسنة الكفرة ولو كانت لا تذكر الله، ولو كانوا ينسبون النعم

إلى غير الله، ولو كانوا يكفرون به وبنعمه، ولو كانوا يصرفون العبادة لغيره، ولكن لسان حال أحدهم معترف بأنه محتاج إلى رب، وأنه لا يستغني عنه طرفة عين، لسان حال أحدهم معترف بأنه مخلوق مفتقر إلى الخلاق، وذلك الخالق له الفضل عليه، فلا بد أن يكون صاحب الفضل أهلاً أن يثنى عليه، وأهلاً أن يحمد، إذاً فهو حامد بلسان حاله شاء أم أبى. فهذا دليل على أن الله تعالى: محمود بكل لسان، من لسان حال، أو لسان مقال.

وقد ذكر الله تعالى أن جميع المخلوقات ذليلة له كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 1]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: 49]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: 18]، إلى آخر آيات السجود. والحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له، والذم هو الإخبار بمساوئ المذموم مع البغض له، وجماع المساوئ فعل الشر، كما أن جماع المحاسن فعل الخير.

فإذا كان يفعل الخير بمشيئته وقدرته استحق الحمد، فمن لم يكن له فعل اختياري يقوم به، بل ولا يقدر على ذلك، لا يكون خالقاً ولا رباً للعالمين.

38 - الحمد نفسه هو أفضل نعم الله على عباده، وهو من أجل

نعم الله التي أنعم بها على العبد من رزقه وعافيته وصحته والتوسعة عليه في دنياه ونحو ذلك ، يشهد لهذا ما رواه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنعم الله على عبد بنعمة فقال: الحمد لله إلا كان ما أعطى أفضل ممّا أخذ». وبه يتبين معنى الحديث ، فالعبد أعطى الحمد ، وحمده نفسه نعمة من الله عليه ، ولولا توفيق الله وإعانتته لما قام بحمده ، فنعمة الله على عبده بتوفيقه للحمد أفضل من نعمة الله عليه بالصحة والعافية والمال ونحو ذلك ، والكلُّ نعمة الله ، قال ابن القيم - رحمه الله -: «فنعمة الشكر أجلُّ من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها». اهـ.

ولهذا فإنَّ حمد الله عز وجل وشكره على نعمه هو بحمد ذاته نعمة عظيمة تستوجب حمداً آخر وشكراً متجدداً.

39 - روى ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن بكر بن عبد الله قال: «ما قال عبد قط: الحمد لله ، إلا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله ، فما جزاء تلك النعمة؟ جزاؤها أن يقول: الحمد لله ، فجزاء أخرى ، ولا تنفذ نعم الله عز وجل».

ولذا قال الإمام الشافعي - رحمه الله - في حمد الله: «الحمد لله الذي لا تؤدَّى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها».

أي: إنَّ العبد إذا حمد الله فهذه نعمة أخرى حادثة تستوجب

حمداً آخر. وقد تقدّم بيان فضل الحمد وعظم ثوابه عند الله ، والإشارة إلى بعض صيغته الواردة في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول الكريم ﷺ ، كقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وقول: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى» ، ونحو ذلك مما ورد في القرآن الكريم مما حمد به الربُّ نفسه ، وما ورد في سنة النبي الكريم ﷺ مما حمد به الرسول ﷺ ربّه ، وهي صيغٌ عظيمةٌ مشتملةٌ على أحسن الحمد وأكمله وأوفاه .

وقد ذكر بعضُ أهل العلم أنّ أفضل صيغ الحمد «الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده» ، واحتجّ بما ورد عن أبي نصر التمار أنّه قال: قال آدم عليه السلام: يا رب شغلّنتني بكسب يديّ فعلمني شيئاً من مجامع الحمد والتسبيح ، فأوحى الله إليه: يا آدم إذا أصبحت فقل ثلاثاً وإذا أمسيت فقل ثلاثاً: «الحمد لله ربّ العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ، فذلك مجامع الحمد» .

40 - قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فيه تنبيه على أنّه - صلوات الله وسلامه عليه - محمود في أخلاقه وأفعاله ليس فيه ما يُذمّ ، وكذلك قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ فمحمّد هاهنا وإن كان اسماً له علماً عليه ففيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بوافر معناه ، وأما سواه فقد يُسمّى بذلك ويكون له حظ من الوصف الذي دلّ عليه هذا الاسم وقد لا يكون ، أما الرسول الكريم - صلوات الله

وسلامه عليه - فهو محمّدٌ ومحمودٌ وحامدٌ وأحمدٌ ظاهراً وباطناً. اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه.

41 - معنى: الحمد لله كله، هذا له معنيان:

أحدهما: أنّه محمودٌ على كلّ شيء، وهو ما يحمد به رسله وأنبيأؤه وأتباعهم، فذلك من حمده - تبارك وتعالى - بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنّما نالوه بحمده، فهو المحمود أولاً وآخرأً وظاهراً وباطناً.

والمعنى الثاني: أن يُقال: لك الحمد كله؛ أي: التامّ الكامل، وهذا مختصٌّ بالله ليس لغيره فيه مشاركة.

والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعاً، فله عمومُ الحمد وكماله، وهذا من خصائصه - سبحانه - فهو المحمود على كلّ حال، وعلى كلّ شيء أكمل حمدٍ وأعظمه. فالحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله بمجامع حمده كلّها ما علمنا منها وما لم نعلم.

42 - حمد الله نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على

تفردّه بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاته أحد من خلقه لحاجته إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَبْرَهُ تَكْبِيراً ﴾، وحمد نفسه

على علوه وكبريائه كما قال - سبحانه - : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ غ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ، وحمد نفسه في الأولى والآخرة ، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي ، ونبه على هذا كله في كتابه في آيات عديدة تدل على تنوع حمده - سبحانه - وتعدد أسباب حمده ، وقد جمعها الله في مواطن من كتابه ، وفرّقها في مواطن أخرى ليتعرّف إليه عباده ، وليعرفوا كيف يحمّدونه وكيف يثنون عليه ، وليتحبّب إليهم بذلك ، ويحبّبهم إذا عرفوه وأحبّوه وحمّدوه .

43 - ورد الحمد في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً ، جُمع في بعضها أسباب الحمد ، وفي بعضها ذُكرت أسبابه مفصّلاً ، فمن الآيات التي جُمع فيها أسباب الحمد قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ونبينا ﷺ هو صاحب لواء الحمد ، وهذه مفخرة عظيمة ومكانة رفيعة حظي بها - صلوات الله وسلامه عليه - روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبيّ يومئذ - آدم فمّن سواه - إلّا تحت لوائيّ ، وأنا أول شافعٍ ، وأوّل مشفّعٍ ولا فخر» .

فلمّا كان - صلوات الله وسلامه عليه - أحمد الخلائق لله ، وأكملهم قياماً بحمده أعطي لواء الحمد ، ليأويّ إلى لوائه الحامدون لله من

الأولين والآخرين ، وإلى هذا أشار ﷺ عندما قال في الحديث: «وما من نبيٍّ يومئذ - آدم فمن سواه - إلاّ تحت لوائي»، وهو لواءٌ حقيقيٌّ يحمله النبيُّ ﷺ يوم القيامة بيده، ينضوي تحته وينضمّ إليه جميعُ الحمّادين من الأولين والآخرين ، وأقربُ الخلق إلى لوائه أكثرهم حمداً لله وذكراً له وقياماً بأمره .

وأمتُه ﷺ هي خيرُ الأمم ، وهم الحمّادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء ، وقد رُوي في الحديث أن النبي ﷺ قال: «أولُ من يُدعى إلى الجنّة الحمّادون ، الذين يحمدون الله في السراء والضراء» ، رواه الطبراني في المعجم الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرک ، لكن في إسناده ضعف ، وقد رواه ابن المبارك في الزهد بسند صحيح موقوفاً على سعيد ابن جبیر - رحمه الله - . وجاء في أثر يُروى عن كعب قال: نجده مكتوباً: «محمّدٌ رسول الله ﷺ ، لا فظ ولا غليظٌ ، ولا صحّابٌ بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكنه يعفو ويغفر ، وأمتُه الحمّادون يكبرون الله عز وجل على كلّ نجدٍ ، ويحمدونه في كلّ منزلة...» رواه الدارمي في مقدّمة سننه .

44 - في الجنّة بيتٌ يُقال له: بيتُ الحمد ، خُصّ للذين يحمدون

الله في السراء والضراء ويصبرون على مرّ القضاء ، روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولدُ العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولدَ عبدي؟ فيقولون: نعم . فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم . فيقول: ماذا قال

عبيدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد». فهذا حمد الله على الضراء فنال بحمده هذه الرتبة العلية، ولكن كيف يبلغ العبد هذه المنزلة، وكيف يصل إلى هذه الدرجة؟

45 - الحمد على الضراء يوجبه مشهدان:

أحدهما: علم العبد بأن الله - سبحانه - مستوجب ذلك، مستحق له بنفسه، فإنه أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء، وهو العليم الحكيم، الخبير الرحيم.

والثاني: علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن خيراً من اختياره لنفسه، كما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراءٌ شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صبرَ فكان خيراً له»، فأخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له».

ومما ورد في فضل الحمد وعظم ثوابه عند الله ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

فأخبر ﷺ في هذا الحديث عن عظيم فضل الحمد وعظيم ثوابه ،
وأنه يملأ الميزان ، وقد قيل : إنَّ المراد بِمَلئه الميزان أي : لو كان الحمد
جسماً لملأ الميزان ، وليس بسديد ، بل إنَّ الله عز وجل يمثّل أعمال
بني آدم وأقوالهم صُوراً يوم القيامة وتوزن حقيقةً ، ومن ذلك قوله ﷺ
كما في الصحيحين : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان ،
خفيفتان على اللسان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» .

فالحمد شأنه عظيمٌ ، وثوابه جليلٌ ، ويتدرب عليه من الأجر
والثواب ما لا يعلمه إلا الله ، وأهله هم الحرّيون يوم القيامة بأعلى
المقامات وأرفع الرُتب وأعلى المنازل ، فإنَّ الله عز وجل يحبُّ
المحامدَ ، ويحبُّ من عبده أن يُثنيَ عليه ، ويرضى من عبده أن يأكلَ
الأكلةَ فيحمده عليها ، ويشربَ الشربةَ فيحمده عليها ، وهو - تبارك
وتعالى - المانُّ عليهم بالنعمة والمتفضّل عليهم بالحمد ، فهو يبذل
نعمه لعباده ، ويطلبُ منهم الثناءَ بها وذكرها والحمدَ عليها ، ويرضى
منهم بذلك شكراً عليها ، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم ، وهو غير
محتاج إلى شكرهم ، لكنه يحبُّ ذلك من عباده حيث كان صلاحُ العبد
وفلاحه وكمالُه فيه ، فله الحمد على نعمائه ، وله الشكر على وافر
فضله وجزيل عطائه ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما يحبُّ ربُّنا ويرضى .

46 - من المواطن التي يتأكّد فيها الحمد: لقد مرّ معنا بيانُ فضل
الحمد وعظيم ثوابه من خلال النصوص الواردة في ذلك في كتاب الله
وسنة رسوله ﷺ ، وهي تدل على أن الحمد من أفضل الطاعات وأجلّ

القربات التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى .

والحمدُ مطلوبٌ من المسلم في كلِّ وقتٍ وحينٍ ؛ إذ إنَّ العبد في كلِّ أوقاته متقلِّبٌ في نعمة الله ، وهو - سبحانه - خالقُ الخلق ورازقهم ، وقد أسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ، الدينية والدينية ، ودفع عنهم النقم والمكاره ، فليس بالعباد من نعمة إلا وهو مولياها ، ولا يدفع الشرَّ عنهم سواه ، فهو سبحانه يستحقُّ منهم الحمد والثناء في كلِّ وقتٍ وحينٍ ، كما أنه سبحانه يستحقُّ الحمدَ لكمال صفاته ، ولما له من الأسماء الحسنى والنعوت العظيمة التي لا تنبغي إلا له ، فكلُّ اسم من أسمائه ، وكلُّ صفةٍ من صفاته يستحقُّ عليها أكملَ الحمد والثناء ، فكيف بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة ؟ وكما أن الحمدَ مطلوبٌ من المسلم في كلِّ وقتٍ ، إلا أن هناك أوقاتاً معينةً وأحوالاً مخصوصةً تمرُّ بالعبد يكون فيها الحمدُ أكثرَ تأكيداً .

- ومن هذه الأوقات والأحوال: حمدُ الله في الخطبة ، وفي افتتاح الأمور ، وفي الصلاة ، وعقب الطعام والشراب واللباس ، وعند العطاس ، ونحو ذلك من المواطن التي ورد في السنة تخصيصها بتأكد الحمد فيها ، ولعلَّ من الحسن أن نقف مع بعض النصوص المشتملة على ذكر الأوقات والمواطن التي يتأكد فيها الحمدُ ممَّا وردت به سنة النبي ﷺ :

- من هذه المواطن: حمد الله عند الفراغ من الطعام والشراب ،

قال الله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ، روى مسلم في صحيحه عن

أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»، وروى الترمذي بإسناد حسن عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوةٍ، غفر له ما تقدم من ذنبه»، وروى البخاري عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع مائدته قال: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفيٍّ، ولا مودعٍ، ولا مستغنى عنه ربنا» وروى النسائي في السنن الكبرى بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن جبير: أنه حدثه رجل خدَم النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين سنين أنه كان يسمع النبي صلى الله عليه وسلم إذا قَرَّب إليه طعاماً يقول: «بسم الله»، وإذا فرغ من طعامه قال: «اللهم أطعمت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت وأحييت، فلك الحمد على ما أعطيت».

- ومن مواطن الحمد: حمدُ الله في الصلاة، ولا سيَّما عند الرفع من الركوع، ففي صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»، وفيه أيضاً عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما

منعت ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدِّ .

وروى البخاري في صحيحه عن رفاعه بن رافع الزَّرْقِيّ رضي الله عنه قال :
كُنَّا نصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع قال : «سمع الله
لمن حمده» ، قال رجلٌ وراءه : ربَّنَا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً
فيه ، فلمَّا انصرف قال : «مَنْ المتكلم ؟» قال : أنا ، قال : «قد رأيتُ
بضعةً وثلاثين ملكاً يتدرونها أيُّهم يكتبها أوَّل» ، وروى البخاري
ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من
الليل يصلي يقول : «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن
فيهنَّ ، ولك الحمد أنت قيُّوم السموات والأرض ومن فيهنَّ ، ولك
الحمد أنت الحقُّ ، ووعدك حقٌّ ، ولقاؤك حقٌّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنار
حقٌّ ، والنبیون حقٌّ . . .» ، إلى آخر الحديث . وروى مسلمٌ في صحيحه
عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : بينما نحن نصلي مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال رجلٌ : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرةً
وأصيلاً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «مَنْ القائل كذا وكذا ؟» فقال رجل من
القوم : أنا قلتها يا رسول الله . قال : «عجبتُ لها فُتحت لها أبواب
السماء !» ، قال ابن عمر : فما تركتها منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

- ومن المواطن التي يتأكَّد فيها الحمد : حمدُ الله في ابتداء
الخطب والدروس ، وفي ابتداء الكتب المصنَّفة ونحو ذلك ، روى أهل
السنن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة
الحاجة : «الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا

ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له»، ويُستحبُّ البدء به في تعليم الناس ، وفي الخطب سواءً كانت خطبةً نكاح أو خطبةً جمعة أو غيرها.

- كما يُستحبُّ الحمد عند حصول نعمة أو اندفاع مكروه، سواءً حصل ذلك للحامد نفسه أو لقريبه أو لصاحبه أو للمسلمين، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أتى ليلة أُسري به بقدرين من خمر ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن، فقال له جبريل عليه السلام: الحمد لله الذي هداك للفترة، لو أخذت الخمر غَوَت أُمَّتُكَ»، وفي سنن أبي داود والنسائي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استجدَّ ثوباً سمَّاه باسمه عِمامة أو قميصاً أو رداء ثم يقول: «اللَّهُمَّ لك الحمد أنتَ كسوتنيه، أسألك خيرَه وخيرَ ما صُنِعَ له، وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ ما صُنِعَ له».

- ويتأكَّد الحمدُ إذا عطس العبدُ، والعطاس نعمة عظيمة من نعم الله على عباده؛ إذ به يزول المحتقن في الأنف، والذي قد يكون في بقائه أذى أو ضرراً على العبد، ولهذا يتأكَّد على العبد حمدُ الله على هذه النعمة، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم»

47 - يُستحب للمسلم أن يحمده الله إذا رأى مبتلىً بعاهةٍ أو

نحوها، ففي الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ رَأَى مَبْتَلَى فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا لَمْ يَصِبْ ذَلِكَ الْبَلَاءُ».

48 - كما ينبغي للمسلم أن يكون حامداً لله في سرّائه وضرّائه، وفي شدّته ورخائه، وفي سائر شؤونه، روى ابن ماجه في سننه، والحاكم في مستدرکه عن أمّ المؤمنین عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى ما يحبه قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات»، وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كلّ حال».

49 - في بيان موجبات الحمد، وأنواعه: ولا ريب أنّ الحمد كلّهُ لله ربّ العالمين، فإنّه سبحانه المحمود على كلّ شيء، وهو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، والحمدُ أوسع الصفات وأعمّ المدائح وأعظم الثناء، والطرقُ إلى العلم به في غاية الكثرة؛ لأنّ جميعَ أسمائه - تبارك وتعالى - حمدٌ، وصفاته حمدٌ، وأفعاله حمدٌ، وأحكامه حمدٌ، وعدله حمدٌ، وانتقامه من أعدائه حمدٌ، وفضله وإحسانه إلى أوليائه حمدٌ، والخلق والأمر إنّما قام بحمده ووُجد بحمده وظهر بحمده، وكانت الغاية منه هي حمده، فحمده روح كلّ شيء، وقيامُ كلّ شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات وظهور آثاره أمرٌ مشهودٌ بالأبصار والبصائر.

50 - نَبّه الله سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأنّ حمده

نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق به من اتخاذ الولد والشريك... إلى غير ذلك من أنواع ما حمد الله به نفسه في كتابه. ولهذا فإن من الطرق العظيمة الدالة على شمول معنى الحمد وتناوله لجميع الأشياء معرفة العبد لأسماء الرب - تبارك وتعالى - وصفاته، وإقراره بأن للعالم إلهاً حياً جامعاً لكل صفة كمال، واسم حسنٍ وثناء جميل وفعل كريم، وأنه سبحانه له القدرة التامة والمشية النافذة والعلم المحيط، والسمع الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملك الكامل الذي لا يخرج عنه ذرة من الذرات، والغنى التام المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهودة آثارها في الكائنات، والعزة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلمات التامات النافذات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من جميع البريات، واحدٌ لا شريك له في ربوبيته ولا في إلهيته، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وليس له من يشركه في ذرة من ذرات ملكه.

وهو - سبحانه - قيوم السموات والأرضين وإله الأولين والآخرين، ولا يزال - سبحانه - موصوفاً بصفات الجلال، منعوتاً بنعوت الكمال، منزهاً عن أضرارها من النقائص والعيوب، فهو الحي القيوم الذي - لكمال حياته وقيوميته - لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، مالك السموات

والأرض الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، العالم بكل شيء الذي - لكمال علمه - يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، يعلم ديب الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليه الملك، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب، البصير الذي - لكمال بصره - يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها، ويرى ديبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرضين السبع، كما يرى ما فوق السموات السبع، السميع الذي قد استوى في سمعه سر القول وجهره، وسع سمعه الأصوات فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشبهه.

وهو - سبحانه - يحبُّ رسله ويحبُّ عباده المؤمنين وهم يحبُّونه ويحمدونه، بل لا شيء أحبُّ إليهم منه، ولا أشوق إليهم من لقائه، ولا أقرَّ لعيونهم من رؤيته، ولا أحظى عندهم من قربه، وهو - سبحانه - له الحكمة البالغة في خلقه وأمره، وله النعمة السابغة على خلقه، وكلُّ نعمة منه فضلٌ، وكلُّ نعمة منه عدلٌ، وهو - سبحانه - أرحمُّ بعباده من الوالدة بولدها، وأفرحُ بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها.

51 - وهو - سبحانه - رحيمٌ بعباده لم يكلفهم إلا وسعهم، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم، بخلاف وسعهم فإنه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدرهم عنه، ولا يعاقب - سبحانه - أحداً بغير فعله، ولا

يعاقبه على فعل غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله، ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه، وهو - سبحانه - حكيمٌ كريمٌ جوادٌ ماجدٌ محسنٌ ودودٌ صبورٌ شكورٌ، يُطاعُ فيشكرُ، ويُعصى فيغفرُ، لا أحدٌ أصبر على أذى سمعه منه، ولا أحدٌ أحبُّ إليه المدح منه، ولا أحدٌ أحبُّ إليه العذر منه، ولا أحدٌ أحبُّ إليه الإحسان منه، فهو محسنٌ يحبُّ المحسنين، شكورٌ يحبُّ الشاكرين، جميلٌ يحبُّ الجمال، طيبٌ يحبُّ كلَّ طيبٍ، عليمٌ يحبُّ العلماءَ من عباده، كريمٌ يحبُّ الكرماءَ، قويُّ والمؤمن القويُّ أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، برٌّ يحبُّ الأبرار، عدلٌ يحبُّ أهل العدل، حييٌّ ستيِّرٌ يحبُّ أهل الحياء والستر.

وهو - سبحانه - يحبُّ أسماءَه وصفاته ويحبُّ المتعبدين له بها، ويحبُّ من يسأله ويمدحه بها، ويحبُّ من يعرفها ويعقلها ويشني عليه بها، ويحمده ويمدحه بها كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ؛ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْيَرَ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ؛ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ».

52 - الحمد ناشئ عن التوفيق للخير والإنعام على المثني،

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي بتوفيقك وإنعامك، فإذا كان الله متصفاً بالخلق والملك والتصرف والحكمة والعلم والرحمة والمغفرة ونحوها من الصفات الجليلة فله الحمد المطلق، والحمد هو الثناء على الجميل الاختياري من جهة التعظيم من نعمة وغيرها كالعلم والكرم. ولذلك

كانت كلمة «سبحان الله وبحمده» أعظم كلمة على الإطلاق .

53 - في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي: «كل كلام لا

يبدأ فيه بالحمد فهو أجزم» أي: أقطع، فله الحمد قبل كل كلام بصفات الجلال والإكرام.

يشهد لهذا ما رواه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنعم الله على عبد بنعمة فقال: «الحمد لله إلا كان ما أعطى أفضل مما أخذ». وبه يتبين معنى الحديث المتقدم: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ» فالعبد أعطى الحمد، وحمده لله تعالى هو نفسه نعمة من الله عليه، ولولا توفيق الله وإعانتته لما قام بحمده، فنعمة الله على عبده بتوفيقه للحمد أفضل من نعمة الله عليه بالصحة والعافية والمال ونحو ذلك، والكل من نعمة الله، فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها، ولهذا فإن حمد الله عز وجل وشكره على نعمه هو بحد ذاته نعمة عظيمة تستوجب حمداً آخر وشكراً متجدداً.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن بكر بن عبد الله قال: «ما قال عبد قط: الحمد لله، إلا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله، فما جزاء تلك النعمة؟ جزاؤها أن يقول: الحمد لله، فجاءت أخرى، ولا تنفد نعم الله عز وجل».

54 - روى الطبراني عن النواس بن سمعان: «أن ناقة رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجداء سُرقت فقال: لئن ردها الله تعالى عليّ لأشكرن ربي .
فلما ردت قال: الحمد لله . فانتظروا هل يُحدث صوماً أو صلاة؟ فظنوا
أنه نسي فقالوا له ، فقال: ألم أقل: الحمد لله»؟

55 - أنه تعالى لم يقل: أحمد الله، ولكن قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

وهذه العبارة الثانية أولى لوجوه:

أحدها: أنه لو قال: أحمد الله، أفاد ذلك كون ذلك القائل قادراً
على حمده، أما لما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقد أفاد ذلك أنه كان محموداً
قبل حمد الحامدين وقبل شكر الشاكرين، فهؤلاء سواء حمدوا أو لم
يحمدوا وسواء شكروا أو لم يشكروا فهو تعالى محمود من الأزل إلى
الأبد بحمده القديم وكلامه القديم .

وثانيها: أن قولنا: الحمد لله، معناه أن الحمد والثناء حق لله
وملكه، فإنه تعالى هو المستحق للحمد بسبب كثرة أياديه وأنواع آلائه
على العباد، فقولنا: الحمد لله، معناه أن الحمد لله حق يستحقه لذاته،
ولو قال: أحمد الله، لم يدل ذلك على كونه مستحقاً للحمد لذاته،
ومعلوم أن اللفظ الدالّ على كونه مستحقاً للحمد أولى من اللفظ الدالّ
على أن شخصاً واحداً حمده .

وثالثها: أنه لو قال: أحمد الله، لكان قد حمد لكن حمداً لا

يليق به، وأما إذا قال: الحمد لله، فكأنه قال: من أنا حتى أحمده؟

56 - أخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن عبد الله بن عمر

قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده»، وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن الحسن قال: ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أعظم منها كائنة ما كانت. وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة والحسن قالوا: عرضت على آدم ذريته فرأى فضل بعضهم على بعض فقال: أي رب فهلا سويت بينهم؟ قال: إني أحب أن أشكر.

وروى الديلمي في الفردوس حديث: «الحمد على النعمة أمان لزوالها»، ومن لم يحمده عليها فقد عرضها للزوال، وقلما نفرت فعادت.

57 - عن جابر بن عبد الله رضي عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أفضل الدعاء الحمد لله، وأفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله» لأن الدعاء عبارة عن ذكر الله وأن تطلب منه الحاجة، والحمد يشملها فإن الحامد لله إنما يحمده على نعمه، والحمد على النعم طلب المزيد، وفي الحديث القدسي: «إن الله يقول: من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»، وعن ابن عباس رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء».

*** ** **

تفسير قوله تعالى: <الله>

وفيه اثنتان وعشرون مسألة:

1 - الإله مشتق من ألّهتُ إلى فلان، أي: سكنتُ إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تعرج إلا بمعرفته، واشتقاقه من أله الفصيل إذا ولع بأمه، والمعنى أن العباد مولهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال، ويدل عليه أمور:

الأول: أن الإنسان إذا وقع في بلاء عظيم وآفة قوية فهناك ينسى كل شيء إلا الله تعالى، فيقول بقلبه ولسانه: يا رب، يا رب، فإذا تخلص عن ذلك البلاء وعاد إلى منازل الآلاء والنعماء أخذ يضيف ذلك الخلاص إلى الأسباب الضعيفة والأحوال الخسيسة، وهذا فعل متناقض، لأنه إن كان المخلص عن الآفات والموصل إلى الخيرات غير الله وجب الرجوع في وقت نزول البلاء إلى غير الله، وإن كان مصلح المهمات هو الله تعالى في وقت البلاء وجب أن يكون الحال كذلك في سائر الأوقات، وأما الفرع إليه عند الضرورات، والإعراض عنه عند الراحة، فلا يليق بأرباب الهدايات.

والثاني: أن الخير والراحة مطلوبة من الله.

والثالث: أن المحسن في الظاهر إما الله أو غيره، فإن كان غيره فذلك الغير لا يحسن إلا إذا خلق الله في قلبه داعية الإحسان، فالحق

سبحانه وتعالى هو المحسن في الحقيقة، والمحسن مرجوع إليه في كل الأوقات، والخلق مشغوفون بالرجوع إليه.

شكا بعض المريدين من كثرة الوسواس، فقال الأستاذ: كنت حداداً عشرة سنين، وقصّاراً عشرة أخرى، وبواباً عشرة ثلاثة، فقالوا: ما رأيك فعلت ذلك، قال: فعلت ولكنكم ما رأيتم، أما عرفتم أن القلب كالحديد؟ فكنت كالحداد ألبنه بنار الخوف عشرة سنين، ثم بعد ذلك شرعت في غسله عن الأوضار والأقذار عشرة سنين، ثم بعد هذه الأحوال جلست على باب حجرة القلب عشرة أخرى سأللاً سيف «لا إله إلا الله» فلم أزل حتى يخرج منه حُبٌّ غير الله تعالى، ولم أزل حتى يدخل فيه حب الله تعالى، فلما خلت ساحة القلب عن غير الله تعالى وقويت فيه محبة الله سقطت من بحار عالم الجلال قطرة من النور فغرق القلب في تلك القطرة، وفني عن الكل، ولم يبق فيه إلا محض سر «لا إله إلا الله».

2 - قال بعضهم: إن اشتقاق لفظ «الإله» من أله الرجل يأله إذا فزع من أمر نزل به فألهه أي أجاره، والمجبر لكل الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: 88] ولأنه هو المنعم لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ ولأنه هو المطعم لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: 14] ولأنه هو الموجد لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فهو

سبحانه وتعالى قهار للعدم بالوجود والتحصيل، جبار لها بالقوة والفعل والتكميل، فكان في الحقيقة هو الله ولا شيء سواه.

3 - جرت عادة المديون أنه إذا رأى صاحب الدين من بعيد فإنه يفر منه، والله الكريم يقول: عبادي، أنتم غرمائي بكثرة ذنوبكم، ولكن لا تفروا مني، بل أقول: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: 50] فإنني أنا الذي أقضي ديونكم وأغفر ذنوبكم، وأيضاً الملوك يغلقون أبوابهم عن الفقراء دون الأغنياء، وأنا أفعل ضد ذلك.

4 - قال ﷺ: «إن لله تعالى مئة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطيور والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون ويتراحمون، وأخر تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»، وأقول: إنه ﷺ إنما ذكر هذا الكلام على سبيل التفهيم، وإلا فبحار الرحمة غير متناهية، فكيف يعقل تحديدها بحد معين؟

5 - «الله» اسمٌ لِلذَّاتِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ الْمُسْتَحَقِّ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ، وَلِذَلِكَ أَثَرُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْأِسْمُ هُوَ الْمُسْتَجْمَعُ لِجَمِيعِ الصِّفَاتِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ؛ لِأَنَّ الذَّاتَ الْمَخْصُوصَةَ هِيَ الْمَشْهُورَةُ بِالِاتِّصَافِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَمَا يَكُونُ عَلَمًا لَهَا دَالًّا عَلَيْهَا بِخُصُوصِهَا يَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ، لَا مَا يَكُونُ مَوْضُوعًا لِمَفْهُومٍ كُلِّيٍّ، وَإِنْ اخْتَصَّ فِي الِاسْتِعْمَالِ بِهَا كَالرَّحْمَنِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ لَفْظَ «الله» عَلَمٌ لِلذَّاتِ كَمَا هُوَ الْحَقُّ وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ، لَا الْمَفْهُومِ كَمَا زَعَمَهُ الْبَعْضُ.

6 - الأَعْمَالُ كُلُّهَا لِلَّهِ، خَلَقَ وَتَقَدَّرَ، وَعِلْمٌ وَإِرَادَةٌ، وَمَصْدَرٌ وَمَوْرِدٌ، وَتَصْرِيْفٌ وَتَكْلِيْفٌ؛ فقولُه: <الله>: اللام للاختصاص، والاستحقاق؛ و«الله» اسمُ ربنا عزَّ وجلَّ؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه. أي المعبود حباً، وتعظيماً..

7 - إذا دعوت الله بالرحمن فقد وصفته بالرحمة، وما وصفته بالقهر، وإذا دعوته بالعليم فقد وصفته بالعلم، وما وصفته بالقدرة، وأما إذا قلت: يا الله فقد وصفته بجميع الصفات؛ لأن الإله لا يكون إلهاً إلا إذا كان موصوفاً بجميع هذه الصفات، فثبت أن قولنا: «الله» قد حصلت له هذه الخاصية التي لم تحصل لسائر الأسماء.

8 - كلمة الشهادة - وهي الكلمة التي بسببها ينتقل الكافر من الكفر إلى الإسلام - لم يحصل فيها إلا هذا الاسم، فلو أن الكافر قال: أشهد أن لا إله إلا الرحمن أو إلا الرحيم، أو إلا الملك، أو إلا القدوس، لم يخرج من الكفر ولم يدخل في الإسلام، أما إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فإنه يخرج من الكفر ويدخل في الإسلام، وذلك يدل على اختصاص هذا الاسم بهذه الخاصية الشريفة، والله الهادي إلى الصواب.

9 - قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65] وأطبقوا على أن المراد منه لفظة «الله» أطبق جميع الخلق على أن قولنا: «الله» مخصوص بالله سبحانه وتعالى، وكذلك قولنا: «الإله» مخصوص به سبحانه وتعالى، وأما الذين كانوا يطلقون اسم الإله على غير الله فإنما

كانوا يذكرونه بالإضافة كما يقال: إله كذا.

10 - ما في ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من الالتفاتِ إلى الاسمِ الجليلِ ،
ووصفه بربوبيّة العالمين لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرّده باستحقاقِ
العبادة وربوبيته لجميع الموجودات. والبارئُ تعالى حميدٌ نفسه ،
وافتتح بحمده كتابه ، ولم يأذن في ذلك لأحدٍ من خلقه ، بل نهاهم في
مُحكَمِ كتابه ، فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

وَمَنَعَ بَعْضَ النَّاسِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ مَدْحَ بَعْضٍ لَهُ ، أَوْ يَرْكَنَ إِلَيْهِ ،
وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ ذَلِكَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «احْثُوا فِي أَفْوَاهِ الْمَدَّاحِينَ
التُّرَابَ» [رواه الإمام أحمد في مسنده] ، وَكَأَنَّ فِي مَدْحِ اللَّهِ لِنَفْسِهِ وَحَمْدِهِ
لَهَا وَجُوهًا ، مِنْهَا ثَلَاثُ أُمَّهَاتُ :

الأوّل: أَنَّهُ عَلَّمَنَا كَيْفَ نَحْمَدُهُ ، وَكَلَّفَنَا حَمْدَهُ وَالشَّانَاءَ عَلَيْهِ ؛ إِذْ لَمْ
يَكُنْ لَنَا سَبِيلٌ إِلَيْهِ إِلَّا بِهِ .

الثاني: أَنَّهُ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : مَعْنَاهُ : قُولُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، فَيَكُونُ
فَائِدَةٌ ذَلِكَ التَّكْلِيفَ لَنَا ، وَعَلَى هَذَا تُخْرَجُ قِرَاءَةٌ مِنْ قَرَأَ بِنَصْبِ الدَّالِ
فِي الشَّاذِّ مِنَ الْقِرَاءَاتِ .

الثالث: أَنَّ مَدْحَ النَّفْسِ إِنَّمَا نُهِيَ عَنْهُ لِمَا يُدْخِلُ عَلَيْهَا مِنَ الْعُجْبِ
بِهَا ، وَالتَّكْثُرِ عَلَى الْخَلْقِ مِنْ أَجْلِهَا ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ الْاِخْتِصَاصَ بِمَنْ
يَلْحَقُهُ التَّغْيِيرُ ، وَلَا يَجُوزُ مِنْهُ التَّكْثُرُ ، وَهُوَ الْمَخْلُوقُ ، وَوَجَبَ ذَلِكَ
لِلْخَالِقِ ؛ لِأَنَّهُ أَهْلُ الْحَمْدِ .

11 - قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي: إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً» [رواه الإمام أحمد في مسنده].

12 - مما يجب على كل مسلم أن يعلم: ما يجب لله تعالى، وما يستحيل عليه، وما يجوز:

أ - ما يجب لله تعالى: يجب لله تعالى جميع صفات الكمال، من الوجود والسمع والبصر والحياة والعلم والكلام والقدرة والإرادة، والوحدانية والقيام بالنفس، وتعني: أن الله تعالى غني عن العالمين، والمخالفة للحوادث، وتعني أن الله تعالى ليس كمثلته شيء، والقدّم، والبقاء.

ب - ويستحيل على الله تعالى جميع صفات النقص والعيوب والآفات، ويستحيل على الله تعالى وجود شريك معه، والضعف والعجز، والمشابهة لخلقه.

ج - ويجوز في حقه تعالى: جميع ما تقدم من الممكنات، أي سوى ما تقدم من الواجبات والمستحيلات.

13 - في تقسيم أسماء الله أن يقال: من أسماء الله ما يمكن ذكره

وحده، كقولنا: يا الله، يا رحمن، يا حي، يا حكيم، ومنها ما لا يكون كذلك، كقولنا: مميت، وضار، فإنه لا يجوز إفراده بالذكر، بل يجب أن يقال: يا محيي يا مميت، يا ضار يا نافع.

14 - قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ

يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. الإلحاد هو الانحراف أو التحريف.. والإلحاد في أسماء الله تعالى يقع على ثلاثة أوجه:

الأول: إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله، مثل أن الكفار كانوا يسمون الأوثان بآلهة، ومن ذلك أنهم سمو أصناماً لهم باللات والعزى والمناة، واشتقاق اللات من الإله، والعزى من العزيز، واشتقاق مناة من المنان. وكان مسيلمة الكذاب لقب نفسه بالرحمن.

والثاني: أن يسموا الله بما لا يجوز تسميته به، مثل تسمية من سماه أباً للمسيح، وقول جمهور النصارى: أب، وابن، وروح القدس، ومثل أن الكرامية يطلقون لفظ الجسم على الله سبحانه ويسمونه به، ومثل أن المعتزلة قد يقولون في أثناء كلامهم: لو فعل تعالى كذا وكذا لكان سفيهاً مستحقاً للذم، وهذه الألفاظ مشعرة بسوء الأدب.

قال علماء العقيدة: وليس كل ما صح معناه جاز إطلاقه باللفظ في حق الله، فإنه ثبت بالدليل أنه سبحانه هو الخالق لجميع الأجسام، ثم لا يجوز أن يقال: يا خالق الديدان والقروود والقردان، بل الواجب تنزيه الله عن مثل هذه الأذكار، وأن يقال: يا خالق الأرض والسموات، يا مقيل

العثرات ، يا راحم العبرات... إلى غيرها من الأذكار الجميلة الشريفة .
والثالث: أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه ولا يتصور مسماه ،
فإنه ربما كان مسماه أمراً غير لائق بجلال الله ، فهذه الأقسام الثلاثة
هي الإلحاد في الأسماء .

15 - ومن أسماء الله الحسنى: الذات ، ولا شك في جواز
إطلاقه عليه إذ يصدق على كل حقيقة أنها ذات الصفات ، أي صاحبة
الصفات القائمة بها ، ويؤيد ذلك ما روى أبو داود والنسائي عن أبي
هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبراهيم لم يكذب إلا في
ثلاث: ثنتين في ذات الله» .

16 - ومن أسماء الله الحسنى: لفظ «هو» وله أسرار عجيبة:
منها: أن العبد إذا قال: يا هو ، فكأنه يقول: ما للتراب ورب
الأرباب؟ وما المناسبة بين المتولد من النطفة والدم وبين الموصوف
بالأزلية والقدم؟ فهذا ينادي نداء الغائبين ويقول: يا هو .
ومنها: أنه إذا قال: يا هو ، فقد حكم على كل ما سوى الله تعالى
بأنه نفي محض ، لأنه لو حصل في الوجود شيئاً لكان قوله: «هو»
صالحاً لهما جميعاً فلا يتعين النداء .

ومنها: إذا قال: يا رحمن ، فكأنه يتذكر رحمته أو يطلب رحمته ،
وكذا إذا قال: يا كريم... وغيره من الصفات .

17 - اختلفوا في أسماء الله تعالى أتوقيفية هي أم لا؟ فمال بعضهم

إلى التوقيف لأننا نصف الله تعالى بكونه عالماً ولا نصفه بكونه طيباً وفتياً ومستيقناً، فلولا أن أسماءه توقيفية لوصف بمثلها وإن كان على سبيل التجوز.

18 - ورد في القرآن ألفاظ دالة على معانٍ لا يمكن إثباتها بالحقيقة

في حق الله تعالى، منها: الاستهزاء ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 15] والاستهزاء مذموم لكونه جهلاً ﴿قَالُوا أَنَّنَا نَحْنُ هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: 67]، ومنها المكر ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 54]، ومنها الغضب ﴿وَعَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: 6]، ومنها التعجب ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

19 - بين الخلق وبين أسماء الله تعالى مناسبات عجيبة، والنفوس

مختلفة والجنسية علة الضم، فكل اسم يغلب معناه على بعض النفوس فإذا واظب صاحبه على ذلك الاسم كان انتفاعه به أسرع والله الموفق.

حكي أن الشيخ أبا النجيب البغدادي كان يأمر المريـد بدخول خلوة الأربعين مرة أو مرتين بقدر ما يرى مصلحته فيه، ثم يقرأ عليه الأسماء التسعة والتسعين، وأي اسم من أسمائه تعالى انشرح له صدر المريـد يأمره بالمداومة عليه، ويرى أن فتحه من هذا الاسم.

20 - جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «وَهُوَ وَتَرٌّ يُحِبُّ الْوَتَرَ».

معنى: من أحصاها دخل الجنة:

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْإِسْفَرَايِينِيُّ قَوْلَهُ: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» يُرِيدُ مَنْ عَلِمَهَا، وَذَكَرَ أَنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ ثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ اسْمًا لِلذَّاتِ، وَثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ اسْمًا لِصِفَاتِ الذَّاتِ، وَثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعِينَ اسْمًا لِلْفِعْلِ».

قال النووي: اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه تعالى، فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه، بل المراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء، وقد جاء عدُّ هذه الأسماء في جامع الترمذي وغيره.

وقال المناوي: (من أحصاها) أي: حفظها أو أطاق القيام بحقها أو أحاط بمعناها أو عمل بمقتضاها (دخل الجنة) مع السابقين الأولين أو بدون عذاب، وليس في الخبر ما يفيد الحصر.

وقال أيضاً: (من أحصاها) أي من قرأها كلمة كلمة مرتلة كأنه يعدّها (دخل الجنة) يعني من أتى عليها حصراً وتعداداً وعلماً وإيماناً فدعا الله بها وأثنى عليه استحق بذلك دخولها.

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: فِيهِ خَمْسَةٌ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: مَنْ اسْتَوْفَاهَا حِفْظًا.

وَالثَّانِي: مَنْ أَطَاقَ الْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهَا مِثْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ سَمِعَ فَكَفَّ لِسَانَهُ عَنِ الْقَبِيحِ.

وَالثَّلَاثُ: مَنْ عَقَلَ مَعَانِيهَا.

وَالرَّابِعُ: مَنْ أَحْصَاهَا عِلْمًا وَإِيمَانًا.

وَالخَامِسُ: أَنَّ الْمَعْنَى مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى يَخْتِمَهُ لِأَنَّهَا فِيهِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: الْمَرْجُوُّ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِحْصَاءُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ عَلَى أَحَدِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ، مَعَ صِحَّةِ النِّيَّةِ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَكَأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى إِرَادَةِ الْمَعَانِي كُلِّهَا مِنَ الْمُشْتَرَكِ لَا بِشَرْطِ الْاجْتِمَاعِ بَلْ عَلَى الْبَدَلِيَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَالْمُحَقِّقُونَ عَلَى أَنَّ مَعْنَى «أَحْصَاهَا» أَي حَفِظَهَا.

قال الفقير: أي من حفظها، وفهم معانيها ومدلولها، وأثنى على الله بها، وسأله بها، واعتقدها دخل الجنة. والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون. فعلم أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان، وقوته وثباته. ومعرفة الأسماء الحسنى بمراتبها الثلاث: إحصاء ألفاظها وعددها، وفهم معانيها ومدلولها، ودعاء الله بها دعاء الثناء والعبادة، ودعاء المسألة - وهي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها، لأن معرفتها تتضمن حقيقة التوحيد الكامل.

21 - سرد أسماء الله الحسنى:

جاء في شعب الإيمان للبيهقي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، إِنَّهُ وَتُرُّ يُحِبُّ الْوَتْرَ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،

الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيَّمِنُ،
 الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْغَفَّارُ، الْقَهَّارُ،
 الْوَهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الْفَتَّاحُ، الْعَلِيمُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ،
 الرَّافِعُ، الْمُعِزُّ، الْمُدِلُّ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكَمُ، الْعَدْلُ، اللَّطِيفُ،
 الْخَبِيرُ، الْحَلِيمُ، الْعَظِيمُ، الْغَفُورُ، الشَّكُورُ، الْعَلِيُّ، الْكَبِيرُ، الْحَنِيفُ،
 الْمُقِيتُ، الْحَسِيبُ، الْجَلِيلُ، الْكَرِيمُ، الرَّقِيبُ، الْمُجِيبُ، الْوَاسِعُ،
 الْحَكِيمُ، الْوَدُودُ، الْمَجِيدُ، الْبَاعِثُ، الشَّهِيدُ، الْحَقُّ، الْوَكِيلُ، الْقَوِيُّ،
 الْمُتِينُ، الْوَلِيُّ، الْحَمِيدُ، الْمُخْصِي، الْمُبْدِيُّ، الْمُعِيدُ، الْمُخْبِي،
 الْمُمِيتُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْمَاجِدُ، الْوَاجِدُ، الْوَاحِدُ، الْأَحَدُ، الصَّمَدُ،
 الْقَادِرُ، الْمُقْتَدِرُ، الْمُقَدِّمُ، الْمُؤَخِّرُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الظَّاهِرُ، الْبَاطِنُ،
 الْوَالِي، الْمُتَعَالِي، الْبَرُّ، التَّوَّابُ، الْمُنتَقِمُ، الْغَفُورُ، الرَّؤُوفُ، مَالِكُ
 الْمُلْكِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، الْمُقْسِطُ، الْجَامِعُ، الْغَنِيُّ، الْمُغْنِي،
 الرَّافِعُ، الْمَانِعُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، الثَّورُ، الْهَادِي، الْبَدِيعُ، الْبَاقِي،
 الْوَارِثُ، الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ» .

22 - شرح مبسط لبعض لأسماء الله الحسنى كما ذكره الإمام البيهقي

في «شعب الإيمان»:

بَيَانُ مَعَانِي أَسْمَاءِ الذَّاتِ: اللهُ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا: أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى
 الْخَلْقِ، وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ الْعَالِبُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَأَنَّهُ
 الْقَاهِرُ الَّذِي لَا يُقَهَّرُ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ التَّكْلِيفُ إِلَّا مِنْهُ .

الْمَلِكُ: وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يُعَزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ
 الْإِذْلَالَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ الْمَمْلُوكُ السَّالِبُ، الْمُمْكِنُ الْمَانِعُ،
 النَّافِعُ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُؤَلِّي وَيَعَزِلُ، وَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْعَزْلُ
 وَالسَّلْبُ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْعِزِّ، وَالسُّلْطَانِ، لَا يُشَارِكُهُ
 أَحَدٌ فِي مَعْنَاهُ.

الْقُدُّوسُ: وَلَهُ مَعَانٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْبَرِيُّ عَنِ الْمَعَايِبِ، وَالشَّرَكَاءِ،
 وَالْأَنْدَادِ، وَالْأَضْدَادِ وَمِنْهَا: أَنَّ لَهُ الْكَمَالَ فِي كُلِّ وَصْفٍ يَخْتَصُّ بِهِ،
 وَمِنْهَا: أَنَّ تَطْهِيرَ غَيْرِهِ مِنَ الْعُيُوبِ إِلَيْهِ، وَمِنْهَا: أَنَّ الْأَوْهَامَ لَا تُدْرِكُهُ
 بِالتَّحْدِيدِ، وَالْأَبْصَارَ لَا تُدْرِكُهُ بِالتَّصْوِيرِ.

السَّلَامُ: وَلَهُ مَعَانٍ: مِنْهَا: أَنَّ السَّلَامَةَ بِهِ وَمِنْهُ، وَمِنْهَا: أَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ
 سَلِمَ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ سَلِيمٌ مِنَ النَّقَائِصِ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ يَسْلَمُ مِنْهُ مَنْ عَبَدَهُ عَلَى
 تَحْقِيقِ الْمُرَادِ.

الْمُؤْمِنُ: وَلَهُ مَعَانٍ: مِنْهَا: أَنَّ الْهُدَى وَالْإِيمَانَ إِلَيْهِ، وَمِنْهَا: أَنَّ
 التَّصْدِيقَ، وَالتَّكْذِيبَ بِهِ، وَمِنْهَا: أَنَّ الْحَقَائِقَ تَنْكَشِفُ لَدَيْهِ، وَمِنْهَا: أَنَّ
 الْأَمْرَ يُؤْخَذُ مِنْهُ، وَمِنْهَا: أَنَّ الْقَوْلَ قَوْلُهُ، لَا خِلَافَ عَلَيْهِ، وَمِنْهَا:
 اسْتِحَالَةُ الزَّوَالِ عَلَيْهِ، وَمِنْهَا: تَعَذُّرُ الْمُنَازَعَةِ لَهُ.

الْمُهَيَّمِنُ: وَهُوَ مِنْ أَسَامِي الْكَمَالِ يَجْمَعُ أَوْصَافَ الْفَضْلِ، وَيَنْقُضُ
 أَوْصَافَ النَّقْصِ، كَأَنَّ الْكَمَالَ الَّذِي لَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الزَّوَالُ، تَدْخُلُ فِيهِ
 الشَّهَادَةُ، وَالْحِفْظُ، وَالْعَطَاءُ، وَالْمَنْعُ، وَالِاخْتِصَاصُ بِهِ عَنِ الْغَيْرِ.

الْعَزِيزُ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يِرَامُ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يَخَالَفُ فِي الْمُرَادِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يُخَوِّفُ بِالتَّهْدِيدِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يَحْطُّ عَنِ الْمَنْزِلَةِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يُعَذِّبُ مَنْ أَرَادَ، وَمِنْهَا أَنَّهُ مَلْجَأُ الْهَارِبِينَ، وَمِنْهَا أَنَّ إِلَيْهِ مَطَالِبُ الْمُرِيدِينَ، وَمِنْهَا أَنَّ عَلَيْهِ طَرِيقَ الْمَارِقِينَ، وَمِنْهَا أَنَّ عَلَيْهِ ثَوَابَ الْعَامِلِينَ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ لَهُ مِثْلٌ، وَأَنَّهُ لَا يُحَدُّ بِحَدٍّ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ عَلَيْهِ نَقْصٌ.

الْجَبَّارُ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَحْنُو عِنْدَ التَّعْذِيبِ، وَلَا يُشْفِقُ عِنْدَ الْبُذْلِ، إِذَا أُعْطِيَ أُعْطِيَ عَنْ سَعَةٍ، وَإِذَا مَنَعَ مَنَعَ عَنْ قُدْرَةٍ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يَكْتَرِثُ بِالنَّاكِبِينَ، وَلَا يَفْرَحُ بِالمُخْلِصِينَ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يَتَمَنَّى مَا لَا يَكُونُ، وَلَا يَتَلَهَّفُ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يُنَاقِشُ فِي الْفِعْلِ، وَلَا يُطَالِبُ بِالْعِلَّةِ، وَلَا يُحْجِرُ عَلَيْهِ فِي مَقْدُورِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ بَتَّةً، وَأَنَّهُ يَذِلُّ عِنْدَ عِزَّتِهِ الْأَعْزَاءِ، وَيَشْرَفُ عِنْدَ تَقَرُّبِهِ الْأَدْلَاءِ.

الْمُتَكَبِّرُ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُ لَا مِقْدَارَ لَشَيْءٍ عِنْدَهُ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ اللَّوْمُ، وَلَا يَصِحُّ فِيهِ الْعِقَابُ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ لِلنَّفْعِ، وَلَا يَخْتَرَعُ لِلدَّفْعِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْمِنَّةُ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَلَا يُلْزَمُهُ الثَّوَابُ عَنِ الْمُتَابَعَةِ، وَأَنَّهُ لَا يَشْرَفُ بِالِاتِّبَاعِ، وَلَا يَنْحَطُّ بِالِاعْتِدَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَأْمُرُ لِفَائِدَةٍ، وَلَا يَنْهَى لِعَائِدَةٍ.

الْعَلِيُّ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُ عَلِيٌّ عَنِ الْمَالِكِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّاهِي وَالتَّهْدِيدِ، وَالرَّسْمِ، وَالْمَنْعِ، وَالْإِيجَابِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ عَلِيٌّ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى الْخَلَائِقِ وَالْخَلْقِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَلَا يُحَاسَبُ عَلَى

مَا يَتَّبِعُ .

الْعَظِيمُ: وَلَهُ مَعَانٍ: مِنْهَا أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ التَّحْدِيدُ، وَالْمَسَاحَةُ،
وَمِنْهَا نَفْيُ الْكثَافَةِ وَالرَّقَّةِ، وَمِنْهَا وُجُوبُ التَّذَلُّلِ وَالْحُضُوعِ عِنْدَ الطَّاعَةِ .
الْجَلِيلُ: وَلَهُ مَعَانٍ: مِنْهَا أَنَّهُ يَجِلُّ عَنْ أَنْ يَجُوزَ عَلَيْهِ مَا دَلَّ عَلَى
الْحُدُوثِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يَجِبُ الْإِنْقِيَادُ لَهُ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يَجِلُّ إِلَّا مَنْ رَفَعَهُ .
الْكَبِيرُ: وَلَهُ مَعَانٍ: وَهِيَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْمِقْدَارُ وَالتَّقْدِيرُ، وَلَا يَرُدُّ
عَلَيْهِ فِي التَّدْبِيرِ، وَلَا يُخَالَفُ فِي الْأُمُورِ .

الْحَمِيدُ: وَلَهُ مَعَانٍ مَحْمُودَةٌ، وَلَهُ صِفَاتُ الْمَدْحِ، وَالْكَمَالِ .
الْمَجِيدُ: وَلَهُ مَعَانٍ: مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَسَاوَى فِيمَا لَهُ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ،
وَمِنْهَا أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْجَلَالِ، وَالْكَبْرِيَاءِ وَالْعِزِّ، وَمِنْهَا أَنَّ الَّذِي يُفِيدُ مِنْ
أَوْصَافِ الْمَدْحِ لِعَظِيمِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِهِ .

الْحَقُّ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا أَلَّا يُمَكِّنَ رَدَّهُ وَلَا يَصِحَّ دَفْعُهُ، وَلَا يُوصَفُ
بِالْقُدْرَةِ عَلَى مَا يُوجِبُ ذَمَّهُ، وَمِنْهَا الْمُبِينُ لِخَلْقِهِ مَا أَرَادَهُمْ لَهُ .

الْمُبِينُ: وَلَهُ مَعَانٍ: مِنْهَا أَنَّهُ بَيْنٌ لِذَوِي الْعُقُولِ، وَمِنْهَا أَنَّ الْفُضْلَ
يَقَعُ بِهِ، وَمِنْهَا أَنَّ التَّحْقِيقَ وَالتَّمْيِيزَ إِلَيْهِ، وَمِنْهَا أَنَّ الْهِدَايَةَ بِهِ .

الْوَاحِدُ: وَلَهُ مَعَانٍ: مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّبَعِيضُ، وَلَا يَجُوزُ
عَلَيْهِ التَّشْبِيهُ، وَلَا يَصِحُّ الْخُرُوجُ مِنْ مُلْكِهِ، وَلَا حَدٌّ لِسُلْطَانِهِ .

الْمَاجِدُ: وَلَهُ مَعَانٍ: مِنْهَا الْإِرْتِفَاعُ، وَالْعُلُوُّ عَلَى الْمُبَالِغَةِ، وَمِنْهَا
التَّقْرِيبُ عَلَى حَسَبِ الْمَشِيئَةِ، وَمِنْهَا الْاِخْتِصَاصُ بِالْوِلَايَةِ وَالتَّوَلِيَةِ .

الصَّمَدُ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَتَجَزَّأُ فِي الْوَهْمِ، وَمِنْهَا أَنَّ الْكَوْنَ وَالْأَحْوَالَ مِنْهُ تُطْلَبُ.

الأَوَّلُ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يُكَافَأُ عَلَى النِّعْمَةِ، وَالْبَلِيَّةِ، وَلَا يُسْبَقُ بِالْفِعْلِ.

الآخِرُ: وَمَعْنَاهُ الدَّائِمُ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ.

الظَّاهِرُ: وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَصِحُّ إِدْرَاكُهُ بِالْأَدِلَّةِ عَلَى الْقَطْعِ وَالْيَقِينِ.

الْبَاطِنُ: وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُدْرِكُ بِاللَّمْسِ، وَالشَّمِّ، وَالذُّوقِ، وَأَنَّهُ يَقِفُ عَلَى الْخَفِيَّاتِ.

الْمُتَعَالِ: وَلَهُ مَعَانٍ أَحَدُهَا أَنَّهُ تَعَالَى عَنِ أَنْ يُطَاقَ، وَالثَّانِي أَنَّهُ تَعَالَى عَنِ الزَّوَالِ بِالذَّاتِ وَالصِّفَةِ، وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ تَعَالَى عَنِ الْحَاجَةِ.

الْغَنِيِّ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْقُدْرَةِ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى دِعَامَةٍ، أَوْ عِلَاقَةٍ، وَأَنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ حُدُوثُ شَيْءٍ إِلَّا يَصِحُّ مِنْهُ بِمَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ عَلَى اسْتِحْدَاثِ حُكْمٍ.

النُّورُ: وَلَهُ مَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى أَوْلِيَائِهِ بِالذَّلِيلِ، وَلَا يَصِحُّ إِدْرَاكُهُ بِالْأَبْصَارِ، وَيُظَهَرُ لِكُلِّ ذِي لُبٍّ بِالْعَقْلِ.

ذُو الْجَلَالِ: وَمَعْنَاهُ الْمُخْتَصُّ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ الْأَوْصَافِ، وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ السَّيِّدُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَالِكٌ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وَأَنَّهُ مُتَفَرِّدٌ بِالْإِبْجَادِ.

المَوْلَى: وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يُغَيِّرُ مَا شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ.

الْأَحَدُ: وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الْإِتِّصَالُ وَالْمُمَاسَّةُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّقْصَانُ وَالزِّيَادَةُ.

الْفُرْدُ: وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا تَصِحُّ لَهُ الزَّوْجَةُ وَالْوَلَدُ.

الْوَتْرُ: وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُعَدُّ فِي الْمَعْدُودَاتِ بِالْمَعْنَى، وَتَحْقِيقُهُ أَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِصِفَةٍ يَصِحُّ وَصْفُ غَيْرِهِ بِهَا إِلَّا وَلَهُ اخْتِصَاصٌ وَمُبَايَنَةٌ.

أَسَامِي صِفَاتِ الذَّاتِ: فَمِنْ أَسَامِي صِفَاتِ الذَّاتِ:
الْقَاهِرُ: وَمَعْنَاهُ الْعَالِبُ.

الْقَهَّارُ وَمَعْنَاهُ: الَّذِي لَا يُقَهَّرُ وَلَا يُغْلَبُ.

الْقَوِيُّ وَمَعْنَاهُ الْمُتَمَكِّنُ مِنْ كُلِّ مُرَادٍ.

الْمُقْتَدِرُ: وَمَعْنَاهُ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ عَنِ الْمُرَادِ.

الْقَادِرُ: وَمَعْنَاهُ إِثْبَاتُ الْقُدْرَةِ.

ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ: وَمَعْنَاهُ نَفْيُ النَّهْيَةِ فِي الْقُدْرَةِ وَتَعْمِيمُ الْمَقْدُورَاتِ.

وَرُوي فِي بَعْضِ الْأَثَارِ: الْعَلَّابُ: وَمَعْنَاهُ يُكْرَهُ عَلَى مَا يُرِيدُ وَلَا يُكْرَهُ عَلَى مَا يُرَادُ.

وَمِنْ أَسَامِي صِفَاتِ الذَّاتِ مَا هُوَ لِلْعِلْمِ وَمَعْنَاهُ:

فَمِنْهَا الْعَلِيمُ: وَمَعْنَاهُ تَعْمِيمُ الْمَعْلُومَاتِ.

وَمِنْهَا الْخَبِيرُ وَيَخْتَصُّ بِأَنْ يَعْلَمَ مَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ.

وَمِنْهَا الْحَكِيمُ: وَيَخْتَصُّ بِأَنْ يَعْلَمَ دَقَائِقَ الْأَوْصَافِ.

وَمِنْهَا الشَّهِيدُ: وَيَخْتَصُّ بِأَنْ يَعْلَمَ الْغَائِبَ وَالْحَاضِرَ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا

يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ.

وَمِنْهَا الْحَافِظُ: وَيَخْتَصُّ بِأَنَّهُ لَا يَنْسَى مَا عَلِمَ.

وَمِنْهَا الْمُحْصِي: وَيَخْتَصُّ بِأَنَّهُ لَا تَشْغَلُهُ الْكَثْرَةُ عَنِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ
مِثْلُ ضَوْءِ النَّورِ، وَاشْتِدَادِ الرِّيحِ، وَتَسَاقُطِ الْأُورَاقِ، فَيَعْلَمُ عِنْدَ ذَلِكَ
عَدَدَ أَجْزَاءِ الْحَرَكَاتِ فِي كُلِّ وَرَقَةٍ، وَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهَا؟

وَقَدْ قَالَ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: 14]؟

وَمِنْ أَسْمَاءِ صِفَاتِ الذَّاتِ مَا يَعُودُ إِلَى الْإِرَادَةِ:

فَمِنْهَا الرَّحْمَنُ: وَهُوَ الْمُرِيدُ لِرِزْقِ كُلِّ حَيٍّ فِي دَارِ الْبُلُوَى
وَالْإِمْتِحَانِ.

وَمِنْهَا الرَّحِيمُ: وَذَلِكَ الْمُرِيدُ لِإِنْعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

وَمِنْهَا الْغَفَّارُ: وَهُوَ الْمُرِيدُ لِإِزَالَةِ الْعُقُوبَةِ بَعْدَ الْإِسْتِحْقَاقِ.

وَمِنْهَا الْوَدُودُ: وَهُوَ الْمُرِيدُ لِلْإِحْسَانِ إِلَى أَهْلِ الْوِلَايَةِ.

وَمِنْهَا الْعَفُوفُ: وَهُوَ الْمُرِيدُ لِتَسْهِيلِ الْأُمُورِ عَلَى أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ.

وَمِنْهَا الرَّؤُوفُ: وَهُوَ الْمُرِيدُ لِلتَّخْفِيفِ عَنِ الْعِبَادِ.

وَمِنْهَا الصَّبُورُ: وَهُوَ الْمُرِيدُ لِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ.

وَمِنْهَا الْحَلِيمُ: وَهُوَ الْمُرِيدُ لِإِسْقَاطِ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَمِنْهَا الْكَرِيمُ: وَهُوَ الْمُرِيدُ لِتَكْثِيرِ الْخَيْرَاتِ عِنْدَ الْمُحْتَاجِ.

وَمِنْهَا الْبَرُّ: وَهُوَ الْمُرِيدُ لِإِعْزَازِ أَهْلِ الْوِلَايَةِ.

وَمِنْهَا مَا يَرْجِعُ إِلَى الْبَقَاءِ وَهُوَ الْبَاقِي. وَفِي مَعْنَاهُ الْوَارِثُ الَّذِي

يَبْقَى بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ .

وَمِنْهَا مَا يَرْجَعُ إِلَى الْكَلَامِ وَهُوَ الشُّكُورُ .
وَمِنْهَا الْخَالِقُ: وَيَخْتَصُّ بِاخْتِرَاعِ الشَّيْءِ .
وَمِنْهَا الْبَارِيُّ: وَيَخْتَصُّ بِاخْتِرَاعِهِ عَلَى الْحُسْنِ .
وَمِنْهَا الْمُصَوِّرُ: وَيَخْتَصُّ بِأَنْوَاعِ التَّرْكِيبِ .
وَمِنْهَا الْوَهَّابُ: وَيَخْتَصُّ بِكَثْرَةِ الْعَطِيَّةِ وَاسْتِحَالَةِ وُرُودِ مَا يَحْجُزُهُ
عَنْهُ .

وَمِنْهَا الرَّزَاقُ: وَيَخْتَصُّ بِعَطِيَّةِ مَا يَقُوتُ وَيُدْفَعُ التَّلَفَ .
وَمِنْهَا الْفَتَّاحُ: وَيَخْتَصُّ بِتَيْسِيرِ مَا عَسَرَ .
وَمِنْهَا الْقَابِضُ: وَيَخْتَصُّ بِالسَّلْبِ .
وَمِنْهَا الْبَاسِطُ: وَيَخْتَصُّ بِالتَّوْسِعَةِ فِي الْمَنْحِ .
وَمِنْهَا الْخَافِضُ: وَيَخْتَصُّ بِإِذْلَالِ الْجَاحِدِينَ .
وَمِنْهَا الرَّافِعُ: وَيَخْتَصُّ بِإِعْطَاءِ الْمَنَازِلِ .
وَمِنْهَا الْمُعِزُّ: وَيَخْتَصُّ بِتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ .
وَمِنْهَا الْمُذِلُّ: وَيَخْتَصُّ بِالْحَطِّ .
وَمِنْهَا الْحَكَمُ: وَيَخْتَصُّ بِأَنْ يَفْعَلَ مَا يُرِيدُ .
وَمِنْهَا الْعَدْلُ: وَيَخْتَصُّ بِأَلَّا يَقْبَحَ مِنْهُ مَا يَفْعَلُ .
وَمِنْهَا اللَّطِيفُ: وَيَخْتَصُّ بِدَقَائِقِ الْأَفْعَالِ .
وَمِنْهَا الْحَفِيفُ: وَيَخْتَصُّ بِأَلَّا يَشْغَلَهُ دَفْعٌ عَنْ دَفْعٍ .

ومنها الْمُقَيَّتُ: وَيَخْتَصُّ بِأَلَا يَشْغَلُهُ فِعْلٌ بَلِيَّةٍ عَنِ بَلِيَّةٍ .
ومنها الْحَسِيبُ: وَيَخْتَصُّ بِأَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنِ شَأْنٍ .
ومنها الرَّقِيبُ: وَيَخْتَصُّ بِأَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنِ شَأْنٍ .
ومنها الْمُجِيبُ: وَيَخْتَصُّ بِالْبَدَلِ عِنْدَ الْمَسْأَلَةِ .
ومنها الْوَاسِعُ: وَيَخْتَصُّ بِأَلَا يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ عَطِيَّةٌ .
ومنها الْبَاعِثُ: وَيَخْتَصُّ بِالْحَشْرِ .
ومنها الْوَكِيلُ: وَيَخْتَصُّ بِكِفَالَةِ الْخَلْقِ .
ومنها الْمُبْدِيُّ: وَيَخْتَصُّ بِإِبْتِدَاءِ التَّفْضُلِ .
ومنها الْمُعِيدُ: وَيَخْتَصُّ بِالْإِعَادَةِ ،
ومنها الْمُحْيِي: وَيَخْتَصُّ بِخَلْقِ الْحَيَاةِ .
ومنها الْأُمَمِيَّتُ: وَيَخْتَصُّ بِخَلْقِ الْمَوْتِ .
ومنها الْقَيُّومُ: وَيَخْتَصُّ بِإِدَامَةِ الْخَلْقِ عَلَى الْأَوْصَافِ .
ومنها الْوَاجِدُ: وَيَخْتَصُّ بِوُجُودِ مَا يُرِيدُ .
ومنها الْمُقَدِّمُ: وَيَخْتَصُّ بِتَقْدِيمِ مَا يُرِيدُ .
ومنها الْمُؤَخَّرُ: وَيَخْتَصُّ بِتَأْخِيرِ مَا يُرِيدُ .
ومنها الْوَلِيُّ: وَيَخْتَصُّ بِحِفْظِ أَهْلِ الْوِلَايَةِ .
ومنها التَّوَابُ: وَيَخْتَصُّ بِخَلْقِ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ .
ومنها الْمُنتَقِمُ: وَيَخْتَصُّ بِعِقَابِ النَّاكِثِينَ .
ومنها الْمُقْسِطُ: وَيَخْتَصُّ بِفِعْلِ الْعَدْلِ .

- ومنها الْجَامِعُ: وَيَخْتَصُّ بِجَمْعِ الْخُصُومِ وَالْإِنْصَافِ .
ومنها الْمُعْنِي: وَيَخْتَصُّ بِإِزَالَةِ النَّقَائِصِ وَالْحَاجَاتِ .
ومنها النَّافِعُ: وَيَخْتَصُّ بِخَلْقِ اللَّذَاتِ .
ومنها الْهَادِي: وَيَخْتَصُّ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ .
ومنها الْبَدِيعُ: وَيَخْتَصُّ بِاسْتِحَالَةِ الْمُشَارَكَةِ لَهُ فِي الْخَلْقِ .
ومنها الرَّشِيدُ: وَيَخْتَصُّ بِإِصَابَةِ الْمَقْصُودِ .
ومنها مَالِكُ الْمُلْكِ: وَيَخْتَصُّ بِالتَّبْدِيلِ .

*** ** **

تفسير قوله تعالى

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وفيه سبع عشرة مسألة:

1 - أخرج مالك وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لِعَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سأل».

قال رسول الله ﷺ يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول الله: حمدني عبدي.

يقول العبد: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ . يقول الله: أثنى عليَّ عبدي .

يقول العبد: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . يقول الله: مجدني عبدي .

يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، فهذه الآية بيني وبين عبدي ، ولِعَبْدِي ما سأل .

يقول العبد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾  صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ . فهؤلاء لِعَبْدِي ، ولِعَبْدِي ما سأل .

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا بن

آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تُعِدْنِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تُعِدَّهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا بَنَ آدَمَ، اسْتَطَعْمَتَكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعْمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا بَنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟» رواه مسلم .

في إجراء هذه الأوصاف: «رب العالمين» «الرحمن الرحيم» «مالك يوم الدين» بعد ذكر اسم الذات «الله» الجامع لصفات الكمال إشارة إلى أن الذي يحمده الناس ويعظمونه إنما يكون حمده وتعظيمه لأحد أمور أربعة: إما لكونه كاملاً في ذاته وصفاته وإن لم يكن منه إحسان إليهم، وإما لكونه محسناً إليهم ومتفضلاً عليهم، وإما لأنهم يرجون لطفه وإحسانه في الاستقبال، وإما لأنهم يخافون من كمال قدرته . فهذه هي الجهات الموجبة للحمد والتعظيم، فكأنه سبحانه يقول: يا عبادي إن كنتم تحمدون وتعظمون للكمال المتمثل في ذات الله وصفاته، فاحمدوني فإني أنا الله، وإن كنتم تعظمون للإحسان السالف والتربية والإنعام فإني أنا رب العالمين، وإن كان للرجاء المترقب والطمع في المستقبل فإني أنا الرحمن الرحيم، وإن كان للخوف والرهبة فإني أنا مالك يوم الدين .

2 - «رَبٌّ» وهو اسم الله تعالى . والرُّبُوبِيَّةُ ، وعِلْمُ رُبُوبِيَّةٍ : نسبة إلى الرَّبِّ تعالى على غير قياس . وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ : مالِكُهُ ومُسْتَحَقُّهُ وصاحِبُهُ ، والجمع : أرباب ورُبُوب . وكان من حقه ألاَّ يُجمع إذ كان إطلاقه لا يتناول إلاَّ الله تعالى ، لكن أتى بلفظ الجمع في قوله : ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ على حسب اعتقاداتهم ، لا على ما عليه ذاتُ الشيء في نفسه .

والرَّبَّانِي : المتألَّه العارف بالله عزَّ وجلَّ ، أو منسوب إلى الربِّ تعالى ، فهو كقولهم : إلهيَّ ، أو هو لفظة سريانيَّة .
وأصل الرَّبِّ ، التَّربِيَّة : وهي إنشَاءُ شَيْءٍ حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام ، يقول : رَبَّهُ وربَّاه وربَّبه ، ولا يقال «الربِّ» مطلقاً إلاَّ لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات ، قال تعالى : ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا﴾ أي آلهة ، وتزعمون أنها الباري تعالى مسبب الأسباب والمتولي لمصالح العباد .

وبالإضافة يقال لله تعالى ولغيره نحو ربِّ العالمين ، وربِّ الدَّار . وقوله : ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ قيل : إنه عنى به الله تعالى ، وقيل : عنى به المَلِكُ الذي ربَّاه ، والأول أليق بقوله .

3 - قال الإمام الألوسي في روح المعاني (147/3) : الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية ، وهي تبليغ الشيء إلى كماله بحسب استعداده الأزلي شيئاً فشيئاً ، وكأنها من ربا الصغير كعلا إذا نشأ ، ويطلق

أيضاً على الخالق والسيد والملك والمنعم والمصلح والمعبود والصاحب، إلا أن المشهور كونه بمعنى التربية، لأن التربية أجل النعم بالنسبة إلى المنعم عليه، وأدل على كمال فعله تعالى وقدرته وحكمته، تدلك على ذلك الآثار وما فيها من الأسرار، وكره بعضهم إطلاقه مقيداً بالإضافة إلى عاقل كرب العبد لإيهام الاشتراك، وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اسْقِ رَبِّكَ، أَطْعِمِ رَبِّكَ، وَضِعْ رَبِّكَ؛ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: رَبِّي، وَلَيَقُلْ: سَيِّدِي، مَوْلَايَ» وأجابوا عن قول يوسف عليه السلام: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 50] و﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ [يوسف: 23] ونحوه بأنه مثل: ﴿وَخَرُّوْا لَهُ سُجْدًا﴾ [يوسف: 100] مخصوص جوازه بزمانه.

4 - قال الشيخ أبو السعود في تفسيره (10/1): وأما شمول ربوبيته عز وجل لكل فمما لا حاجة إلى بيانه، إذ لا شيء مما أحدق به نطاق الإمكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات والجسمانيات إلا وهو في حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه آنأ واحداً لما استقر له القرار، ولا اطمأنت به الدار، إلا في مطمورة العدم ومهاوي البوار، لكن يُفِيضُ عليه من الجنب الأقدس، تعالى شأنه وتقدس، في كل زمانٍ يمضي، وكل أن يمر وينقضي، من فنون الفيوض المتعلقة بذاته، ووجوده وصفاته وكمالاته، مما لا يحيطُ به فلكُ التعبير، ولا يعلمه إلا العليم الخبير.

وبالجمله فآثارُ تربيتِه عز وجل الفائضه على كل فرد من أفراد الموجودات في كل آنٍ من آنات الوجود غيرُ متناهية، فسبحانه ما أعظم شأنه! لا تلاحظه العيونُ بأنظارها، ولا تطالعُه العقولُ بأفكارها، شأنه لا يُضاهى، وإحسانه لا يتناهى، ونحن في معرفته حائرُونَ، وفي إقامة مراسم شكره قاصرون، نسألك اللهم الهدايةَ إلى مناهج معرفتك، والتوفيقَ لأداء حقوقِ نعمتك، لا نُحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

على أن جمع القلة كثيراً ما يوصله المقام إلى جمع الكثرة، على أن بعض المحققين المحققين من أرباب العربية ذهب إلى أن الجمع المذكور السالم صالح للقلة والكثرة، فاختر لنفسك ما يحلو.

قال الإمام الآلوسي في تفسيره (54/1): وقد أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى حضرة الربوبية التي هي مقام العارفين، وهي اسم للمرتبة المقتضية للأسماء التي تطلب الموجودات، فدخل تحتها العليم والسميع والبصير والقيوم والمريد والملك وما أشبه ذلك، لأن كل واحد من هذه الأسماء والصفات يطلب ما يقع عليه، فالعليم يقتضي معلوماً، والقادر مقدوراً والمريد مراداً... إلى غير ذلك.

والأسماء التي تحت اسم الرب هي الأسماء المشتركة بين الحق والخلق، والأسماء المختصة بالخلق اختصاصاً تأثيرياً، فمن القسم الأول:

- العليم مثلاً فإن له وجهين: وجه يختص بالجناب الإلهي ومنه يقال: يعلم نفسه ، ووجه ينظر إلى المخلوقات ومنه يقال: يعلم غيره .
ومن القسم الثاني: الخالق ونحوه من الأسماء الفعلية ، فله وجه واحد ، ومنه يقال: خالق للموجودات ، ولا يقال: خالق لنفسه ، تعالى عن ذلك . وهذا القسم من الأسماء تحت اسمه الملك ، ومنه يظهر الفرق بينه وبين الرب .

وأما الفرق بين الرب والرحمن فهو أن الرحمن عندهم اسم لمرتبة اختصت بجميع الأوصاف العلية الإلهية ، سواء انفردت الذات به كالعظيم والفرد ، أو حصل الاشتراك أو الاختصاص بالخلق كالقسمين المتقدمين ، فهو أكثر شمولاً من الرب ، ومن مرتبة الربوبية ينظر الرحمن إلى الموجودات .

5 - تضمنت سورة الفاتحة إثبات النبوات من جهات عديدة ، منها:

أ - كونه رب العالمين ، فلا يليق به أن يترك عباده سدًى هملاً لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما ، فهذا هضم للربوبية ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به ، وما قدره حق قدره من نسبه إليه .

ب - أخذها من اسم الله ، وهو المألوه المعبود ، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله .

6 - قال الألوسي: وأما اسمه تعالى الله: فهو اسم لمرتبة ذاتية

جامعة وفلك محيط بالحقائق ، وهو مشير إلى الألوهية التي هي أعلى

المراتب، وهي التي تعطي كل ذي حق حقه، وتحتها الأحدية، وتحتها الواحدية، وتحتها الرحمانية، وتحتها الربوبية، وتحتها الملكية، ولهذا كان اسمه «الله» أعلى الأسماء وأعلى من اسمه الأحد، فالأحدية أخص مظاهر الذات لنفسها، والألوهية أفضل مظاهر الذات لنفسها أو لغيرها، ومن ثم منع أهل الله تعالى تجلي الأحدية، ولم يمنعوا تجلي الألوهية، لأن الأحدية ذات محض لا ظهور لصفة فيها فضلاً عن أن يظهر فيها مخلوق، فما هي إلا للتقديم القائم بذاته.

ومما قررنا يعلم سر كثرة افتتاح العبد دعاءه بيارب يارب، مع أنه تعالى ما عين هذا الاسم الكريم في الدعاء ونفى ما سواه، بل قال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: 110] وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

وقال أرباب الظاهر: الداعي لا يطلب إلا ما يظنه صلاحاً لحاله وتربية لنفسه، فناسب أن يدعوه بهذا الاسم، ونداء المربي في الشاهد بوصف التربية أقرب لدر ثدي الإجابة، وأقوى لتحريك عرق الرحمة، وعند ساداتنا الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم يختلف الكلام باختلاف المقام فرقاً وجمعاً، وعندى - وهو قبس من أنوارهم - أن الأرواح أول ما شنت آذانها وعطرت أروانها بسماع وصف الربوبية كما يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172] فهم ينادونه

سبحانه بأول اسم قررهم به فأقروا وأخذ به عليهم العهد فاستقاموا
واستقروا، فهو حبيبهم الأول، ومفزعهم إذا أشكل الأمر وأعضل:

تركت هوى سُعدى وليلى بمعزلٍ وعدت إلى مصحوب أول منزلٍ
ونادتني الأهواء مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

7 - اشتملت هذه السورة (الفاتحة) على أمهات المطالب العالية

أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود
تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا
إليها ومدارها عليها، وهي «الله» و«الرب» و«الرحمن»، وبنيت السورة
على الإلهية والربوبية والرحمة، ف«إياك نعبد» مبني على الإلهية،
و«إياك نستعين» على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم
بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته
وربوبيته ورحمته، والثناء والمجد كمالان لقدسه الأطهر.

8 - قال الفخر الرازي: وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء

الثلاثة وهي <الله، والرب، والرحمن>، كيف نشأ عنها الخلق
والأمر والثواب والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها
الجمع ولها الفرق.

فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات فهو رب كل شيء
وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات
والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية
وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّه وحده السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله

الذي لا إله إلا هو الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والإخبات والخشية والتذلل والخضوع إلا له، وهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقٌ مشرك في السعير، وفريقٌ موحدٌ في الجنة، فالإلهية هي التي فرقتهم كما أن الربوبية هي التي جمعتهم، فالدين والشرع والأمر والنهي مظهره وقيامه من صفة الإلهية والخلق.

والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك، وهو ملك يوم الدين فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووقفهم وهداهم وأضلهم بربوبيته وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

9 - التربية للأجناس إنما تتعلق باعتبار أفرادها، فيفيد شمول آحاد الأجناس المخلوقة كلها نظراً إلى الحكم، وحيث إن استغراق المفرد أشمل على ما فيه أمر فرغ عنه ولا ضرر لنا منه كما لا يخفى على المتأمل، وبعضهم خص ﴿الْعَالَمِينَ﴾ بذوي العلم من الملائكة والثقلين ورب أشرف الموجودات ورب غيرهم.

قال الإمام السيوطي: وعليه هو مشتق من العلم، وعلى القول بالعموم من العلامة، وفيه أن الكل في كلٍّ محتمل، والتخصيص دعوى من غير دليل، وقيل: هم الجن والإنس لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1] وقيل: هم الإنس لقوله تعالى: ﴿آتَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِن الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 165] وهو المنقول عن جعفر الصادق والمأخوذ

من بحر أهل البيت ورب البيت أدري .

ولعل الوجه فيه الإشارة إلى أن الإنسان هو المقصود بالذات من التكليف بالحلال والحرام وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولأنه فذلكة جميع الموجودات ونسخة جميع الكائنات المنقولة من اللوح الرباني بالقلم الرحماني ، ومن هذا الباب ما نسب لباب مدينة العلم كرم الله وجهه :

دواؤك فيك وما تبصرُ ودواؤك منك وما تشعرُ

وتزعم أنك جرم صغيرُ وفيك انطوى العالم الأكبرُ

ومن تأمل في ذاته وتفكر في صفاته ظهرت له عظمة باريه وآيات

مبديه ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿

[الذاريات: 20-21] بل من عرف نفسه فقد عرف ربه .

والمناسب للمقام هنا العموم والعوالم كثيرة لا تحصيها الأرقام

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ﴾ [لقمان: 27] ، وروي في

بعض الأخبار «أن الله تعالى خلق مئة ألف قنديل وعلقها بالعرش ،

والسماوات والأرض وما فيهن حتى الجنة والنار في قنديل واحد ، ولا

يعلم ما في باقي القناديل إلا الله تعالى». وقال كعب الأخبار: لا

يحصي عدد العالمين إلا الله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:

8] ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: 31] .

10 - من المعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من

وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمها.

جاء في تفسير الفخر الرازي (57/1): وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده، فإنَّ من تأمل هذه الموجودات عِلْمِ قدرة خالقها وحكمته، وعلمه وإتقانه، وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله! إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟!!

عن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم: دعوني فإنني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل! فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟! فهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال: هذا ورق التوت طعمه واحدٌ تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم وهو الحرير. وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً،

وتأكله الطباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد .

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: هاهنا حصنٌ حصين أملس ، ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب والإبريز ، فينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكلٍ حسن وصوت مليح . يعني بذلك البيضة إذا خرجت منها الدجاجة .

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليكُ
عيونٌ من لجين شاخصاتٌ بأحداق هي الذهب السبيكُ
على قضب الزبرجد شاهداتٌ بأنَّ الله ليس له شريكُ

وقال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحدُ

11 - قال بعض العارفين: وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي

بين الله وبين عباده ، فالتأليه منهم له ، والربوبية منه لهم ، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده ، بها أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبها هداهم ، وبها أسكنهم دار ثوابه ، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم ، فبينهم وبينه سبب العبودية ، وبينه وبينهم سبب الرحمة ، واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته ، ف﴿الرَّحْمَنُ

عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿﴾ مطابق لقوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿﴾ فَإِنْ شَمُولِ الرَّبُّوبِيَّةِ وَسَعَتِهَا بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْهَا أَقْصَى شَمُولِ الرَّحْمَةِ وَسَعَتِهَا فَوْسَعُ كُلِّ شَيْءٍ بِرَحْمَتِهِ وَرَبُّوبِيَّتِهِ، مَعَ أَنْ فِي كَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ مَا يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَكَوْنِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ - كَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

12 - قال بعض العارفين: في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها - ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمن محمود، وملك محمود - فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

13 - احتمال منة المخلوق إنما كانت نقصاً لأنه نظيره فإذا من عليه استعلى عليه ورأى الممنون عليه نفسه دونه، هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله ﷺ المننة على أمته، وكان أصحابه يقولون: الله ورسوله أمنٌ. ولا نقص في منة الوالد على ولده ولا عار عليه في احتمالها وكذلك السيد على عبده، فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم ومحض صدقته عليهم بلا عوض منهم البتة؟! وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها وأعانهم عليها وكملها لهم وقبلها منهم على ما فيها، وهذا هو المعنى الذي أثبت به

دخول الجنة في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

14 - المقصود من جميع العلوم: إما معرفة عزة الربوبية، أو

معرفة ذلة العبودية فقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ يدل على أنه هو الإله المستولي

على كل أحوال الدنيا والآخرة، ثم من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ إلى آخر السورة يدل على ذل العبودية، فإنه يدل على أن

العبد لا يتم له شيء من الأعمال الظاهرة ولا من المكاشفات الباطنة

إلا بإعانة الله تعالى وهدايته.

15 - اعلم أن المقامات محصورة في مقامين: معرفة الربوبية،

ومعرفة العبودية، وعند اجتماعهما يحصل العهد المذكور في قوله:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، أما معرفة الربوبية فكمالها

مذكور في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ فكون العبد منتقلاً من العدم السابق إلى

الوجود يدل على كون الله سبحانه إلهاً، وحصول الخيرات والسعادات

للعبد حال وجوده يدل على كونه رباً رحماناً رحيماً، وأحوال معاد

العبد تدل على كونه مالك يوم الدين، وعند الإحاطة بهذه الصفات

حصلت معرفة الربوبية على أقصى الغايات.

وبعدها جاءت معرفة العبودية، ولها مبدأ وكمال، وأول وآخر،

أما مبدؤها وأولها فهو الاشتغال بالعبودية ، وهو المراد بقوله: ﴿وَأَيَّكَ نَعْبُدُ﴾ ، وأما كمالها فهو أن يعرف العبد أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله، فعند ذلك يستعين بالله في تحصيل كل المطالب، وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَأَيَّكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

ولما تم الوفاء بعهد الربوبية وبعهد العبودية ترتب عليه طلب الفائدة والثمرة ، وهو قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا ترتيب شريف رفيع عالٍ يمتنع في العقول حصولُ ترتيبٍ آخَرَ أشرف منه .

16 - الدعاء يفيد معرفة ذلة العبودية ويفيد معرفة عزة الربوبية ، وهذا هو المقصود الأشرف الأعلى من جميع العبادات ، وبيانه أن الداعي لا يُقَدِّم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه كونه محتاجاً إلى ذلك المطلوب ، وكونه عاجزاً عن تحصيله وعرف من ربه وإلهه أنه يسمع دعاءه ، ويعلم حاجته وهو قادر على دفع تلك الحاجة وهو رحيم تقتضي رحمته إزالة تلك الحاجة .

وإذا كان كذلك فهو لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف كونه موصوفاً بالحاجة وبالعجز ، وعرف كون الإله سبحانه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والرحمة ، فلا مقصود من جميع التكاليف إلا معرفة ذل العبودية وعز الربوبية ، فإذا كان الدعاء مستجمعاً لهذين المقامين لا جرم كان الدعاء أعظم أنواع العبادات .

وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إشارة إلى المعنى الذي ذكرناه لأن التضرع لا يحصل إلا من الناقص في حضرة الكامل، فإذا لم يعتقد العبد نقصان نفسه وكمال مولاه في العلم والقدرة والرحمة لم يقدم على التضرع، فثبت أن المقصود من الدعاء ما ذكرناه.

17 - الناس في الوقوف على عظمة الربوبية على مراتب:

المرتبة الأولى: الرضا بما آتاهم الله ورسوله لعلمهم بأنه تعالى حكيم منزه عن العيب والخطأ، وحكيم بمعنى أنه عليم بعواقب الأمور، وكل ما كان حكماً له وقضاء كان حقاً وصواباً ولا اعتراض عليه.

والمرتبة الثانية: أن تظهر آثار ذلك الرضا على لسانهم، وهو قوله:

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ يعني أن غيرنا أخذوا المال ونحن لما رضينا بحكم الله وقضائه فقد فرزنا بهذه المرتبة العظيمة في العبودية، فحسبنا الله.

والمرتبة الثالثة: وهي أن الإنسان إذا لم يبلغ إلى تلك الدرجة

العالية التي عندها يقول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ نزل منها إلى مرتبة أخرى

وهي أن يقول: ﴿سَيُوتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ إما في الدنيا إن اقتضاه التقدير، وإما في الآخرة وهي أولى وأفضل.

والمرتبة الرابعة: أن يقول: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فنحن لا

نطلب من الإيمان والطاعة أخذ الأموال والفوز بالمناصب في الدنيا، وإنما المراد إما اكتساب سعادات الآخرة، وإما الاستغراق في العبودية

على ما دل لفظ الآية عليه فإنه قال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ولم يقل: إنا إلى ثواب الله راغبون.

ونُقل أن عيسى عليه السلام مرَّ بقوم يذكرون الله تعالى فقال: ما الذي يحملكم عليه؟ قالوا: الخوف من عقاب الله، فقال: أصبتم، ثم مر على قوم آخرين يذكرون الله، فقال: ما الذي يحملكم عليه، فقالوا: الرغبة في الثواب، فقال: أصبتم، ثم مر على قوم آخرين مشتغلين بالذكر فسألهم فقالوا: لا نذكره للخوف من العقاب، ولا للرغبة في الثواب، بل لإظهار ذلة العبودية، وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته، وتشريف اللسان بالألفاظ الدالة على صفات قدسه وعزته. فقال: أنتم المحققون المحققون.

*** **

تفسير قوله تعالى: «العالمين»

وفيه ستُّ مسائل:

1 - قال أبو جعفر الطبري: والعالمون جمع عالم، والعالم: جمع لا واحد له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جماع لا واحد له من لفظه. والعالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالم، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالم، وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان. والجنُّ عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه. ولذلك جمع فقيل: عالمون، وواحد جمع، لكون عالم كل زمان من ذلك عالم ذلك الزمان. واختلَف في العالم، على ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه ما يعقل: من الملائكة، والإنس، والجن، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه.

والثاني: أن العالم الدنيا وما فيها.

والثالث: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة،

واختلفوا في اشتقاقه على وجهين:

أحدهما: أنه مشتق من العلم، وهذا تأويل من جعل العالم اسماً

لما يعقل.

والثاني: أنه مشتق من العلامة، لأنه دلالة على خالقه، وهذا

تأويل من جعل العالم اسماً لكل مخلوق. وإليك تفصيل المسألة:

قال الإمام البغوي في تفسيره (52/1): «والعالمين» جمع عالم، لا واحد له من لفظه، واختلفوا في العالمين: قال ابن عباس: هم الجن والإنس لأنهم المكلفون بالخطاب، قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

وقال قتادة ومجاهد والحسن: هم جميع المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، واشتقاقه من العلم والعلامة، سموا به لظهور أثر الصنعة فيهم.

قال أبو عبيدة: هم أربع أمم: الملائكة والإنس والجن والشياطين، مشتق من العلم، ولا يقال للبهائم: عالم، لأنها لا تعقل. واختلفوا في مبلغهم: قال سعيد بن المسيب: لله ألف عالم: ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وقال مقاتل بن حيان: لله ثمانون ألف عالم: أربعون ألفاً في البحر، وأربعون ألفاً في البر. وقال وهب: لله ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا عالم منها، وما العمران في الخراب إلا كفسطاط في صحراء. وقال كعب الأحبار: لا يحصي عدد العالمين أحد إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31].

2 - قال الفخر الرازي: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اعلم أن قوله: ﴿رَبِّ﴾ مضاف، وقوله: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ مضاف إليه، وإضافة الشيء إلى الشيء تمتنع معرفتها إلا بعد حصول العلم بالمتضايين، فمن المحال حصول العلم بكونه تعالى رباً للعالمين إلا بعد معرفة «رب» و«العالمين»، ثم

إن العالمين عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى ، بل الإنسان لو ترك الكل وأراد أن يحيط علمه بعجائب المعادن المتولدة في أرحام الجبال من الفلزات والأحجار الصافية وأنواع الكباريت والزرانينخ والأملاح ، وأن يعرف عجائب أحوال النبات مع ما فيها من الأزهار والأنوار والثمار ، وعجائب أقسام الحيوانات من البهائم والوحوش والطيور والحشرات لنفد عمره في أقل القليل من هذه المطالب ، ولا ينتهي إلى غورها كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: 27] وهي بأسرها وأجمعها داخله تحت قوله ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ورحمة الله تعالى بعباده لا تنحصر أنواعها .

3 - قال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب (168/7):

أقسام العالم وأنواع كل قسم:

اعلم أن الموجود إما أن يكون واجباً لذاته ، وإما أن يكون ممكناً لذاته ، أما الواجب لذاته فهو الله تعالى فقط ، وأما الممكن لذاته فهو كل ما سوى الله تعالى وهو العالم ، لأن المتكلمين قالوا: العالم كل موجود سوى الله ، وسبب تسمية هذا القسم بالعالم أن وجود كل شيء سوى الله يدل على وجود الله تعالى ، فلهذا السبب سمي كل موجود سوى الله بأنه عالم .

إذا عرفت هذا فنقول: كل ما سوى الله تعالى إما أن يكون متحيزاً ، وإما أن يكون صفةً للمتحيز ، وإما ألا يكون متحيزاً ولا صفة

للمتحيز ، فهذه أقسام ثلاثة :

القسم الأول: المتحيز: وهو إما أن يكون قابلاً للقسمة ، أو لا يكون: فإن كان قابلاً للقسمة فهو الجسم ، وإن لم يكن كذلك فهو الجوهر الفرد؛ أما الجسم فإما أن يكون من الأجسام العلوية أو من الأجسام السفلية ؛ أما الأجسام العلوية فهي الأفلاك والكواكب ، وقد ثبت بالشرع أشياءً آخر سوى هذين القسمين ، مثل العرش والكرسي وسدرة المنتهى واللوح والقلم والجنة .

وأما الأجسام السفلية فهي إما بسيطة أو مركبة: أما البسيطة فهي العناصر الأربعة: واحدها: كرة الأرض بما فيها من المفاز والجبال والبلاد المعمورة ، وثانيها: كرة الماء وهي البحر المحيط وهذه الأبحر الكبيرة الموجودة في هذا الربع المعمور وما فيه من الأودية العظيمة التي لا يعلم عددها إلا الله تعالى ، وثالثها: كرة الهواء ، ورابعها: كرة النار؛ وأما الأجسام المركبة فهي النبات ، والمعادن ، والحيوان ، على كثرة أقسامها وتباين أنواعها .

وأما القسم الثاني وهو الممكن الذي يكون صفة للمتحيزات فهي الأعراض ، والمتكلمون ذكروا ما يقرب من أربعين جنساً من أجناس الأعراض .

أما الثالث وهو الممكن الذي لا يكون متحيزاً ولا صفة للمتحيز فهو الأرواح ، وهي إما سفلية ، وإما علوية: أما السفلية فهي إما خيرة ، وهم صالحو الجن ، وإما شريرة خبيثة وهي مردة الشياطين . والأرواح العلوية إما متعلقة بالأجسام وهي الأرواح الفلكية ، وإما غير متعلقة

بالأجسام وهي الأرواح المطهرة المقدسة .

فهذا هو الإشارة إلى تقسيم موجودات العالم ، ولو أن الإنسان كتب ألف ألف مجلد في شرح هذه الأقسام لما وصل إلى أقل مرتبة من مراتب هذه الأقسام ، إلا أنه لما ثبت أن واجب الوجود لذاته واحد ، ثبت أن كل ما سواه ممكن لذاته ، فيكون محتاجاً في وجوده إلى إيجاد الواجب لذاته ، وأيضاً ثبت أن الممكن حال بقائه لا يستغني عن المُبقي ، والله تعالى إله العالمين من حيث إنه هو الذي أخرجها من العدم إلى الوجود ، وهو رب العالمين من حيث إنه هو الذي يبقئها حال دوامها واستقرارها .

وإذا عرفت ذلك ظهر عندك شيء قليل من تفسير قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وكل من كان أكثر إحاطة بأحوال هذه الأقسام الثلاثة كان أكثر وقوفاً على تفسير قوله : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

4- المربي على قسمين : أحدهما : أن يربِّي شيئاً ليربح عليه المربِّي ، والثاني : أن يربِّيهِ ليربح المربي ، وتربية كل الخلق على القسم الأول ، لأنهم إنما يُربون غيرهم ليربحوا عليه إما ثواباً أو ثناءً .
والقسم الثاني : هو الحق سبحانه ، فكأنه يقول : خلقتكم لتربحوا عليّ لا لأربح عليكم . فهو تعالى يربِّي ويُحسِن ، وهو بخلاف سائر المرابين وبخلاف سائر المحسنين .

واعلم أن تربيته تعالى مخالفة لتربية غيره ، وبيانه من وجوه :
الأول : ما ذكرناه أنه تعالى يربِّي عبده لا لغرض نفسه بل

لغرضهم ، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم .
 الثاني: أن غيره إذا ربي فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه
 وفي ماله ، والله تعالى متعالٍ عن النقصان والضرر ، كما قال سبحانه: ﴿أَنَا
 صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: 25- 26] الآيات .

الثالث: أنه وضع الأفلاك والكواكب بحيث صارت أسباباً لحصول
 مصالح العباد ، فخلق الليل ليكون سبباً للراحة والسكون ، وخلق النهار
 ليكون سبباً للمعاش والحركة ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ
 نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ
 إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5] ، ﴿وَهُوَ الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97] ،
 وقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 5- 6]
 إلى آخر الآية ، واعلم أنك إذا تأملت في عجائب أحوال المعادن والنبات
 والحيوان وآثار حكمة الرحمن في خلق الإنسان ، قضى صريحُ عقلك بأن
 أسباب تربية الله كثيرة ، ودلائل رحمته لائحة ظاهرة ، وعند ذلك يظهر
 لك قطرة من بحار أسرار قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

5 - أضاف الحمد إلى نفسه فقال تعالى: «الحمد لله» ، ثم أضاف
 نفسه إلى العالمين ، والتقدير: إني أحب الحمد ، فنسبته إلى نفسي
 بكونه ملكاً لي ، ثم لما ذكرتُ نفسي عرّفت نفسي بكوني رباً للعالمين ،

ومن عَرَّف ذاتاً بصفة فإنه يحاول ذكر أحسن الصفات وأكملها، وذلك يدلُّ على أن كونه رباً للعالمين أكمل الصفات، والأمر كذلك؛ لأن أكمل المراتب أن يكون تاماً، وفوق التمام، فقوله: «الله» يدل على كونه واجب الوجود لذاته في ذاته وبذاته وهو التمام، وقوله «رب العالمين» معناه أن وجود كل ما سواه فائض عن تربيته وإحسانه وجوده، وهو المراد من قولنا: فوق التمام.

6- الله تبارك وتعالى يملك عباداً غيرك كما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ

رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31]، وأنت ليس لك رب سواه، ثم أنه يربِّيك كأنه ليس له عبد سواك، وأنت تخدمه كأن لك رباً غيره، فما أحسن هذه التربية! أليس يحفظك في النهار عن الآفات من غير عوض، وبالليل عن المخافات من غير عوض؟

واعلم أن الحراس يحرسون الملك كل ليلة، فهل يحرسونه عن لدغ الحشرات، وهل يحرسونه عن أن تنزل به البليات؟ أما الحق تعالى فإنه يحرسه من الآفات، ويصونه من المخافات؛ بعد أن كان قد زجَّ أول الليل في أنواع المحظورات وأقسام المحرمات والمنكرات، فما أكبر هذه التربية وما أحسنها!

أليس من التربية أنه ﷺ قال: «الآدمي بنيان الرب، ملعون من هدم بنيان الرب»؛ فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِالْأَيْدِي وَأَلْسِنِهِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: 42]؟ ما ذاك إلا الملك الجبار، والواحد

القهار، ومقلَّب القلوب والأبصار، والمطَّع على الضمائر والأسرار -
سبحانه وتعالى .

** ** *

تفسير قوله تعالى

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

وفيه اثنتا عشرة مسألة:

1 - في إجراء هذه الأوصاف: «رب العالمين» «الرحمن الرحيم» «مالك يوم الدين» بعد ذكر اسم الذات «الله» الجامع لصفات الكمال إشارةً إلى أن الذي يحمده الناس ويعظمونه إنما يكون حمده وتعظيمه لأحد أمور أربعة: إما لكونه كاملاً في ذاته وصفاته وإن لم يكن منه إحسان إليهم، وإما لكونه محسناً إليهم ومتفضلاً عليهم، وإما لأنهم يرجون لطفه وإحسانه في الاستقبال، وإما لأنهم يخافون من كمال قدرته. فهذه هي الجهات الموجبة للحمد والتعظيم، فكأنه سبحانه يقول: يا عبادي إن كنتم تحمدون وتعظمون للكمال الذاتي والصفاتى فاحمدوني فأني أنا الله، وإن كان تعظمون للإحسان السالف والتربية والإنعام فأني أنا رب العالمين، وإن كان للرجاء المترقب والطمع في المستقبل فأني أنا الرحمن الرحيم، وإن كان للخوف والرهبه فأني أنا مالك يوم الدين.

2 - قال ابن عرفة: قدّم أولاً الوصف برّب العالمين تنبيهاً على أصل النشأة، وأنه هو الخالق المبدئ، ثم ثنى بحال الإنسان في الدنيا من النعم والإحسان، فلولا رحمة الله تعالى لما كان ذلك.

3 - قدم «الرحمن الرحيم» على قوله تعالى: «مالك يوم الدين» لتأنس أفئدة المحجوبين عن رؤية رب العالمين، ألا تراه يقول يوم

الدين: «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ الْأَنْبِيَاءُ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَبَقِيَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [مسند الإمام أحمد]. ولم يقل: وبقي الجبار، ولا القهار، ليقع التأنيس قبل إيجاد الفعل في قلوبهم، فمن عرف المعنى في هذا الوجود صح له الاختصاص في مقام «أرحم»، ومن جهلها في هذا الوجود دخل في العامة في الحشر الأكبر فتجلى في مقام الراحمين.

4 - لعلّ سائلاً يسأل: إنه تعالى ذكر «الرحمن الرحيم» في التسمية مرة واحدة، وفي السورة مرة ثانية، فما حكمة هذا التكرير؟ والجواب: أن الحكمة في ذلك: كأنه الله تعالى يقول: أذكرّ أني إله وربّ مرة واحدة، وأذكرّ أني رحمن رحيم مرتين، ليُعلم أن العناية بالرحمة أكثر منها بسائر الأمور.

5 - قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال القرطبي: إنما وصف نفسه بـ«الرحمن الرحيم» بعد قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليكون من باب قرّن «الترغيب بالترهيب» كما قال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّنَا أَلْغَفُورُ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فالرب فيه ترهيب، و«الرحمن الرحيم» ترغيب، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».

6 - إن ربوبية الله عزّ وجلّ مبنية على الرحمة الواسعة الواصلة للخلق، لأنه تعالى لما قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فكأنّ سائلاً يسأل: ما نوع

هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ وانتقام، أو ربوبية رحمة وإنعام؟
فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

وروى ابن ماجه والترمذي في سننهما عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يسأل الله يغضب عليه» واللفظ الترمذي.

7 - قال ابن عباس رضي الله عنهما في ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، فالرحمن الرقيق، والرحيم العاطف على خلقه بالرزق.

وفي تفسير الثعلبي: وقد فرّق بينهما قوم فقالوا: الرحمن العاطف على جميع خلقه كافرهم ومؤمنهم وفاجرهم بأن خلقهم ورزقهم، والرحيم بالمؤمنين خاصة بالهداية والتوفيق في الدنيا، والرؤية في العقبى. فالرحمن خاص اللفظ عام المعنى، والرحيم عام اللفظ خاص المعنى، فالرحمن خاص من حيث إنه لا يُسمّى به أحد إلا الله، عامّ من حيث إنه يشمل جميع الموجودات من طريق الخلق والرزق والنفع والدفع، والرحيم عامّ من حيث اشتراك المخلوقين في التسمي به، خاص من طريق المعنى لأنه يرجع إلى اللطف والتوفيق. وهذا معنى قول جعفر الصادق: الرحمن اسم خاص لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة خاصة.

8 - قوله تعالى: «الرحمن» بالإشراق على أسرار أوليائه والتجلي لأرواح أنبيائه، و«الرحيم» بالعطف على أنفس الخلائق برّهم وفاجرهم، يبسط معاشهم في الدنيا، وقيل: «الرحمن» خاص الاسم

خاص الفعل ، و«الرحيم» عام الاسم عام الفعل ، وقيل: «الرحمن»
بالنعمة و«الرحيم» بالعصمة، وقيل: <الرحمن> بالتجلي
و<الرحيم> بالتولي، وقيل: <الرحمن> بكشف الأنوار و«الرحيم»
لحفظ ودائع الأسرار، وقيل: «الرحمن» بذاته و«الرحيم» في نعوته
وصفاته .

وقال ابن المبارك: «الرحمن» إذا سُئِلَ أعطى ، و«الرحيم» إذا لم
يُسأل غضب .

وجل الحق أن يدرك حقيقةً أساميه أحدٌ لأن أسماءه بلا علة ،
وإنما يظهر للخلق نصيبهم من الأسامي لا حقيقة حقه ، فمن ظن أنه يفسر
أساميه على حقيقة حقه فقد ضل ضلالاً بعيداً ، لأنه أظهر الأسامي
للإثبات رحمةً لخلقه لا إشرافاً على صفاته ونعوته ، قال الله تعالى:
﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ، وكيف يُدرك شيءٌ من صفاتِ مَنْ الجهاتُ
لا تَضمّنه ، والسّناتُ لا تأخذه ، والأوقات لا تداوله ، والآداب لا
تؤدبه ، والترجمة لا تجليه ، والإشارات لا تدانيه ، لم تلتبس به
حال ، ولا ينازعه بال ، لا الصفات أوجدته ، ولا الأسامي زيّنته ، بل
هو موجد كل موجود ، وخالقُ كل موصوف ، جل وتعالى .

روى منصور عن جعفر قال: «الرحمن» الذي يرزق الخلق ظاهراً
وباطناً ، فرزق الظاهر الأقوات من المأكولات والمشروبات والعوافي ،
والباطنَ العقل والمعرفة والفهم وما ركب فيه من أنواع البدائع كالسمع
والبصر والشم والذوق واللمس والهمة والظن .

9 - أكثر العلماء على أن «الرحمن» مختصُّ بالله عز وجل ، لا

يجوز أن يُسَمَّى به غيرُه، ألا تراه قال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾؟ فعادل الاسم الذي لا يشركه فيه غيره.

10 - قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ هذه صفة للفظ الجلالة، وهو ما يسمى عند النحويين بالنعته، «الرَّحْمَنُ» أي: ذي الرحمة الواسعة الشاملة لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهذه الرحمة العامة تشمل حتى الكافر، فإنه يعيش برحمة الله، ولولا أن الله يرحمه ما وجد غذاءً ولا شراباً ولا كسوة ولا سكناً، ولكنه يعيش برحمة الله في هذه الأشياء، إلا أنها رحمة لا تفيده في الآخرة؛ لأنها رحمة قاصرة في الدنيا فقط.

«الرَّحِيمُ» أي: ذي الرحمة الخاصّة التي تصل إلى المرحوم، وهذا لا يكون إلا للمؤمنين؛ لقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، ولهذا قال بعض العلماء: «الرحمن» عامة و«الرحيم» خاصة.

وفي الإتيان بـ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دليل على أن هذه الربوبية ربوبية رحمة، ليست ربوبية انتقام أو غضب؛ وأن كل ما صدر من الله عز وجل فإنه رحمة، حتى النِّقْمُ التي تصيب الناس هي في الحقيقة رحمة.

كيف هي رحمة؟! المرض رحمة؟! نعم هو رحمة، لكن لا يعرف أنه رحمة إلا من تدبر وتأمل، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا

يَعْقُلَهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١١﴾ ، المرض بالنسبة إلى المؤمن يكفر الله به سيئاته ، قال ﷺ : « ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى إلا كفر الله بها عنه » وهذه رحمة ، لأن ما يصيبك في الدنيا زائل ولا يبقى ، لا بد أن يزول ، ودوام الحال من المحال .

ويذكر عن بعض العابدات أنها أصيبت في إصبعها وأنها لم تتأثر ، وقالت : (حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها) ، كلمة عظيمة!! إذاً . . هذا المرض الذي أصابك رحمة ، ثم إن المرض قد يكون سبباً لرجوع الإنسان إلى ربه إذا كان فاراً من الله ، وقد يكون سبباً لاهتداء العاصي ورجوعه إلى ربه .

ولقد حدثت قريباً عن شخص كان مُسرفاً على نفسه فاسقاً بعيداً من الله ، فمات أبوه ، وبمجرد أن أصيب بهذه المصيبة عاد إلى الله واستقام ، وصار من خيار الشباب ، فانظر إلى هذه المصيبة كيف أصلحت هذا! إذاً نقول: كل ما في الكون وما يقدره الله فيه فهو ناتج عن رحمة ، وقرينة ذلك أن الله لما قال : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فليست بُغيته مبنية على جبروت وإحراج وإعسارٍ على العباد ، ولكنها مبنية على الرحمة .

11 - إنما خصَّ التسمية بهذه الأسماء ؛ ليعلم العارف أن المستحق لأن يُستعان به في مجامع الأمور ، هو المعبود الحقيقي الذي هو مُولي النعم كلها عاجلها وآجلها ، جليلها وحقيرها ؛ فيتوجه بشراشره إلى

جناب القدس ، ويتمسك بحبل التوفيق ، ويشغل سره بذكره والاستعداد
به عن غيره .

12 - «الرحيم»: اسم وصفة لله تعالى ، وقد وُصف به غيره ، قال
الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . ومثل
«الرحيم»: السميع والبصير ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

تفسير قوله تعالى

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

وفيه خمس وعشرون مسألة:

1 - أخرج مسلم ومالك وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفَهَا لِي، وَنِصْفَهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. يَقُولُ اللَّهُ: حَمْدَنِي عَبْدِي.

يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمِ﴾. يَقُولُ اللَّهُ: أَتْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. يَقُولُ اللَّهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

2 - في إجراء هذه الأوصاف: «رب العالمين» «الرحمن الرحيم» «مالك يوم الدين» بعد ذكر اسم الذات «الله» الجامع لصفات الكمال إشارة إلى أن الذي يحمده الناس ويعظمونه إنما يكون حمده وتعظيمه

لأحد أمور أربعة: إما لكونه كاملاً في ذاته وصفاته وإن لم يكن منه إحسان إليهم، وإما لكونه محسناً إليهم ومتفضلاً عليهم، وإما لأنهم يرجون لطفه وإحسانه في الاستقبال، وإما لأنهم يخافون من كمال قدرته. فهذه هي الجهات الموجبة للحمد والتعظيم، فكأنه سبحانه يقول: يا عبادي إن كنتم تحمدون وتعظمون للكمال المتمثل في ذات الله وصفاته، فاحمدوني فإني أنا الله، وإن كنتم تعظمون للإحسان السالف والتربية والإنعام فإني أنا رب العالمين، وإن كان للرجاء المترقب والطمع في المستقبل فإني أنا الرحمن الرحيم، وإن كان للخوف والرهبة فإني أنا مالك يوم الدين.

3 - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ

الدين ﴿٣﴾ إشارة إلى علم الأصول: لأن الدال على وجوده وجود مخلوقاته، فقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يجري مجرى الإشارة إلى أنه لا سبيل إلى معرفة وجوده إلا بكونه رباً للعالمين، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى كونه مستحقاً للحمد، ولا يكون مستحقاً للحمد إلا إذا كان قادراً على كل الممكنات عالماً بكل المعلومات، ثم وصفه بنهاية الرحمة وهو كونه رحماناً رحيماً، ثم وصفه بكمال القدرة وهو قوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ حيث لا يهمل أمر المظلومين، بل يستوفي حقوقهم من الظالمين، وعند هذا تم الكلام في معرفة الذات والصفات، وهو علم الأصول

4 - كأن الله تبارك وتعالى يقول: أيها العبد الضعيف، أنا وإن كنت عظيم القدرة والهيبة والإلهية، إلا أنني مع ذلك عظيم الرحمة، فأنا الرحمن الرحيم، وأنا مالك يوم الدين، فما دمت في هذه الحياة الدنيا لا أُخْلِكَ عن أقسام رحمتي وأنواع نعمتي، وإذا مت فأنا مالك يوم الدين، لا أضيع عملاً من أعمالك، فإن أتيتني بالخير قابلت الخير الواحد بما لا نهاية له من الخيرات، وإن أتيتني بالمعصية قابلتها بالصفح والإحسان والمغفرة.

5 - إن العبد يترقى من العالم الصغير إلى العالم الكبير، فيعلم أنه لا تنتظم حالة من أحوال العالم الأكبر إلا بتقدير الله، وذلك هو قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم إن العبد يتأمل في أحوال العالم الأعلى فيشاهد أن أحوال العالمين منظومة على الوصف الأتقن والترتيب الأقوم والكمال الأعلى والمنهج الأسنى، فيرى الذرات ناطقة بالإقرار بكمال رحمته وفضله وإحسانه، فعند ذلك يقول: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فعند هذا يظهر للعبد أن جميع مصالحه في الدنيا إنما تهيأت برحمة الله وفضله وإحسانه، ثم يبقى العبد متعلق القلب بسبب أنه كيف يكون حاله بعد الموت؟ فكأنه يقال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ليس إلا الذي عرفته بأنه هو الرحمن الرحيم، فحينئذ ينشرح صدر العبد وينفسح قلبه ويعلم أن المتكفل بإصلاح مهماته في الدنيا والآخرة ليس إلا الله، وحينئذ ينقطع إليه، ويتعلق به ولا يتعلق بمخلوق.

6 - قوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: مالك يوم البعث والجزاء،

وتقريره أنه لا بدّ من الفرق بين المحسن والمسيء، والمطيع والعاصي،
 والموافق والمخالف، وذلك لا يظهر إلا في يوم الجزاء كما قال
 تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾
 [النجم: 31]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28]، وقال:
 ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:
 15].

واعلم أن من سلط الظالم على المظلوم ثم إنه لا ينتقم منه فذاك
 إما للعجز أو للجهل أو لكونه راضياً بذلك الظلم، وهذه الصفات الثلاث
 على الله تعالى محال، فوجب أن ينتقم للمظلومين من الظالمين، ولما
 لم يحصل هذا الانتقام في دار الدنيا وجب أن يحصل في دار الأخرى
 بعد دار الدنيا، وذلك هو المراد بقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وبقوله:
 ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7] الآية.

روي أنه يجاء برجل يوم القيامة فينظر في أحوال نفسه فلا يرى
 لنفسه حسنة البتة، فيأتيه النداء: يا فلان ادخل الجنة بعملك،
 فيقول: إلهي ماذا عملت؟ فيقول الله تعالى: أأست لما كنت نائماً تقلبت
 من جنب إلى جنب ليلة كذا فقلت في خلال ذلك: «الله»، ثم غلبك
 النوم في الحال فنسيت ذلك؟ أمّا أنا فلا تأخذني سنة ولا نوم فما نسيت
 ذلك.

وأيضاً يؤتى برجل فتوزن حسناته وسيئاته، فتخفُّ حسناته، فتأتيه

بطاقة فتثقل ميزانه ، فإذا فيها شهادة أن لا إله إلا الله . ولا يثقل مع ذكر الله شيءٌ .

واعلم أن الواجبات على قسمين: حقوق الله تعالى ، وحقوق العباد: أما حقوق الله تعالى فمبناها على المسامحة لأنه تعالى غني عن العالمين ، وأما حقوق العباد فهي التي يجب الاحتراز عنها .

7 - ﴿مَلِكٍ يَوْمِ الدِّينِ﴾ صفةٌ رابعة له تعالى ، وتأخيرها عن الصفات الأول مما لا حاجة إلى بيان وجهه ، وقرأ أهل الحرمين المحترمين «ملك» من المُلْك الذي هو عبارة عن السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، والغلبة التامة ، والقدرة على التصرف الكلي في أمور العامة ، بالأمر والنهي ، وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى يوم الدين ، كما في قوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ، وقرئ «مَلِكٍ» بالتخفيف و«مَلَكٌ» بلفظ الماضي ، «ومَالِكٌ» بالنصب على المدح ، أو الحال ، وبالرفع منوناً ومضافاً على أنه خبرٌ مبتدأً محذوف ، «ومَلِكٌ» مضافاً وبالرفع والنصب .

واليومُ في العرف: عبارةٌ عمّا بين طلوعِ الشمسِ وغروبها من الزمان ، وفي الشرع: عبارةٌ عمّا بين طلوعِ الفجرِ الثاني وغروبِ الشمسِ ، والمرادُ هاهنا مطلقُ الوقت .

والدينُ الجزاءُ خيراً كان أو شراً ، ومنه الثاني في المثل السائر: كما تدينُ تَدان .

8 - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ هُوَ يَوْمُ الْجَزَاءِ، وَتَضَمَّنَتْ
الآيَةُ إِثْبَاتَ الْمَعَادِ وَجَزَاءَ الْعِبَادِ بِأَعْمَالِهِمْ حَسَنِهَا وَسَيِّئِهَا، وَتَفَرَّدَ الرَّبُّ
تَعَالَى بِالْحُكْمِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ وَكَوْنَ حُكْمِهِ بِالْعَدْلِ، وَكُلُّ هَذَا
تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

9 - و«الدين»: الجزاء، ومنه الحديث المرسل عن أبي قلابَةَ رضي الله عنه
قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «البر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والديان لا
يموت، فكن كما شئت، كما تدين تدان» [أخرجه عبد الرزاق في مصنفه].
وقيل: فرق بينهما فإن الدين ما كان بقدر فعل المجازي والجزاء أعم.
وقيل: الدين اسم للجزاء المحبوب المقدر بقدر ما يقتضيه الحساب إذا
كان ممن معه وقع الأمر المجزي به، فلا يقال لمن جازى عن غيره أو
أعطى كثيراً في مقابلة قليل: دين، ويقال: جزاء.

والأرجح عندي أن الدين والجزاء بمعنى، فيوم الدين هو يوم
الجزاء، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:
95]، وينفرد سبحانه في ذلك اليوم بهما انفراداً لا خفاء فيه ولذلك
قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾
[الانفطار: 19] و﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]،
وأيضاً هنالك يجتمع الأولون والآخرون ويقوم الروح والملائكة صفاءً،
وتجتمع العبيد في سعيد واحد وتظهر صفة الجمال والجلال أتم ظهور
فتعلم صفة المالكية والملكية للمجموع في آن واحد فوق ما علمت

لكل فرد فرد أو جمع جمع على توالي الأزمان .

وإنما ختم الله سبحانه هذه الأوصاف بهذا الوصف إشارة إلى الإعادة كما افتتح بما يشير إلى الإبداء ، وفي إجراءاتها عليه تعالى تعليل لإثبات ما سبق وتمهيد لما لحق ، وفيه إيماء إلى أن الحمد ليس مجرد الحمد لله ، بل مع العلم بصفات الكمال ونعوت الجلال .

ومن الناس من استدل على وجوب الشكر عقلاً قبل مجيء الشرع بأنه تعالى أثبت الحمد هنا لذاته ووصفه بكونه رباً للعالمين رحماناً رحيماً بهم مالكاً لعاقبة أمورهم في القيامة ، وترتّب الحكم على الوصف المناسب يدل على كون الحكم معللاً به ، فدل ذلك على ثبوت الحمدلة قبل الشرع وبعده ، وهو على ما فيه دليل عليه لا له ، لأنه بيان من الله تعالى لإيجابه ، فهو سمعي لا عقلي ، فالمستدل به كناطق صخرة .

هذا ، وفي ذكر هذه الأسماء الخمسة أيضاً لطائف : فالإنسان بدن ونفس شيطانية ونفس سبعية ونفس بهيمية وجوهر ملكي عقلي ، فالتجلي باسمه تعالى الله للجوهر الملكي : ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28] ، وباسم الرب للنفس الشيطانية ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: 97] ، وباسم الرحمن للنفس السبعية بناء على أنه مركّب من لطف وقهر ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: 26] ، وباسم الرحيم للنفس البهيمية ﴿أَجَلٌ لَكُمْ أَطْيَبْتُ﴾ [المائدة: 5] ، وبمالك يوم الدين للبدن الكثيف ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: 31] .

وآثار هذا التجلي طاعة الأبدان بالعبادة وطاعة النفس الشيطانية بطلب الاستعانة والسبعية بطلب الهداية والبهيمية بطلب الاستقامة، وتواضعت الروح القدسية فعرضت لطلب إيصالها إلى الأرواح العالية المطهرة، وأيضاً دعائم الإسلام خمس: فالشهادة من أنوار تجلي الله، والصلاة من أنوار تجلي الرب، وإيتاء الزكاة من أنوار تجلي الرحمن، وصيام رمضان من أنوار تجلي الرحيم، والحج من أنوار تجلي مالك يوم الدين، وكأنه لهذا طلبت الفاتحة في الصلاة التي هي العماد.

10 - اختلف القراء في هذه الكلمة، فمنهم من قرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ومنهم من قرأ <ملك يوم الدين>. فحجة من قرأ «مالك» وجوه:

الأول: أن فيه حرفاً زائداً فكانت قراءته أكثر ثواباً.

الثاني: أنه يحصل في القيامة ملوك كثيرون، أما المالك الحق ليوم الدين فليس إلا الله تعالى.

الثالث: المالك قد يكون ملكاً وقد لا يكون، كما أن الملك قد يكون مالكاً وقد لا يكون، فالملكية والمالكية قد تنفك كل واحدة منهما عن الأخرى، إلا أن المالكية سبب لإطلاق التصرف، والملكية ليست كذلك، فكان المالك أولى.

الرابع: إن الملك ملك للرعية، والمالك مالك للعبيد، والعبد أدون حالاً من الرعية، فوجب أن يكون القهر في المالكية أكثر منه في الملكية، فوجب أن يكون المالك أعلى حالاً من الملك.

الخامس: أن الرعية يمكنهم إخراج أنفسهم عن كونهم رعية لذلك الملك باختيار أنفسهم، أما المملوك فلا يمكنه إخراج نفسه عن كونه مملوكاً لذلك المالك باختيار نفسه، فثبت أن القهر في الملكية أكمل منه في الملكية.

السادس: أن الملك يجب عليه رعاية حال الرعية، قال عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، ولا يجب على الرعية خدمة الملك. أما المملوك فإنه يجب عليه خدمة المالك وألا يستقل بأمر إلا بإذن مولاه، حتى إنه لا يصح منه القضاء والإمامة والشهادة، وإذا نوى مولاه السفر يصير هو مسافراً، وإن نوى مولاه الإقامة صار هو مقيماً؛ فعلمنا أن الانقياد والخضوع في المملوكية أتم منه في كونه رعية، فهذه هي الوجوه الدالة على أن «المالك» أكمل من الملك.

وذهب فريق من العلماء إلى أن «الملك» أولى من «المالك» لوجوه:
الأول: أن كل واحد من أهل البلد يكون مالكاً، أما الملك فلا يكون إلا أعظم الناس وأعلاهم، فكان «الملك» أشرف من «المالك».
الثاني: أنهم أجمعوا على أن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: 1-2] لفظ «الملك» فيه متعين، ولولا أن «الملك» أعلى حالاً من «المالك» لما تعين.

الثالث: «الملك» أولى لأنه أقصر، والظاهر أنه يدرك من الزمان ما تذكر فيه هذه الكلمة بتمامها، بخلاف «المالك» فإنها أطول،

فاحتمل ألا يجد من الزمان ما يُتم فيه هذه الكلمة ، هكذا نُقل عن أبي عمرو، وأجاب الكسائي بأن قال: إني أشرع في ذكر هذه الكلمة فإن لم أبلغها فقد بلغتها حيث عزمت عليها، نظيره في الشرعيات: من نوى صوم الغد قبل غروب الشمس من اليوم في أيام رمضان لا يجزيه، لأنه في هذا اليوم مشغول بصوم هذا اليوم، فإذا نوى صوم الغد كان ذلك تطويلاً للأمل، أما إذا نوى بعد غروب الشمس فإنه يجزيه؛ لأنه وإن كان ذلك تطويلاً للأمل إلا أنه خرج عن الصوم بسبب غروب الشمس، ويجوز أن يموت في تلك الليلة، فيقول: إن لم أبلغ إلى اليوم فلا أقل من أكون على عزم الصوم، وكذا هاهنا يشرع في ذكر قوله «مالك» فإن تممها فذاك، وإن لم يقدر على إتمامها كان عازماً على الإتمام وهو المراد.

ثم نقول: أنه يتفرع على كونه ملكاً أحكام، وعلى كونه مالِكاً أحكام آخر:

أما الأحكام المتفرعة على كونه «ملكاً» فوجوه:

الأول: أن السياسات على أربعة أقسام: سياسة الملاك؛ وسياسة الملوك، وسياسة الملائكة، وسياسة ملك الملوك: فسياسة الملوك أقوى من سياسة الملاك؛ لأنه لو اجتمع عالم من المالكين فإنهم لا يقاومون ملكاً واحداً، ألا ترى أن السيد لا يملك إقامة الحد على مملوكه عند أبي حنيفة، وأجمعوا على أن «الملك» يملك إقامة الحدود على الناس؟ وأما سياسة الملائكة فهي فوق سياسات الملوك؛ لأن عالماً من أكابر الملوك لا يمكنهم دفع سياسة ملك واحد، وأما سياسة ملك

الملوك فإنها فوق سياسات الملائكة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: 38] وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255] وقال في صفة الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]؟

الحكم الثاني: أنه ملك لا يشبه سائر الملوك، لأنهم إن تصدقوا بشيء انتقص ملكهم، وقلّت خزائنهم؛ أما الحق سبحانه وتعالى فملكه لا ينتقص بالعطاء والإحسان، بل يزداد، بيانه أنه تعالى إذا أعطاك ولداً واحداً لم يتوجه حكمه إلا على ذلك الولد الواحد، أما لو أعطاك عشرة من الأولاد كان حكمه وتكليفه لازماً على الكل، فثبت أنه تعالى كلما كان أكثر عطاءً كان أوسع ملكاً.

الحكم الثالث من أحكام كونه «ملكاً»: كمال الرحمة، والدليل عليه آيات:

إحداها: ما ذكر في هذه السورة من كونه رباً رحماناً رحيماً.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ

وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: 22] ثم قال بعده: ﴿هُوَ اللَّهُ

الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ [الحشر: 23] ثم ذكر بعده كونه قدوساً

عن الظلم والجور، ثم ذكر بعده كونه سلاماً، وهو الذي سلّم عباده

من ظلمه وجوره، ثم ذكر بعده كونه مؤمناً، وهو الذي يؤمن عبده عن

جوره وظلمه، فثبت أن كونه ملكاً لا يتم إلا مع كمال الرحمة.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: 26] لما أثبت لنفسه الملك أردفه بأن وصف نفسه بكونه رحماناً، يعني إن كان ثبوت الملك له في ذلك اليوم يدل على كمال القهر، فكونه رحماناً يدل على زوال الخوف وحصول الرحمة.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكٍ النَّاسِ﴾ [الناس: 1-2] فذكر أولاً كونه رباً للناس، ثم أردفه بكونه ملكاً للناس، وهذه الآيات دالة على أن الملك لا يحسن ولا يكمل إلا مع الإحسان والرحمة، فيا أيها الملوك اسمعوا هذه الآيات وارحموا هؤلاء المساكين، ولا تطلبوا مرتبة زائدة في الملك على ملك الله تعالى.

الحكم الرابع من أحكام كونه «ملكاً»: أنه يجب على الرعية طاعته، فإن خالفوه ولم يطيعوه وقع الهرج والمرج في العالم، وحصل الاضطراب والتشويش، ودعا ذلك إلى تخريب العالم وفناء الخلق، فلما شاهدتم أن مخالفة الملك المجازي تفضي آخر الأمر إلى تخريب العالم وفناء الخلق فانظروا إلى مخالفة ملك الملوك كيف يكون تأثيرها في زوال المصالح وحصول المفاسد؟

وتمام تقريره أنه تعالى بيّن أن الكفر سبب لخراب العالم، قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 90-91] وبيّن أن طاعته سبب للمصالح، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132] فيا أيها الرعية كونوا

مطيعين لملوككم، ويا أيها الملوك كونوا مطيعين لملك الملوك حتى
تنتظم مصالح العالم.

الحكم الخامس: أنه لما وصف نفسه بكونه ملكاً ليوم الدين أظهر
للعالمين كمال عدله فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46] ثم
بين كيفية العدل فقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: 47] فظهر بهذا أن كونه ملكاً حقاً ليوم الدين إنما
يظهر بسبب العدل، فإن كان الملك المجازي عادلاً كان ملكاً حقاً وإلا
كان ملكاً باطلاً، فإن كان ملكاً عادلاً حقاً حصل من بركة عدله الخيرُ
والراحة في العالم، وإن كان ملكاً ظالماً ارتفع الخير من العالم.

يروى أن أنوشروان خرج إلى الصيد يوماً، وأوغل في الركض،
وانقطع عن عسكره واستولى العطش عليه، ووصل إلى بستان، فلما
دخل ذلك البستان رأى أشجار الرمان فقال لصبي حضر في ذلك
البستان: أعطني رمانة واحدة، فأعطاه رمانة فشقها وأخرج حبها وعصرها
فخرج منه ماء كثير فشربه، وأعجبه ذلك الرمان، فعزم على أن يأخذ
ذلك البستان من مالكه، ثم قال لذلك الصبي: أعطني رمانة أخرى،
فأعطاه فعصرها فخرج منها ماء قليل فشربه فوجده عفصاً مؤذياً، فقال:
أيها الصبي لم صار الرمان هكذا؟ فقال: الصبي: لعل ملك البلد عزم
على الظلم، فلأجل شؤم ظلمه صار الرمان هكذا، فتاب أنوشروان في
قلبه عن ذلك الظلم، وقال لذلك الصبي: أعطني رمانة أخرى، فأعطاه
فعصرها فوجدها أطيب من الرمانة الأولى، فقال للصبي: لم بدلت هذه

الحالة؟ فقال الصبي: لعل ملك البلد تاب عن ظلمه، فلما سمع أنوشروان هذه القصة من ذلك الصبي وكانت مطابقة لأحوال قلبه تاب بالكلية عن الظلم، فلا جرم بقي اسمه مخلداً في الدنيا بالعدل.

أما الأحكام المفرّعة على كونه «مالكاً» فهي أربعة:

الحكم الأول: قراءة «المالك» أرجى من قراءة الملك؛ لأن أقصى ما يرجى من الملك العدل والإنصاف، وأن ينجو الإنسان منه رأساً برأس، أما «المالك» فالعبد يطلب منه الكسوة والطعام والرحمة والتربية، فكأنه تعالى يقول: أنا مالكم فعلي طعامكم وثيابكم وثوابكم وجنتكم.

الحكم الثاني: «الملك» وإن كان أغنى من «المالك» غير أن «الملك» يطمع فيك و«المالك» أنت تطمع فيه، وليست لنا طاعات ولا خيرات، فلا يريد أن يطلب منا يوم القيامة أنواع الخيرات والطاعات، بل يريد أن نطلب منه يوم القيامة الصفح والمغفرة وإعطاء الجنة بمجرد الفضل، فلهذا السبب قال الكسائي: اقرأ مالك يوم الدين لأن هذه القراءة هي الدالة على الفضل الكثير والرحمة الواسعة.

الحكم الثالث: أن «الملك» إذا عرض عليه العسكر لم يقبل إلا من كان قويّ البدن صحيح المزاج، أما من كان مريضاً فإنه يرده ولا يعطيه شيئاً من الواجب، أما «المالك» إذا كان له عبد فإن مرض عالجته وإن ضعف أعانه وإن وقع في بلاء خلصه، فالقراءة بلفظ «المالك» أوفق للمذنبين والمساكين.

الحكم الرابع: <المالك> له هيبة وسياسة، و<المالك> له

رأفة ورحمة، واحتياجنا إلى الرأفة والرحمة أشد من احتياجنا إلى الهيبة والسياسة.

11 - ويمكن أن يقال: إذا كانت نسبة «الملك» هي نسبة «المالك» ف«المالك» أبلغ، مثال ذلك: أن نقدر آهلة عظيمة ثم نقدر لها رجلاً يملكها أجمع أو رجلاً هو ملكها فقط إنما يملك التدبير والأحكام فلا شك أن «المالك» أبلغ تصرفاً وأعظم، إذ إليه إجراء قوانين الشرع فيها كما لكل أحد في ملكه، ثم عنده زيادة التملك، وملك الله تعالى ليوم الدين هو على هذا الحد، فهو مالكة وملكه، والقراءتان حسنتان.

وحكى أبو علي الفارسي في حجة من قرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أن أول من قرأ «ملك يوم الدين» مروان بن الحكم وأنه قد يدخل في <المالك> ما لا يدخل في <الملك> فيقال: مالك الدنانير والدرهم والظير والبهايم ولا يقال: ملكها، ومالك في صفة الله تعالى يعم ملك أعيان الأشياء وملك الحكم فيها، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَللَّهُمَّ مَلِكِ الْمَلِكِ﴾.

قال أبو بكر ابن السراج: الأخبار الواردة تبطل أن أول من قرأ: «ملك يوم الدين» مروان بن الحكم، بل القراءة بذلك أوسع، ولعل قائل ذلك أراد أنه أول من قرأ في ذلك العصر أو البلد ونحوه.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق: وفي الترمذي أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما قرؤوا «ملك يوم الدين» بغير ألف، وفيه

أيضاً أنهم قرؤوا ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بألف، قال أبو بكر: والاختيار عندي «ملك يوم الدين» لأن المَلِك والمَلِك يجمعهما معنى واحد وهو الشد والربط كما قالوا: ملكت العجين أي شدته...إلى غير ذلك من الأمثلة، والمَلِك أفخم وأدخل في المدح، والآية إنما نزلت بالثناء والمدح لله سبحانه، فالمعنى أنه ملك الملوك في ذلك اليوم، لا مُلْكَ لغيره.

قال: والوجه لمن قرأ «مالك» أن يقول: إن المعنى أن الله تعالى يملك ذلك اليوم أن يأتي به كما يملك سائر الأيام لكن خصصه بالذكر لعظمه في جمعه وحوادثه.

قال أبو الحسن الأخفش: يقال: مَلِكٌ بَيْنَ المَلِكِ - بضم الميم - ومالك بَيْنَ المَلِكِ والمَلِكِ - بفتح الميم وكسرهما - وزعموا أن ضم الميم لغة في هذا المعنى، وروى بعض البغداديين لي في هذا الوادي: مَلِكٌ ومَلِكٌ ومُلْكٌ بمعنى واحد.

وقيل: «مالك» أوسع من «ملك» لأنه يقال: مالك العبد والدابة، ولا يقال: ملك هذه الأشياء، ولأنه لا يكون ملكاً لشيء إلا وهو يملكه، وقد يكون مالكاً لشيء ولا يملكه، وقيل: ملك أولى، لأن كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً، وقيل: هما بمعنى واحد مثل: فرهين وفرهين.

وقيل: إن وُصِفَ اللهُ سبحانه بأنه «ملك» كان ذلك من صفات ذاته، وإن وُصِفَ بأنه «مالك» كان ذلك من صفات فعله.

12 - «الملك» عبارة عن القدرة، فكونه مالكاً وملكاً عبارة عن

القدرة، وهاهنا بحث: وهو أنّ الله تعالى إما أن يكون ملكاً للموجودات أو للمعدومات، والأول باطل، لأن إيجاد الموجودات محال، فلا قدرة لله على الموجودات إلا بالإعدام، وعلى هذا التقرير فلا مالك إلا للعدم، والثاني باطل أيضاً؛ لأنه يقتضي أن تكون قدرته ومملكه على العدم، ويلزم أن يقال: إنه ليس لله في الموجودات مالكية ولا ملك، وهذا بعيد.

والجواب: أن الله تعالى مالك الموجودات، ومَلِكُهَا، بمعنى أنه تعالى قادر على نقلها من الوجود إلى العدم، أو بمعنى أنه قادر على نقلها من صفة إلى صفة، وهذه القدرة ليست إلا لله تعالى، فالملك الحق هو الله سبحانه وتعالى، إذا عرفت أنه الملك الحق فنقول: إنه الملك ليوم الدين، وذلك لأن القدرة على إحياء الخلق بعد موتهم ليست إلا لله، والعلم بتلك الأجزاء المتفرقة من أبدان الناس ليس إلا لله، فإذا كان الحشر والنشر والبعث والقيامة لا يتأتى إلا بعلم متعلق بجميع المعلومات وقدرة متعلقة بجميع الممكنات، ثبت أنه لا مالك ليوم الدين إلا الله، وتتمام الكلام في هذا الفصل متعلق بمسألة الحشر والنشر.

فإن قيل: إن «المالك» لا يكون مالكاً للشيء إلا إذا كان المملوك موجوداً، والقيامة غير موجودة في الحال، فلا يكون الله مالكاً ليوم الدين، بل الواجب أن يقال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، بدليل أنه لو قال: أنا قاتلُ زيدٍ، فهذا إقرار، ولو قال: أنا قاتلُ زيداً - بالتثنية - كان تهديداً ووعيداً؟

قلنا: الحق ما ذكرتم، إلا أن قيام القيامة لما كان أمراً حقاً لا يجوز الإخلال في الحكم والحكمة جعل وجود القيامة كالأمر القائم في الحال الحاصل في الحال، وأيضاً من مات فقد قامت قيامته فكانت القيامة حاصلة في الحال، فزال السؤال.

13 - أنه تعالى ذكر في هذه السورة من أسماء نفسه خمسة: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك. والسبب فيه كأنه يقول: خلقتك أولاً فأنا إله، ثم رببتك بوجوه النعم فأنا رب، ثم عصيت فسترْتُ عليك فأنا رحمن؛ ثم تبت فغفرت لك فأنا رحيم، ثم لا بد من إيصال الجزاء إليك فأنا مالك يوم الدين.

14 - قال الفخر الرازي في تفسيره: أيها الملوك لا تغتربوا بما لكم من المال والملك، فإنكم أسراء في قبضة قدرة مالك يوم الدين، ويا أيها الرعية إذا كنتم تخافون سياسة الملك، أفما تخافون سياسة ملك الملوك الذي هو مالك يوم الدين؟

15 - أخرج أبو القاسم البغوي والماوردي معاً في «معرفة الصحابة» والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الدلائل» عن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: كنا مع رسول الله، في غزوة، فلقي العدو فسمعته يقول: يا مالك يوم الدين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: فلقد رأيت الرجال تُصرع، تضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها.

16 - يوم الدين هو يوم الجزاء والحساب للخلائق. وفي هذا

اليوم العظيم ، يوم الوعيد ، يوم الدين ، يدينهم الله عز وجل بأعمالهم ،
إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، إلا من عفا عنه ..

هذا اليوم ينتظر الخلائق: برّهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ،
منافقهم ومشرِكهم .. ظهورَ النتيجة الكبرى: فنتيجة الإيمان بالله وطاعته
دخول الجنة ، ونتيجة الكفر بالله تعالى وعصيانه دخول النار .. أعاذنا
الله وإياكم من النار وحرّها .

وسمى الله تعالى يوم الدين اليوم المشهود ، فقال تعالى في سورة
هود: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ
النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾
[103-104] . وهو يوم مشهود لأنه:

- يشهده أهل السماء والأرض .

- ويشهده البرّ والفاجر ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما .

- ويوم عظيم تحضره الملائكة .

- ويشهده أهل السماء والأرض ، والأولون والآخرون .

هذا اليوم المشهود يوم عظيم ، تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه
الرسل ، ويحشر الخلائق بأسرهم ، من الإنس والجن والطيور والأنعام
والوحوش ، يوم يحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرّة .

17 - كأن الله تعالى قال: أعطاني عبدي المجد والشرف على

العالم في الدنيا والآخرة لأنني جازيت العالم على أعمالهم في الدنيا
والآخرة ، فيوم الدين هو يوم الجزاء ، وما أصابت المصائب من أصابته

إلا جزاءً بما كسبت يده، مع كون الله تعالى يعفو عن كثير، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، وكذلك ما ظهر من الفتن والخراب والحروب والطاعون فهو كله جزاء أعمال عملوها فاستحقوا بذلك ما ظهر من الفساد في البرّ من خسف وقحط ووباء وقتل وأسر وغير ذلك، وكذلك في البحر مثل هذا من غرق وتجرّع غصص لزعزعة ريح مدمرة، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ وهو ما ذكرناه، ومن جنس ما قرّناه ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ أي بما عملوا ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ كما أخبرنا عنهم، فصبر على ذلك، ولا شخص أصبر على أذى من الله لاقتداره على الأخذ، فهو المؤمن الكامل في إيمانه بكمال صبره وشكره.

فأما تصديقه من كون الحياء من الإيمان وهو المؤمن فإنه صدق من قبوله لما خلق الله فيه من المعاصي والذنوب، وكل ما خلق الله فيه لولا قبوله ما نفذ الاقتدار فيه، وأن العبد إذا قامت هذه الصفات الإلهية فمن هذه الحضرة تأتيه ومنها يقبلها، فإنه لكونه على الصورة الإلهية يقبل من كل حضرة إلهية ما تعطيه لأن لها وجهاً إلى الحق ووجهاً إلى العبد، وكذلك كل حضرة تضاف إلى العبد مما يقول العلماء فيها تضاف إلى العبد بطريق الاستحقاق والأصالة، وإن كنا لا نقول بذلك فإن لكل حضرة منها أيضاً وجهين: وجهاً إلى الحق ووجهاً إلى العبد، فانتظم الأمر بين الله وبين خلقه واشتبه، فظهر في ذلك الحق بصفة الخلق،

وظهر الخلق بصفة الحق ، ووافق شئ طبقة ، فضمه واعتنقه ، والله غني عن العالمين ، فظهر في ذلك التعانق والتوافق لام الألف ، فكان ذلك العقد والرباط ، وأخذ العهود والعقود بين الله وبين عباده ، فقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ .

السخي حضرة السخاء

إن السخي هو الذي يعطي على قدر الذي يحتاجه المخلوق
لا زائد فيه ولا نقص لذا قد عينت فيه عليه حقوق

* * *

ليس السخيُّ الذي يعطي مجازفة وليس نعتَ الذي كان الوجود به وإنما سقته لله حين أتت فكن به عالماً فمن حقيقته فإن صورته في طيِّ صورتنا
إن السخي الذي يعطي على قدرٍ لكنه من نعوت الخلق والبشرِ به النصوص التي جاءتك في الخبِرِ ألا يقوم به شيء من الغير وإن سورته تُربي على السُّور

18 - «الديان» صيغة مبالغة فعله دَانَ ، يقال: دننهم فدانوا ، أي

قهرتهم فأطاعوا ، ودَانَه يدينه ديناً أي جازاه وحاسبه ، والديان الملك المطاع ، والحاكم والقاضي ، وهو الذي يدين الناس إما بمعنى يقهرهم وإما يحاسبهم ، فالديان هو الذي يقهرهم على الطاعة ، يقال: دان الرجل القوم إذا قهرهم ، فدانوا له إذا انقادوا .

والديان أيضاً بمعنى المحاسب المجازي ، لا يُضيع عمل عامل من

عباده ، فهو الذي يلي المجازاة يوم الدين ، والدِّين الجزاء ، والله مالك يوم الدين أي يوم الجزاء ، وقال خويلد بن نوفل الكلابي للحارث بن أبي شمر الغساني وكان ملكاً ظالماً:

يا أيها الملك المَخوف أما ترى ليلاً وصباحاً كيف يختلفان ؟
هل تستطيع الشمس أن تأتي بها ليلاً وهل لك بالمليك يدان ؟
يا حارٍ أيقن أن ملكك زائلٌ واعلم بأن كما تدين تدان

أي تجزى بما تفعل ، وقوله تعالى عن الكافرين: ﴿أَءَآذًا مِنَّا وَكُنَّا

تُرَابًا وَعِظْمًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصفات: 53] أي مجزيون محاسبون ، وفي مسند أحمد من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَتَوَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُفْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ تَنْطَحُهَا»، وكتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما والله إن الظلم شؤم ، وما زال المسيء هو الظلوم .

إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم
تنام ولم تنم عنك المنيا تنبئه للمنيّة يانؤوم

19 - وقد يكون «الديان» بمعنى صاحب الديوان ، وهو الكتاب

الحافظ للأعمال والحقوق ، ومنه ما رواه أحمد والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدَّوَّابِينُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثَةٌ: دِيَوَانٌ لَا يَعْجَبُ اللَّهُ بِهِ شَيْئاً ، وَدِيَوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئاً ، وَدِيَوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ ؛

فَأَمَّا الدِّيَّانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ فَالشِّرْكَ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ
 مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾، وَأَمَّا الدِّيَّانُ الَّذِي لَا يَعْْبَأُ
 اللَّهُ بِهِ شَيْئًا فَظَلَّمَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، مِنْ صَوْمٍ يَوْمٍ تَرَكَهُ أَوْ
 صَلَاةٍ تَرَكَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ، وَأَمَّا
 الدِّيَّانُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا فَظَلَّمَ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا:
 الْقِصَاصُ لَا مَحَالَةَ» والحديث ضعفه بعض العلماء.

20 - قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني أنه تعالى صاحب
 ذلك اليوم الذي يكون فيه الجزاء. و«المالك» هو المتصرف بالأمر
 والنهي، وقيل: هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود،
 ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى.

قال ابن عباس: مالك يوم الدين: قاضي يوم الحساب.
 وقيل: الدين الجزاء ويقع على الخير والشر يقال: كما تدين تدان،
 وقيل: هو يوم لا ينفع فيه إلا الدين، وقيل: الدين القهر، يقال: دنته
 فدان، أي قهرته فذل.

فإن قيل: لم حُصَّ يومُ الدين بالذكر مع كونه مالكاً للأيام كلها؟
 فالجواب: لأن ملك الأملاك يومئذ زائل فلا ملك ولا أمر يومئذ إلا
 الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ وقال: ﴿لَمَن
 أَمْلَكُ الْيَوْمِ لِلَّهِ الْوَجْدِ الْقَهَّارِ﴾ وقد يُسَمَّى في دار الدنيا آحادُ الناس
 بالملك، وذلك على المجاز لا على الحقيقة. وقال أبو حاتم: إن

«مالكاً» أبلغ في مدح الخالق من «ملك»، و«ملك» أبلغ في مدح المخلوقين من «مالك»، والفرق بينهما أن «المالك» من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكاً كان ملكاً، واختار هذا القول القاضي أبو بكر ابن العربي لأوجه:

الأول: أنك تُضيفه إلى الخاص والعام فتقول: مالك الدار والأرض والثوب، كما تقول: مالك الملوك.

الثاني: أنه يطلق على مالك القليل والكثير، وإذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحداً.

الثالث: أنك تقول: مالك الملك، ولا تقول: ملك المُلْك. قال ابن الحصار: إنما كان ذلك لأن المراد من «مالك» الدلالة على المَلِك - بكسر الميم - وهو لا يتضمن «المُلْك» - بضم الميم - و«مَلِك» يتضمن الأمرين جميعاً فهو أولى بالمبالغة.

ويتضمن أيضاً الكمال، ولذلك استحق الملك على من دونه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247] ولهذا قال عليه السلام: «الأئمة من قريش» [سنن البيهقي] وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من العجم وأشرف.

ويتضمن الاقتدار والاختيار، وذلك أمر ضروري في الملك، فإن لم يكن قادراً مختاراً نافذاً حكمه وأمره، قهره عدوه وغلبه غيره

وازدرته رعيتُهُ .

ويتضمن البطش والأمر والنهي والوعد والوعيد، ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعَذَّبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: 20-21] إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعاني الشريفة التي لا توجد في «المالك» .

قلت: وقد احتج بعضهم على أن «مالكا» أبلغ لأن فيه زيادة حرف، فلقارته عشر حسنات زيادة عن قرأ ملك . وهذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتت القراءة بـ«ملك» وفيه من المعنى ما ليس في «مالك» على ما بيّنا، والله أعلم .

21 - لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يُدعى به إلا الله

تعالى، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أخنع اسم عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك» زاد مسلم: «لا مالك إلا الله عز وجل» قال سفيان: مثل: شاهانشاه. وقال أحمد بن حنبل: سألت أبا عمرو الشيباني عن أخنع فقال: أوضع . وفي رواية أحمد في المسند: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَغِيظُ رَجُلٌ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبِئُهُ وَأَغِيظُهُ عَلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكِ الْأَمْلاَكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» .

قال ابن الحصار: وكذلك «ملك يوم الدين» و«مالك الملك» لا ينبغي أن يُختلف في أن هذا محرم على جميع المخلوقين كتحريم

ملك الأملاك سواء، وأما الوصف بمالك وملك فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما، قال الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: 247]، وقال ﷺ: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُرَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرَكَّبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ، أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ» [متفق عليه].

22 - إن قال قائل: كيف قال: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾، ويوم الدين لم يوجد بعد، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجد؟ قيل له: اعلم أن «مالكاً» اسم فاعل من ملك يملك، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده، وهو بمعنى الفعل المستقبل، ويكون ذلك عندهم كلاماً سديداً معقولاً صحيحاً، كقولك: هذا ضاربٌ زيدٌ غداً، أي سيضرب زيداً. وكذلك: هذا حاجٌ بيتِ الله في العام المقبل، تأويله سيحج في العام المقبل، أفلا ترى أن الفعل قد يُنسب إليه وهو لم يفعله بعد؟ وإنما أريد به الاستقبال، فكذلك قول عز وجل: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ على تأويل الاستقبال، أي سيملك يوم الدين، أو في يوم الدين إذا حضر.

ووجه ثان: أن يكون تأويل «المالك» راجع إلى القدرة، أي إنه قادر في يوم الدين، أو على يوم الدين وإحداثه، لأن «المالك» للشيء هو المتصرف في الشيء والقادر عليه، والله عز وجل مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء.

والوجه الأول أمس بالعربية وأنفذ في طريقها، قاله أبو القاسم الزجاجي .

ووجه ثالث: فيقال لم خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره؟ قيل له: لأنه كان في الدنيا منازعون في الملك مثل فرعون ونمرود وغيرهما، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه، وكلهم خضعوا له كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: 16] فأجاب جميع الخلق: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾، فلذلك قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، أي في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاضٍ ولا مجاز غيره سبحانه، لا إله إلا هو .

23 - «اليوم»: عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما. وقد يطلق اليوم على الساعة منه، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]، وجمعُ يوم: أيام، وأصله أيام فأدغم، وربما عبَّروا عن الشدة باليوم، يقال: يومٌ أيوم، كما يقال: ليلة ليلاء .

24 - «الدين»: الجزاء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتادة وغيرهم، وروي عن النبي ﷺ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: 25] أي حسابهم، وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾

[غافر: 17] و﴿الْيَوْمَ بُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 28] ، وقال: ﴿أَيَّانَا

لَمَدِينُونَ﴾ [الصفات: 53] أي مجزيئون محاسبون. قال لبيد:

حصادك يوماً ما زرعت وإنما يدان الفتى يوماً كما هو دائن
وقال آخر:

إذا رمونا رميناهم ودناهم مثل ما يقرضونا
وقال آخر:

واعلم يقيناً أن ملكك زائل واعلم بأن كما تدين تدان
وحكى أهل اللغة: دنته بفعله دينا «بفتح الدال» وديناً «بكسرها»
جزيته، ومنه «الديان» في صفة الرب تعالى أي المجازي، وفي
الحديث: «الكيس من دان نفسه» أي حاسب. وقيل: القضاء، وروي
عن ابن عباس أيضاً، ومنه قول طرفة:

لعمرك ما كانت حمولة معبد على جدها حرباً لدينك من مضر
ومعاني هذه الثلاثة متقاربة. والدين أيضاً: الطاعة، ومنه قول
عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوالٍ عصينا المملك فيها أن ندينا
فعلى هذا هو لفظ مشترك. قال ثعلب: دان الرجل إذا أطاع، ودان
إذا عصى، ودان إذا عز، ودان إذا ذل، ودان إذا قهر، فهو من الأضداد.
ويطلق الدين على العادة والشأن كما قال: أهذا دينه أبداً وديني.

25 - ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ إِتْبَاعُ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ بِهَذَا

ليس لمجرد سردِ صفاتٍ من صفاته تعالى ، بل هو مما أثارته الأوصاف المتقدمة ، فإنه لما وصف تعالى بأنه «رب العالمين الرحمن الرحيم» وكان ذلك مفيداً لما قدمناه من التنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين في سائر أكوانهم ، ثم التنبيه بأن تصرفه تعالى في الأكوان والأطوار تصرفٌ رحمة عند المعبر ، وكان من جملة تلك التصرفات تصرفات الأمر والنهي المعبر عنها بالتشريع الراجع إلى حفظ مصالح الناس عامة وخاصة ، وكان معظم تلك التشريعات مشتملاً على إخراج المكلف عن داعية الهوى الذي يلائمه اتباعه وفي نزعه عنه إرغام له ومشقة ، خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة في فاتحة الكتاب مخففاً عن المكلفين عبء العصيان لما أمروا به ومثيراً لأطماعهم في العفو عن استخفافهم بذلك ، وأن يمتلكهم الطمع فيعتمدوا على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكدة ، فلا يخشوا غائلة الإعراض عن التكليف ، لذلك كان من مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنه صاحب الحُكم في يوم الجزاء: ﴿أَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: 17] ، لأن الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب لحفظ مصالح العالم ، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد ، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة . ولذلك اختير هنا وصف «ملك» أو «مالك» مضافاً إلى يوم الدين : فأما «ملك» فهو مؤذن بإقامة العدل وعدم الهوادة فيه ، لأن شأن الملك أن يدبر صلاح الرعية ويذب عنهم ، ولذلك أقام الناس الملوك عليهم . ولو قيل : «رب يوم الدين» لكان فيه مطمع للمفسدين يجدون من شأن

الرب رحمة وصفحاً، وأما «مالك» فمثل تلك في إشعاره بإقامة الجزاء على أوفق كفياته بالأفعال المَجْزِيَّ عليها.

فإن قلت: فإذا كان إجراء الأوصاف السابقة مُؤَدِّنًا بأن جميع تصرفات الله تعالى فينا رحمة، فقد كفى ذلك في الحث على الامتثال والانتهاز، إذ المرء لا يخالف ما هو رحمة به، فلا جرم أن ينساق إلى الشريعة باختياره؟

أجيب: المخاطبون مراتب: منهم من لا يهتدي لفهم ذلك إلا بعد تعقيب تلك الأوصاف بهذا الوصف، ومنهم من يهتدي لفهم ذلك ولكنه يظن أن في فعل الملائم له رحمة به أيضاً، فربما أثر الرحمة الملائمة على الرحمة المنافرة وإن كانت مفيدة له، وربما تأول الرحمة بأنها رحمة للعموم وأنه إنما يناله منها حظ ضعيف، فأثر رحمة حظه الخاص به على رحمة حظه التابع للعام.

وربما تأول أن الرحمة في تكاليف الله تعالى أمر أغلبي لا مطرد، وأن وصفه تعالى بالرحمن بالنسبة لغير التشريع من تكوين ورزق وإحياء، وربما ظن أن الرحمة في المال فأثر عاجل ما يلائمه. وربما علم جميع ما تشتمل عليه التكاليف من المصالح باطراد ولكنه ملكته شهوته وغلبت عليه شقوته.

فكل هؤلاء مظنة للإعراض عن التكاليف الشرعية، ولأمثالهم جاء تعقيب الصفات الماضية بهذه الصفة تذكيراً لهم بما سيحصل من الجزاء يوم الحساب لئلا يفسد المقصود من التشريع حين تتلفه أفهام

كل متأول مضيع .

فأصل مادة «ملك» في اللغة ترجع تصارينها إلى معنى الشد والضبط كما قاله ابن عطية، ثم يتصرف ذلك بالحقيقة والمجاز، والتحقيق والاعتبار، وقراءة «ملك» بدون ألف تدل على تمثيل الهيئة في نفوس السامعين لأن «المَلِك» بفتح الميم وكسر اللام هو ذو المُلْك بضم الميم، والمُلْك أخص من المِلْك، إذ المُلْك - بضم الميم - هو التصرُّف في الموجودات والاستيلاء، ويختصُّ بتدبير أمور العقلاء وسياسة جمهورهم وأفرادهم ومواطنهم، فلذلك يقال: مَلِكُ الناس، ولا يقال: مَلِكُ الدوابِّ أو الدراهم، وأما المِلْك - بكسر الميم - فهو الاختصاص بالأشياء ومنافعها دون غيره.

*** **

تفسير قوله تعالى

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

وفيه سبع وأربعون مسألة:

1 - أخرج مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ وَمَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» .
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .
يَقُولُ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي .

يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ . يَقُولُ اللَّهُ: أَتَيْتَنِي عَبْدِي .
يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . يَقُولُ اللَّهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي .
يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ .

يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» .

2 - قِرَاءَةُ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ مَعَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ حُكْمِهَا تَقْتَضِي أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّانَا بِفِعْلِ الْحَمْدِ، وَتَعْلِيمِ لَنَا كَيْفَ نَحْمَدُهُ وَكَيْفَ الشَّنَاءُ عَلَيْهِ

وَكَيْفَ الدُّعَاءُ لَهُ؟ وَدَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ تَقْدِيمَ الْحَمْدِ وَالشَّانِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الدُّعَاءِ أَوْلَى وَأُخْرَى بِالْإِجَابَةِ؛ لِأَنَّ السُّورَةَ مُفْتَتِحَةً بِذِكْرِ الْحَمْدِ ثُمَّ بِالشَّانِ عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إِلَى ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ثُمَّ الإِعْتِرَافِ بِالْعِبَادَةِ لَهُ وَإِفْرَادِهَا لَهُ دُونَ غَيْرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ثُمَّ الإِسْتِعَانَةَ بِهِ فِي الْقِيَامِ بِعِبَادَتِهِ فِي سَائِرِ مَا بَنَا الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثُمَّ الدُّعَاءُ بِالتَّشْيِيتِ عَلَى الْهِدَايَةِ الَّتِي هَدَانَا لَهَا مِنْ وُجُوبِ الْحَمْدِ لَهُ وَاسْتِحْقَاقِ الشَّانِ وَالْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هُوَ دُعَاءٌ لِلْهِدَايَةِ وَالتَّشْيِيتِ عَلَيْهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، إِذْ غَيْرُ جَائِزٍ ذَلِكَ فِي الْمَاضِي؛ وَهُوَ التَّوْفِيقُ عَمَّا ضَلَّ عَنْهُ الْكُفَّارُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَحَمْدِهِ وَالشَّانِ عَلَيْهِ، فَاسْتَحَقُّوا لِذَلِكَ غَضَبَهُ وَعِقَابَهُ. وَكَذَلِكَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هُوَ فِي قُوَّةٍ: لَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ وَلَا نَسْتَعِينُ بِسِوَاكَ، وَكُلُّ ذِي ذَوْقٍ سَلِيمٍ يَفْهَمُ هَذَا الْإِخْتِصَاصَ مِنْ عِلَّةِ السِّيَاقِ.

3 - «إِيَّاكَ» مَفْعُولُ «نَعْبُدُ»، وَقُدِّمَ لِلتَّعْظِيمِ وَالِاهْتِمَامِ بِهِ، وَالدَّلَالَةُ عَلَى الْحَصْرِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (نَعْبُدُكَ وَلَا نَعْبُدُ مَعَكَ غَيْرَكَ)، وَلِتَقْدِيمِ مَا هُوَ مُقَدَّمٌ فِي الْوُجُودِ وَهُوَ الْمَلِكُ الْمَعْبُودُ، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْعَابِدَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ إِلَى الْمَعْبُودِ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ، وَمِنْهُ إِلَى الْعِبَادَةِ، لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا عِبَادَةٌ صَدَرَتْ عَنْهُ، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا نِسْبَةٌ

شريفة إليه ، وَوُضِلَّةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِّ ، فَإِنَّ الْعَارِفَ إِنَّمَا يَحِقُّ وَصُولَهُ إِذَا اسْتَغْفَرَ فِي مَلَاخِظَةِ جَنَابِ الْقُدْسِ ، وَغَابَ عَمَّا عَدَاهُ ، حَتَّى إِنَّهُ لَا يِلَاحِظُ نَفْسَهُ وَلَا حَالاً مِنْ أَحْوَالِهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَجَلُّ مِنْ تَجَلِّيَاتِهِ وَمُظْهِرٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَلِذَلِكَ فَضَّلَ مَا حَكَى اللَّهُ عَنْ حَبِيبِهِ ﷺ حِينَ قَالَ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التَّوْبَةُ: 40] ، عَلَى مَا حَكَاهُ عَنْ كَلِيمِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَّهَدِينِ﴾ [الشُّعْرَاءُ: 62] ، أَيْ: حَيْثُ صَرَّحَ بِمَطْلُوبِهِ .

ولما بلغ الثناء الغاية القصوى قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «إِيَّا» في المشهور ضمير نصب منفصل ، واللواحق حروف زيدت لبيان الحال ، وقيل: أسماء أضيف هو إليها ، وقيل: الضمير هي تلك اللواحق و«إيا» دعامة ، وقيل: الضمير هو المجموع ، وقيل: «إيا» مظهر مبهم مضاف إلى اللواحق ، وزعم أبو عبيدة اشتقاقه وهو جهل عجيب ، والبحث مستوفى في علم النحو ، وقد جاء «وياك» بقلب الهمزة واواً ، ولا أدري أهو عن القراء أم عن العرب؟ وقرأ عمرو بن فائد عن أبي «إياك» بكسر الهمزة وتخفيف الياء ، وأبو الفضل الرقاشي «أَيَّاك» بفتح الهمزة والتشديد ، وأبو السوار الغنوي «هياك» بإبدال الهمزة مكسورة ومفتوحة هاء ، والجمهور «إيَّاك» بالكسر والتشديد .

و«إياك» مفعول «نستعين» وقدّم أيضاً للاختصاص والاهتمام ، كما تقدم في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ . وكرّر الضمير ولم يقل: إياك نعبد ونستعين ؛ لأن إظهاره أبلغ في إظهار الاعتماد على الله ، وأقطع في إحضار التعلق

بالله والإقبالِ على الله، وأمدحُ، ألا ترى أن قولك: بك أنتصر وبك أحتمي وبك أنال مطالبني، أبلغ وأمدح من قولك: بك أنتصر وأحتمي... إلخ؟

4 - وَقَدَّمَ الْعِبَادَةَ عَلَى الْإِسْتِعَانَةِ لِتَوَافُقِ رُؤُوسِ الْآيِ، وَلِيُعْلَمَ مِنْهُ أَنَّ تَقْدِيمَ الْوَسِيلَةِ عَلَى طَلْبِ الْحَاجَةِ أَدْعَى إِلَى الْإِجَابَةِ، فَإِنَّ مَنْ تَلَبَّسَ بِخِدْمَةِ الْمَلِكِ وَشَرَعَ فِيهَا بِحَسَبِ وَسْعِهِ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ الْإِعَانَةَ عَلَيْهَا أُجِيبَ إِلَى مَطْلَبِهِ، بِخِلَافِ مَنْ كَلَّفَهُ الْمَلِكُ بِخِدْمَتِهِ، فَقَالَ: أَعْطِنِي مَا يَعْئِنُنِي عَلَيْهَا، فَهُوَ سَوْءُ أَدَبٍ.

وأيضاً: مَنْ اسْتَحْضَرَ الْأَوْصَافَ الْعِظَامَ مَا أَمَكْنَهُ إِلَّا الْمَسَارِعَةَ إِلَى الْخُضُوعِ وَالْعِبَادَةِ.

وأيضاً: لَمَّا نَسَبَ الْمُتَكَلِّمُ الْعِبَادَةَ إِلَى نَفْسِهِ أَوْهَمَ ذَلِكَ تَبَجُّحاً وَاعْتِدَاداً مِنْهُ بِمَا يَصْدُرُ عَنْهُ، فَعَقِبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دَفْعاً لِذَلِكَ التَّوَهُمِ.

والعبادة أعلى مراتب الخضوع ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً فعلها إلا لله تعالى، لأنه المستحق لذلك لكونه مولياً لأعظم النعم من الحياة والوجود وتوابعهما، ولذلك يحرم السجود لغيره سبحانه، لأن وضع أشرف الأعضاء على أهون الأشياء - وهو التراب وموطئ الأقدام والنعال - غاية الخضوع، وقيل: لا تستعمل إلا في الخضوع له سبحانه. ومنه طريق مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّلٌ.

والاستعانة: طلب المعونة، والمراد طلب المعونة في المهمات كُلِّهَا، أو في أداء العبادات.

والضمير المستتر في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة، أو له ولسائر الموجودين. أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقبل ببركتها ويُجاب إليها، ولهذا شرعت الجماعة. قاله البيضاوي.

5 - و«نعبد»: نطيع مع غاية الذل لك والتعظيم والحب، من قوله <إياك نعبد> فإن ما يُعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادته وهي شكره وحبه وخشيته فطري ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم.

وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول يستحيل تعطيل العالم عنه كما يستحيل تعطيله عن الصانع، فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل ولم يؤمن به، ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به.

6 - والتحقيق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علماً ومعرفة وعملاً وحالاً يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلاً نوعي قصده فاسداً، وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه وهي من أعظم القواطع عنه فحاله أيضاً كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿٧﴾ ، فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء: عبودية الله لا غيره ،
بأمره وشرعه لا بالهوى ولا بآراء الرجال، وأوضاعهم ورسومهم
وأفكارهم، والاستعانة به على عبوديته لا بنفس العبد وقوته وحوله
ولا بغيره .

7 - إن القلب يعرض له مرضان عظيمان ، إن لم يتداركهما العبد
تراميا به إلى التلف ، ولا بد وهما الرياء والكبر ، فدواء الرياء بـ«إياك
نعبد» ، ودواء الكبر بـ«إياك نستعين» ، «إياك نعبد» تدفع الرياء ، «وإياك
نستعين» تدفع الكبرياء ، فإذا عوفي من مرض الرياء بـ«إياك نعبد» ،
ومن مرض الكبرياء والعجب بـ«إياك نستعين» ، ومن مرض الضلال
والجهل بـ«اهدنا الصراط المستقيم» ، عوفي من أمراضه وأسقامه ورفل
في أثواب العافية وتمت عليه النعمة ، وكان من المنعم عليهم «غير
المغضوب عليهم» وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ،
«ولا الضالين» وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه .

8 - العبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع ،
والعرب تقول: طريق معبد، أي مذلل ، والتعبد: التذلل والخضوع ،
فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا
محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محبباً خاضعاً ، ومن هاهنا كان
المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه
محبوباً لهم - بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم -
منكرين لكونه إلهاً وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم .

9 - فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاذه، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأملها.

قال الشيخ أبو العباس الحرّاني: تأملتُ أنفع الدعاء فإذا هو سؤال

العون على مرضاته، ثم رأيتُه في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومقابل هؤلاء القسم الثاني وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهوته لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله مَنْ في السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمد هؤلاء وهؤلاء؛ وأبغض خلقه عدوّه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجةً فأعطاه إياها ومتّعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته كانت زيادة له في شقوته وبُعدّه عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إيّاه ولم يكن عوناً على طاعته كان مبعداً له عن مرضاته قاطعاً له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً لا بخلاً. وهذا إنما يفعله بعده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه، فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي

حوائج غيره فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا حملة على الأقدار وعتابه الباطن لها كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدر
فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبه القدر واتهامه،
وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي والأمر ليس
إليّ؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

**10 - فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيراً وعاقبته مغيبة
عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدأ فعلقه على شرط علمه تعالى فيه
الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان
بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا
اهتداء له إلى تفاصيلها ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بل إن وكل
إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره.**

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال تسأله أن يجعله عوناً لك على
طاعته وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه ولا مبعداً عن
مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه
كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان
يמתحن بهما عباده، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ
فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ،
فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴿١٧﴾ أَي لَيْسَ كُلُّ مَنْ أُعْطِيَته وَنَعَّمْتَهُ وَخَوَّلْتَهُ فَقَدَ

أكرمته ، وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء عليه وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك أم يكفرني فأسلبه إياه وأحول فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق أم يتسخط فيكون حظه السخط؟

فردَّ الله سبحانه علي من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة ، فكأنه يقول: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي ولم أبتله بالفقر لهوانه علي. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتصر على المؤمن لا لإهانتته ، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته ، فله الحمد على هذا ، وعلى هذا ، وهو الغني الحميد .

فَعَادَتِ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

11 - الناس في هذين الأصلين «العبادة والاستعانة» على

مواقف ، فمن شهد تفرُّدَ الله بالنعف والضر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه ، فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه وأنزلها به ، فقضيت له وأسعف بها ، سواء كانت أموالاً أو رياسةً أو جاهاً عند الخلق أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، ولكن لا عاقبة له فإنها من جنس المُلْك الظاهر ، والأموال لا تستلزم الإسلام ، فضلاً عن الولاية والقرب من الله ، فإن المُلْك والجاه والمال والحال معطاةٌ للبرِّ والفاجر والمؤمن والكافر ،

فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إيّاه ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين ، فهو من أجهل الجاهلين وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه ، فالحال من الدنيا كالمملك والمال: إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته وتنفيذ أوامره ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه ، ومبيدٌ له عن الله ، وملحق له بالملوك الظلمة والأغنياء الفجرة .

12 - إذا عُرف هذا فلا يكون العبد متحققاً بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ . والثاني: الإخلاص للمعبود .

فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة ، وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة ، فأعمالهم كلها لله ، وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ومنعهم لله ، وحبهم لله وبغضهم لله ، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده ، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ، ولا هرباً من ذمهم ، بل قد عدّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور ، لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم

البتة ، بل من جاهل بشأنهم وجاهل بربه .

فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله ، وعطاءه ومنعه ، وحبه وبغضه ، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس أثر معاملة الله على معاملتهم .

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ولما يحبه ويرضاه ، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه ، وهو الذي ابتلى عباده بالموت والحياة لأجله ، قال الله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2] وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً .

قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه ، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ما كان لله تعالى .

والصوابُ ما كان على السنّة ، وهذا هو المذكور في قوله تعالى :

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَدًّا﴾ ، وفي قوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه على متابعة أمره ، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله يرد عليه أحوج ما هو إليه هباءً منثوراً ، وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي ﷺ : «كل عمل ليس

عليه أمرنا فهو رد» وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله تعالى إلا بُعداً، فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره لا بالآراء والأهواء.

13 - كل من لا إخلاص له ولا متابعة فليس عمله موافقاً لشرع

وليس هو خالصاً للمعبود كأعمال المتزيّنين للناس المرأئين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله عز وجل، ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «يفرحون بما أتوا» من البدعة والضلالة والشرك، «ويحبون أن يحمدوا» باتّباع السنة والإخلاص.

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقير والعبادة عن الصراط المستقيم، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

14 - ومن الناس في أصلي «العبادة والاستعانة» من هو مخلص

في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقير وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قرينة إلى الله، فهذا حاله كمن يظن أن سماع المُكء والتصديّة قرينة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قرينة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قرينة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قرينة، وأمثال ذلك كطاعة المرأئين، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليُقَال،

ويقرأ القرآن ليُقال... فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة، فلا تقبل، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر والإخلاص له في العبادة، وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

15 - أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها،

وأحفظها بالإيثار والتخصيص أربع طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:
الصف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد. وقالوا: الأجر على قدر المشقة، ورووا حديثاً لا أصل له: «أفضل الأعمال أحمرها» أي أصعبها وأشقها.

وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس، قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاق إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها. ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم رأوا هذا مقصوداً لغيره، وأن المقصود به عكوفُ

القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبه، والإنابة إليه والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له .

ثم هؤلاء قسمان: فالعارفون المتبعون منهم إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرقههم وأذهب جمعيتهم، والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه، وربما يقول قائلهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلاً فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟!

ثم هؤلاء أيضاً قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته، ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل وتعلم العلم النافع لجمعيته .

وسأل بعض هؤلاء شيخاً عارفاً فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟ فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك، وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب، ومن أثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء

والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدوا له وعملوا عليه، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» [رواه أبو يعلى]، واحتجوا بأن عمل العابد قاصرٌ على نفسه، وعمل النافع متعدُّ إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟!!

وقالوا: ولهذا كان «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» [رواه أبو داود والترمذي]، وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النَّعَم» [متفق عليه]، وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي، واحتجوا بقوله: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً» [رواه مسلم]، واحتجوا بقوله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير» [رواه الترمذي]، ويقولون: «إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها» [رواه أبو داود والترمذي].

واحتجوا بأن صاحبَّ العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحبُ النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي نُسب إليه، واحتجوا بأن الأنبياء إنما بُعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم، ولم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس.. ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله ونفع عباده والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة العملُ على مرضاة الربِّ في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهادِ الجهادُ، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن .
والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .
والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به .
والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجِدُّ والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعدَ كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاء أو البدن أو المال الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أوردك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعياً القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأنَّ الله تعالى يُخاطبك به فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتابٌ

من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء
والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبّد لا سيما
التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوّة
والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل
من الإقبال على تعليمهم العلم وإقراءهم القرآن عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور
جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداء واجب
الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط
الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير ، فهي خير من اعتزالهم فيه ؛ واعتزالهم
في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو
قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل في كل وقت وحال إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت
والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبّد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبّد
المقيّد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه
يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد ؛

وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبّد بعينه يُؤثره على غيره ، بل غرضه تتبّع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبّده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلّما رُفعت له منزلةً عمل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى .

فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ، فإن رأيت العلماء رأيتهم ، وإن رأيت العباد رأيتهم معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيتهم معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيتهم معهم ، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيتهم معهم ... فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيدته القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه .

فهذا هو المتحقّق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقاً ، القائمُ بهما صدقاً ، ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسّر ، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت وبوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حرٌّ مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الأمر أنّي توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محقّ ، ويستوحش منه كل مُبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها ، وكلها منفعة حتى شوكتها ، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله ، فهو لله وبالله ومع الله .

قد صحب الله بلا خَلْق، وصحب الناس بلا نَفْس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين وتخلّى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلّى عنها، فواهاً له ما أغربَه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه! والله المستعان وعليه التكلان.

16 - ثم إنَّ من الناس من هم على مقصود غريب في منفعة العبادة وحكمتها وهم: نفاة الحكم والتعليل الذين يردُّون الأمر إلى محض المشيئة وصرف الإرادة، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن تكون سبباً لسعادةٍ في معاش ولا معادٍ، ولا سبباً لنجاة، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا في الخلق: إنه لم يَخْلُق ما خلقه لعله ولا لغاية هي المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه، وليس في المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها، ولا فيها قوَى ولا طبائع، فليست النار سبباً للإحراق، ولا الماء سبباً للإرواء والتبريد وإخراج النبات، ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضي ذلك، وحصول الإحراق والريّ ليس بهما، لكن بإجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا، لا بسبب ولا بقوة قامت به، وهكذا الأمر عندهم في أمره الشرعي سواء، لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحذور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور به صفةً اقتضت حسنه، ولا المنهيّ عنه صفةً اقتضت قبحه.

وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ولا يتنعمون بها،
وليست الصلاة قرة أعينهم، وليست الأوامر سرور قلوبهم
وغيذاء أرواحهم وحياتهم، ولهذا يسمونها تكاليف، أي: قد كُلفوا بها
وحمّلوا ثقلها.

17 - بنى الله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما
يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب، وعمل القلب
والجوارح.

فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع فأصحاب ﴿إِيَّاكَ
نَعْبُدُ﴾ حقاً هم أصحابها.

فقول القلب هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن
أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذب عنه وتبيين
بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

وعمل القلب كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه
والرجاء له وإخلاص الدين له والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى
أقداره والرضى به وعنه والموالاتة فيه والمعاداة فيه والذل له والخضوع
والإخبات إليه والطمأنينة به وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها
أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها،
وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة وأعمال

الجوارح كالصلاة والجهاد ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك .

ف«إياك نعبد» التزام لأحكام هذه الأربعة وإقرار بها، و«إياك نستعين» طلب للإعانة عليها والتوفيق لها و«اهدنا الصراط المستقيم» متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل وإلهام القيام بهما وسلوك طريق السالكين إلى الله بها .

18 . والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه

فقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هاهنا ثم يتدى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي إن له من في السموات ومن في الأرض عبيداً وملكاً، ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني لا يأنفون عنها ولا يتعاضمون ولا يستحسرون فيعيون وينقطعون، يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا، بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبنى آدم، فالأول وصف لعبيد ربوبيته،

والثاني وصف لعبيد إلهيته .

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾
إلى آخر السورة، وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾
وقال: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ وقال: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ وقال: ﴿وَأَذْكُرُ
عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقال عن سليمان: ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ
أَوَّابٌ﴾ وقال عن المسيح: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ .

فجعل غايته العبودية لا الإلهية كما يقول أعداؤه النصارى،
ووصف أكرم خلقه عليه وأعلامه عنده منزلة بالعبودية في أشرف
مقاماته فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، وقال
تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾، فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب
عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه،
وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ فذكره بالعبودية في مقام
الإسراء، وفي الصحيح عنه ، أنه قال: < لا تطروني كما
أطرت النصارى المسيح ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله
ورسوله > وفي الحديث: «أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما
يجلس العبد» وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال:

قرأت في التوراة صفة محمد رسول الله ﷺ: عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر.

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 17-18]، وجعل الأمن المطلق لهم فقال تعالى: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [١٨] الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: 68-69]، وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [١٩] إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 99-100].

وجعل النبي إحسان العبودية أعلى مراتب الدين وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل وقد سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

19 - في لزوم «إياك نعبد» لكل عبد إلى الموت: قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99] وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [٢٠] حَتَّىٰ أَتْنَا الْيَقِينَ﴾ [المدثر: 46-48]، واليقين هاهنا هو الموت بإجماع أهل التفسير، وفي الصحيح

في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه» أي الموت وما فيه، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملك من كان يعبد وما يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلتسان منه الجواب، وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود فيسجد المؤمنون ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك وصارت عبودية أهل الثواب تسيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله والانسلاخ من دينه، بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم، وكلُّ أحد بحسب مرتبته.

20 - في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة: العبودية نوعان:

عامة وخاصة، فالعبودية العامة عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال

تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۗ ﴾ [مريم: 88-93] فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم .

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ۗ ﴾ [الفرقان: 17] فسامهم عباده مع ضلالهم، لكن تسمية مقيّدة بالإشارة، وأما المطلقة فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: 46] وقال: ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: 31] وقال: ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: 48] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامّة .

وأما النوع الثاني فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿ يَتَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ وقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ وقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: 63] وقال تعالى عن إبليس:

﴿لَا عُوبَتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82-83]

فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته. ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء.

فأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

إما منكرًا كقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

والثاني معرفًا باللام كقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ ﴿إِن﴾
اللَّهُ قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

الثالث مقيداً بالإشارة أو نحوها كقوله: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ [الفرقان: 17].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر كقوله: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم كقوله: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53].

وقد يقال: إنما سماهم عباده إذ لم يقنطوا من رحمته وأنابوا إليه واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، يقال: طريق معبّد، إذا كان مذلّلاً بوطء الأقدام، وفلان عبده الحب، إذا ذلّه، لكن أولياؤه خضعوا له وذلّوا طوعاً واختياراً وانقياداً لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغماً.

21 - في مراتب «إياك نعبد» علماً وعملاً: للعبودية مراتب بحسب العلم والعمل، فأما مراتبها العلمية فمرتبان: إحداهما العلم بالله، والثانية العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه فخمس مراتب: العلم بذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان: إحداهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه. والثانية: دينه الجزائي المتضمن ثوابه وعقابه، وقد دخل في هذا العلم العلم بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية فمرتبان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين:

فأما مرتبة أصحاب اليمين فأداء الواجبات وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين فالقيام بالواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية،

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين ، بل كل أعمالهم راجحة ، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات ، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات . ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله تعالى .

22 - ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة ، من كملها كمل مراتب العبودية ، وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب اللسان والجوارح ، وعلى كل منها عبودية تخصه ، والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح ، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

فواجب القلب منه متفق على وجوبه ومختلف فيه: فالمتفق على وجوبه كالإخلاص والتوكل والمحبة والصبر والإنابة والخوف والرجاء والتصديق الجازم والنية في العبادة ، وهذه قدرٌ زائد على الإخلاص ، فإن الإخلاص هو أفراد المعبود عن غيره .

ونية العبادة لها مرتبتان: إحداهما: تمييز العبادة عن العادة . والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض . والأقسام الثلاثة واجبة .

وكذلك الصدق ، والفرق بينه وبين الإخلاص أن للبعد مطلوباً وطلباً ، فالإخلاص توحيد مطلوبه ، والصدق توحيد طلبه . فالإخلاص ألا يكون المطلوب منقسماً ، والصدق ألا يكون الطلب منقسماً . وانفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة .

وكذلك النصح في العبودية ، ومدار الدين عليه ، وهو بذل الجهد

في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له ، وأصل هذا واجب ، وكماله مرتبة المقربين .

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان: واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن أو بضعاً وتسعين ، وله طرفان أيضاً: واجب مستحق ، وكمال مستحب .

وأما المختلف فيه فكالرضا ، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية ، والقولان لأصحاب أحمد ، فمن أوجبه قال: السخط حرام ولا خلاص عنه إلا بالرضا ، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب . واحتجوا بأثر: «من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليخذ رباً سواي» [رواه الطبراني بسند ضعيف] .

ومن قال: هو مستحب ، قال: لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السنة ، بخلاف الصبر فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه ، وكذلك التوكل قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ ۖ إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ وأمر بالإنابة فقال: ﴿وَإِنِّيْبُواْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وأمر بالإخلاص كقوله: ﴿وَمَا أُمْرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وكذلك الخوف كقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُواْ ۖ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ وقوله: ﴿وَإِنِّي فَاَرْهَبُونَ﴾ وكذلك الصدق قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٧﴾ وكذلك المحبة وهي أ فرض
الواجبات ، إذ هي قلب العبادة المأمور بها ومخُّها وروحها .

وأما الرضا فإنما جاء في القرآن مدحُ أهله والثناء عليهم لا الأمر
به ، قالوا: وأما الأثر المذكور فإسرائيلي لا يُحتجُّ به .

قالوا: وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ : «إن استطعت أن
تعمل الرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما
تكره النفس خيراً كثيراً» وهو في بعض السنن .

قالوا: وأما قولكم: «لا خلاص عن السخط إلا به» فليس بلازم ،
فإن مراتب الناس في المقدور ثلاثة: الرضا وهو أعلاها ، والسخط وهو
أسفلها ، والصبر عليه بدون الرضا به وهو أوسطها . فالأولى للمقربين
السابقين ، والثالثة للمقتصدين ، والثانية للظالمين ، وكثير من الناس
يصبر على المقدور فلا يسخط وهو غير راض به ، فالرضا أمر آخر .

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم ، وظن أنهما
متباينان ، وليس كما ظنه ، فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به
راض به ، والصائم في شهر رمضان في شدة الحرّ متألم بصومه راض
به ، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها... فالتألم كما لا ينافي
الصبر لا ينافي الرضا به ، وهذا الخلاف بينهم إنما هو في الرضا
بقضائه الكوني ، وأما الرضا به ربّاً وإلهاً ، والرضا بأمره الديني فمتفق
على فرضيته ، بل لا يصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا: أن يرضى بالله
تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً .

ومن هذا أيضاً: اختلافهم في الخشوع في الصلاة ، وفيه قولان

للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته، فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد وأبو حامد الغزالي في إحيائه، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر من سها في صلاته بسجدة السهو، ولم يأمره بالإعادة مع قوله: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَيَلْبِسُ عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى» [رواه الترمذي] وفي رواية أبي داود: «فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا - لما لم يكن يذكر - حتى يضلَّ الرجل أن يدري كم صلى»، ولكن لا نزاع في أن هذه الصلاة لا يُثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ، تَسْعُهَا، ثَمَنُهَا، سُبْعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا» [رواه أبو داود]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس لك من صلاتك إلا ما عَقَلْتَ منها. فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحةً باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة.

23 - والمعصية نوعان كبائر وصغائر: فالكبائر كالرياء والعُجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة الله واليأس من رَوْحِ الله والأمن من مكر الله والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله وتمني زوال ذلك عنهم.. وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنى وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب

ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن .

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب وترك القيام بها، فوظيفة «إياك نعبد» على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلاً بأضدادها ولا بد، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها. وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً شهوة المحرمات وتمنيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر بحسب تفاوت درجات المشتهي، فشهوة الكفر والشرك كفر، وشهوة البدعة فسق، وشهوة الكبائر معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» [متفق عليه]، فنزله منزلة القاتل لحرصه على قتل صاحبه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب. وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

24 . وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها النطق بالشهادتين وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه،

وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله تعالى بها ورسوله ﷺ ، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود ، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال ، وأمر بالتشهد ، وأمر بالتكبير .

وأما مستحبُّها فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك .

وأما محرّمها فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها وكالقذف وسب المسلم وأذاه بكل قول والكذب وشهادة الزور ، والقول على الله بلا علم وهو أشدها تحريماً .

ومكروهها التكلّم بما تركه خيرٌ من الكلام به مع عدم العقوبة عليه . وقد اختلف السلف هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين على قولين ، ذكرهما ابن المنذر وغيره ، أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به إما أن يكون له أو عليه ، وليس في حقه شيء لا له ولا عليه . واحتجوا بالحديث المشهور وهو: «كُلُّ كَلَامٍ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنِ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرٍ لِلَّهِ» [رواه الترمذي] .

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح لا له ولا عليه كما في حركات الجوارح ، لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهْي ، وهذا شأن المباح .

والتحقيق أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين ، بل إما راجحة وإما مرجوحة ، لأن للسان شأنًا ليس لسائر الجوارح ، وإذا

أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول: اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمتم استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا، وأكثر ما يكب الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يُرضي الله ورسوله أو لا .

25 - إن كل آية في القرآن متضمنة للتوحيد شاهدةً به داعية

إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيد وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيد، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبي من العذاب، فهو خبر عن خرج عن حكم التوحيد .

فالقُرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، ف«الحمد لله» توحيد «رب العالمين» توحيد «الرحمن الرحيم» توحيد «مالك يوم الدين» توحيد «إياك نعبد» توحيد «وإياك نستعين» توحيد «اهدنا الصراط المستقيم» توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» الذين فارقوا التوحيد، ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهد له به ملائكته وأنبيأؤه ورسله، قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَكُ وَالْعِلْمُ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿١٩﴾ .

فتضمّنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والردّ على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجلّ شاهد بأجلّ مشهود به، وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار، قال مجاهد: حكم وقضى، وقال الزجاج: بيّن، وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمّن كلام الشاهد وخبره وقوله، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه، فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.
وثانيها: تكلمه بذلك ونطقه به وإن لم يعلم به غيره، بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به ويخبره به ويبيّنه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورةً، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقال النبي: «على مثلها فاشهد» وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به وإن لم يتلفظ بالشهادة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنِبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤديها عند غيرهم، قال النبي ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراف بالله»، وشهادة الزور هي قول الزور كما قال تعالى: ﴿وَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۗ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ وعند نزول هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراف بالله» [رواه الإمام أحمد]، فسمى قول الزور شهادة، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ فشهادة المرء على نفسه هي إقراره على نفسه، وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي: فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله، وقال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان: إعلام بالقول وإعلام بالفعل ، وهذا شأن كل معلّم لغيره بأمر تارة يعلمه بقوله وتارة بفعله ، ولهذا كان من جعل داراً مسجداً وفتح بابها لكل من دخل إليها وأذن بالصلاة فيها معلماً أنها وقف وإن لم يتلفّظ به ، وكذلك شهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة وبفعله تارة أخرى ، فالقول هو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه .

ومما قد علم بالاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وأخبر بذلك وأمر عباده أن يشهدوا به ، وشهادته سبحانه أن لا إله إلا هو معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه ، وأما بيانه وإعلامه بفعله فهو ما تضمّنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تُعلم دلائلها بالعقل والفطرة .

وأما المرتبة الرابعة وهي الأمر بذلك والإلزام به وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه ، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده به كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ أَلِهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ .

26 - قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كَرَّرَ ﴿إِيَّاكَ﴾ ولم

يقتصر على ذكره مرّة كما اقتصر على ذكر أحد المفعولين في ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ وفي آيات كثيرة؛ لأن في التقديم فائدة قطع الاشتراك ، ولو حُذِف لم يدلّ على التقدّم؛ لأنك لو قلت: إِيَّاكَ نَعْبُد

ونستعين ، لم يظهر أن التقدير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

27 - والعبادة أقصى غاية التذلل والخضوع ، ومنه طريقُ معبِّدٍ أي مدلِّل ، والعبودية أدنى منها ، وقيل: العبادة فعلٌ ما يرضى به الله ، والعبودية الرضى بما فعلَ الله تعالى ، والاستعانة طلبُ المعونةِ على الوجه الذي مرَّ بيانهُ ، وتقديم المفعول فيهما لما ذُكر من القصر والتخصيص ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ مع ما فيه من التعظيم والاهتمام به ، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: معناه نعبدك ولا نعبد غيرك ، وتكريرُ الضمير المنصوبِ للتخصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة ، ولإبراز الاستلذاذِ بالمناجاة والخطاب ، وتقديمُ العبادة لما أنها من مقتضيات مدلولِ الاسم الجليل ، وإن ساعدته الصفاتُ المُجرأةُ عليه أيضاً ، وأما الاستعانةُ فمن الأحكامِ المبنية على الصفات المذكورة ولأن العبادة من حقوق الله تعالى ، والاستعانة من حقوق المُستعين ، ولأن العبادة واجبة حتماً ، والاستعانة تابعةٌ للمستعان فيه في الوجوب وعدمه ، وقيل: لأن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول ، هذا على تقدير كونِ إطلاقِ الاستعانةِ (على المفعول فيه) ليتناول كلَّ مستعانٍ فيه كما قالوا .

وقد قيل: إنه لما كان المسؤولُ هو المعونةُ في العبادة والتوفيقُ لإقامة مراسمِها على ما ينبغي ، وهو اللائقُ بشأن التنزيل ، والمناسبُ لحال الحامد ، فإن استعانتَه مسبوقةٌ بملاحظة فعلٍ من أفعاله ، ليستعينَ

به تعالى في إيقاعه ، ومن البيّن أنه عند استغراقه في ملاحظة شؤونه تعالى ، واشتغاله بأداء ما تُوجبه تلك الملاحظة من الحمد والثناء ، لا يكاد يخطر بباله من أفعاله وأحواله إلا الإقبال الكلي عليه ، والتوجه التام إليه ، ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى أولاً ، وباستدعاء الهداية إلى ما يوصل إليه آخراً ، فكيف يُتصور أن يشتغل فيما بينهما بما لا يعنيه من أمور دنياه أو بما يعمّها وغيرها ، كأنه قيل : وإياك نستعين في ذلك ، فإننا غير قادرين على أداء حقوقك من غير إعانة منك ، فوجه الترتيب حينئذٍ واضح ، وفيه من الإشعار بعلو رتبة عبادته تعالى وعزّة منالها ، وبكونها عند العابد أشرف المباغي والمقاصد وبكونها من مواهبه تعالى لا من أعمال نفسه ، ومن الملاءمة لما يعقبه من الدعاء ما لا يخفى ، أي : إياك نعبدُ مستعينين بك .

وإيثارُ صيغة المتكلم مع الغير في الفعلين للإيدان بقصور نفسه ، وعدم لياقته للوقوف في مواقف الكبرياء منفرداً ، وعرض العبادة ، واستدعاء المعونة والهداية مستقلاً ، وأن ذلك إنما يُتصور من عصابة هو من جملتهم ، وجماعة هو من زميرتهم ، كما هو ديدن الملوك ، أو للإشعار باشتراك سائر الموحّدين له في الحالة العارضة له ، بناءً على تعاضد الأدلة المُلجئة إلى ذلك .

28 . علّمنا الله تعالى كيف نتوسل إليه في قبول دعائنا فقال :

احمدوا الله وأثنوا عليه ومجّدوه ، والتزموا له بأن تعبدوه وحده ولا تشركوا به وتستعينوا به ولا تستعينوا بغيره .

29 . وأما قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فاعلم أن العبادة عبارة عن الإتيان بالفعل المأمور به على سبيل التعظيم للأمر، فما لم يثبت بالدليل أن لهذا العالم إلهاً واحداً، قادراً على مقدرات لا نهاية لها، عالماً بمعلومات لا نهاية لها، غنياً عن كل الحاجات، فإنه أمر عباده ببعض الأشياء، ونهاهم عن بعضها، وأنه يجب على الخلائق طاعته والانقياد لتكاليفه، فإنه لا يمكن القيام بلوازم قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

ثم إنَّ بعد الفراغ من المقام المذكور لا بدَّ من تفصيل أقسام تلك التكاليف، وبيان أنواع تلك الأوامر والنواهي، وجميع ما صنف في الدين من «كتب الفقه» يدخل فيه تكاليف الله، ثم كما يدخل فيه تكاليف الله تعالى بحسب هذه الشريعة فكذلك يدخل فيه تكاليف الله تعالى بحسب الشرائع التي قد كان أنزلها الله تعالى على الأنبياء المتقدمين، وأيضاً يدخل فيه الشرائع التي كلف الله بها ملائكته في السموات منذ خلق الملائكة وأمرهم بالاشتغال بالعبادات والطاعات، وأيضاً «فكتب الفقه» مشتملة على شرح التكاليف المتوجهة في أعمال الجوارح، أما أقسام التكاليف الموجودة في أعمال القلوب فهي أكبر وأعظم وأجل، وهي التي تشتمل عليها «كتب الأخلاق»، و«كتب السياسات» بحسب الملل المختلفة والأمم المتباينة، وإذا اعتبر الإنسان مجموع هذه المباحث وعلم أنها بأسرها داخلة تحت قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علم حينئذٍ أن المسائل التي اشتملت هذه الآية عليها كالبحر المحيط

الذي لا تصل العقول والأفكار إلا إلى القليل منها.

30 - واعلم أنه تعالى لما تَمَّ الكلام في الصفات المعبرة في الربوبية أردفه بالكلام المعبر في العبودية، واعلم أن الإنسان مركَّب من جسد ومن روح، والمقصود من الجسد أن يكون آلة للروح في اكتساب الأشياء النافعة للروح، فلا جرم كان أفضل أحوال الجسد أن يكون آتياً بأعمال تُعينُ الروحَ على اكتساب السعادات الروحانية الباقية، وتلك الأعمال هي أن يكون الجسد آتياً بأعمال تدل على تعظيم المعبود وخدمته، وتلك الأعمال هي العبادة، فأحسن أحوال العبد في هذه الدنيا أن يكون مواظباً على العبادات، وهذه أول درجات سعادة الإنسان، وهو المراد بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

فإذا واظب على هذه الدرجة مدة فعند هذا يظهر له شيء من أنوار عالم الغيب، وهو أنه وحده لا يستقل بالإتيان بهذه العبادات والطاعات، بل ما لم يحصل له توفيق الله تعالى وإعانتة وعصمته، فإنه لا يمكنه الإتيان بشيء من العبادات والطاعات، وهذا المقام هو الدرجة الوسطى في الكمالات، وهو المراد من قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم إذا تجاوز عن هذا المقام لاح له أن الهداية لا تحصل إلا من الله تعالى، وأنوار المكاشفات والتجلي لا تحصل إلا بهداية الله، وهو المراد من قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

31 - ثم لما قرَّر أمر الربوبية أمره بثلاثة أشياء:

أولها: مقام الشريعة، وهو أن يواظب على الأعمال الظاهرة، وهو قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وثانيها: مقام الطريقة، وهو أن يحاول السفر من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فيرى عالم الشهادة كالمسخر لعالم الغيب، فيعلم أنه لا يتيسر له شيء من الأعمال الظاهرة إلا بمدد يصل إليه من عالم الغيب، وهو قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وثالثها: أنه يشاهد عالم الشهادة معزولاً بالكلية، ويكون الأمر كله لله، وحينئذ يقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ثم إن هاهنا دقيقة، وهي أن الروح الواحد يكون أضعف قوة من الأرواح الكثيرة المجتمعة على تحصيل مطلوب واحد، فحينئذ علم العبد أن روحه وحده لا يكفي في طلب هذا المقصود، فعند هذا أدخل روحه في زمرة الأرواح المقدسة المطهرة المتوجهة إلى طلب المكاشفات الروحانية والأنوار الربانية، حتى إذا اتصل بها وانخرط في سلكها صار الطلب أقوى والاستعداد أتم، فحينئذ يفوز في تلك الجمعية بما لا يقدر على الفوز به حال الوحدة، فلهذا قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ثم لما بين أن الاتصال بالأرواح المطهرة يوجب مزيد القوة والاستعداد؛ بين أيضاً أن الاتصال بالأرواح الخبيثة يوجب الخيبة

والخسران والخذلان والحرمان ، فلهذا قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾
وهم الفساق ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهم الكفار .

ولمّا تمت هذه الدرجات الثلاث وكملت هذه المقامات الثلاثة
أعني الشريعة المدلول عليها بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، والطريقة المدلول
عليها بقوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، والحقيقة المدلول عليها بقوله:
﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، ثم لما حصل الاستسعاد بالاتصال بأرباب
الصفاء والاستكمال بسبب المباحدة عن أرباب الجفاء والشقاء ، فعند
هذا كملت المعارج البشرية والكمالات الإنسانية .

32 - واعلم أن قولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ معناه: لا أعبد أحداً سواك ،

والذي يدل على هذا الحصر وجوه:

الأول: أن العبادة عبارة عن نهاية التعظيم ، وهي لا تليق إلا بمن
صدر عنه غاية الإنعام ، وأعظم وجوه الإنعام الحياة التي تفيد المكنة
من الانتفاع وخلق المنتفع به ، فالمرتبة الأولى وهي الحياة التي تفيد
المكنة من الانتفاع وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ
قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 9] وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ
وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28] الآية ، والمرتبة الثانية وهي
خلق المنتفع به وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] .

ولمّا كانت المصالح الحاصلة في هذا العالم السفلي إنما تنتظم بالحركات الفلكية على سبيل إجراء العادة، لا جرم أتبعه بقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]، فثبت بما ذكرنا أن كل النعم حاصل بإيجاد الله تعالى، فوجب ألا تحسن العبادة إلا لله تعالى، فلهذا المعنى قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإن قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر.

الوجه الثاني: في دلائل هذا الحصر والتعيين: وذلك لأنه تعالى سمّى نفسه هاهنا بخمسة أسماء: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، ومالك يوم الدين، وللعبد أحوال ثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل: أما الماضي فقد كان معدوماً محضاً كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 9]، وكان ميتاً فأحياه الله تعالى كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28]، وكان جاهلاً فعلمه الله كما قال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: 78]، والعبد إنما انتقل من العدم إلى الوجود ومن الموت إلى الحياة ومن العجز إلى القدرة ومن الجهل إلى العلم لأجل أن الله تعالى كان قديماً أزلياً، فبقدرته الأزلية وعلمه الأزلي أحدثه ونقله من العدم إلى الوجود، فهو إلهٌ لهذا المعنى. وأما الحال الحاضرة للعبد فحاجته شديدة، لأنه كلما كان معدوماً

كان محتاجاً إلى الرب الرحمن الرحيم ، أما لما دخل في الوجود انفتحت عليه أبواب الحاجات وحصلت عنده أسباب الضرورات ، فقال الله تعالى: أنا إله لأجل أنني أخرجتك من العدم إلى الوجود، أما بعد أن صرت موجوداً فقد كثرت حاجاتك إليّ ، فأنا رب رحمن رحيم .
وأما الحال المستقبلية للعبد فهي حال ما بعد الموت ، والصفة

المتعلقة بتلك الحالة هي قوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، فصارت هذه الصفات الخمس من صفات الله تعالى متعلقةً بهذه الأحوال الثلاثة للعبد ، فظهر أن جميع مصالح العبد في الماضي والحاضر والمستقبل لا يتم ولا يكمل إلا بالله وفضله وإحسانه ، فلما كان الأمر كذلك وجب ألا يشتغل العبد بعبادة شيء إلا بعبادة الله تعالى ، فلا جرم قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على سبيل الحصر .

الوجه الثالث: في دليل هذا الحصر ، وهو أنه قد دل الدليل القاطع على وجوب كونه تعالى قادراً عالماً محسناً جواداً كريماً حلماً ، وأما كون غيره كذلك فمشكوك فيه ؛ لأنه لا أثر يضاف إلى الطبع والفلك والكواكب والعقل والنفوس إلا ويحتمل إضافته إلى قدرة الله تعالى ، ومع هذا الاحتمال صار ذلك الانتساب مشكوكاً فيه ، فثبت أن العلم بكون الإله تعالى معبوداً للخلق أمرٌ يقينيّ ، وأما كون غيره معبوداً للخلق فهو أمر مشكوك فيه ، والأخذ باليقين أولى من الأخذ بالشك ، فوجب طرح المشكوك والأخذ بالمعلوم ، وعلى هذا لا معبود إلا الله تعالى ، فلهذا المعنى قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

الوجه الرابع: أن العبودية ذلّة ومهانة إلا أنه كلما كان المولى أشرف وأعلى كانت العبودية به أهناً وأمرأ، ولما كان الله تعالى أشرف الموجودات وأعلاها كانت عبوديته أولى من عبودية غيره، وأيضاً قدرة الله تعالى أعلى من قدرة غيره وعلمه أكمل من علم غيره وجوده أفضل من جود غيره، فوجب القطع بأن عبوديته أولى من عبودية غيره، فلهذا السبب قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الوجه الخامس: أن كل ما سوى الواجب لذاته يكون ممكناً لذاته، وكل ما كان ممكناً لذاته كان محتاجاً فقيراً، والمحتاج مشغول بحاجة نفسه فلا يمكنه القيام بدفع الحاجة عن الغير، والشيء ما لم يكن غنياً في ذاته لم يقدر على دفع الحاجة عن غيره، والغني لذاته هو الله تعالى، فدافع الحاجات هو الله تعالى، فمستحق العبادات هو الله تعالى، فلهذا السبب قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

33 - ومن هداية هذه الآية تعليم أدب الدعاء: حيث يقدم السائل بين يدي دعائه حمد الله والثناء عليه وتمجيده. وزادت السنة الصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل حاجته فإنه يُستجاب له. وقدّم المفعول على الفعل اهتماماً، وشأن العرب تقديم الأهم، ويُذكر أن أعرابياً سبّ آخر فأعرضَ المسبوبُ عنه، فقال له السابُّ: «إياك أعني» فقال الآخر: «وعنك أُعرضُ» فقدّم الأهم.

34 - قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فقدّم قوله «إياك» على قوله «نعبد» ولم يقل: نعبدك، وفيه وجوه:

أحدها: أنه تعالى قدّم ذكر نفسه ليتنبه العابد على أن المعبود هو الله الحق، فلا يتكاسل في التعظيم ولا يلتفت يميناً وشمالاً، فقد عرفه ذاته أولاً حتى تحصل العبادة مع الحشمة فلا تمتزج بالغفلة.

وثانيها: أنه إن ثقلت عليك الطاعات وصعبت عليك العبادات

من القيام والركوع والسجود فاذكر أولاً قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لتذكرني وتحضر في قلبك معرفتي، فإذا ذكرت جلالي وعظمتي وعزتي وعلمت أنني مولاك وأنت عبدي سهلت عليك تلك العبادات، ومثاله أن من أراد حمل الجسم الثقيل تناول قبل ذلك ما يزيده قوة وشدة، فالعبد لما أراد حمل التكاليف الشاقة الشديدة تناول أولاً معجون معرفة الربوبية من بستوقة قوله «إياك» حتى يقوى على حمل ثقل العبودية، ومثال آخر وهو أن العاشق الذي يُضرب لأجل معشوقه في حضرة معشوقه يسهل عليه ذلك الضرب، فكذا هاهنا: إذا شاهد جمال «إياك» سهل عليه تحمّل ثقل العبودية.

وثالثها: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ

مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، فنفوسهم إذا مسها طائف من الشيطان من الكسل والغفلة والبطالة تذكروا حضرة

جلال الله من مشرق قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيصيرون مبصرين مستعدين لأداء العبادات والطاعات.

ورابعها: أنك إذا قلت «نعبدك» فبدأت أولاً بذكر عبادة نفسك

ولم تذكر أن تلك العبادة لمن، فيحتمل أن إبليس يقول: هذه العبادة

للأصنام أو للأجسام أو للشمس أو للقمر، أما إذا غيَّرتَ هذا الترتيب وقلت أولاً: إياك، ثم قلت ثانياً: نعبد، كان قولك أولاً: إياك، صريحاً بأن المقصود والمعبود هو الله تعالى، فكان هذا أبلغ في التوحيد وأبعد عن احتمال الشرك.

وخامسها: وهو أن القديم الواجب لذاته متقدم في الوجود على المُحدَث الممكن لذاته، فوجب أن يكون ذكره متقدماً على جميع الأذكار؛ فلهذا السبب قدم قوله «إياك» على قوله «نعبد» ليكون ذكر الحق متقدماً على ذكر الخلق.

وسادسها: قال بعض المحققين: من كان نظره في وقت النعمة إلى المنعم لا إلى النعمة كان نظره في وقت البلاء إلى المبتلي لا إلى البلاء، وحينئذ يكون غارقاً في كل الأحوال في معرفة الحق سبحانه، وكل من كان كذلك كان أبداً في أعلى مراتب السعادات، أما من كان نظره في وقت النعمة إلى النعمة لا إلى المنعم كان نظره في وقت البلاء إلى البلاء لا إلى المبتلي، فكان غارقاً في كل الأوقات في الاشتغال بغير الله، فكان أبداً في الشقاوة، لأنه في وقت وجدان النعمة يكون خائفاً من زوالها فكان في العذاب، وفي وقت فوات النعمة كان مبتلياً بالخزي والنكال، فكان في محض السلاسل والأغلال. ولهذا التحقيق قال لأمة موسى ﷺ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: 40]، وقال لأمة محمد ﷺ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

إذا عرفت هذا فنقول: إنما قدم قوله «إياك» على قوله «نعبد»

ليكون مستغرقاً في مشاهدة نور جلال «إياك»، ومتى كان الأمر كذلك كان في وقت أداء العبادة مستقراً في عين الفردوس، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» [رواه البخاري].
وسابعها: لو قيل: نعبدك، لم يُفدَ نفي عبادتهم لغيره، لأنه لا امتناع في أن يعبدوا الله ويعبدوا غير الله كما هو دأب المشركين، أما لما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أفاد أنهم يعبدونه ولا يعبدون غير الله.

وثامنها: أن هذه النون نون العظمة، فكأنه قيل له: متى كنت خارج الصلاة فلا تقل: «نحن» ولو كنت في ألف ألف من العبيد، أما لما اشتغلت بالصلاة وأظهرت العبودية لنا فقل: «نعبد» ليظهر للكل أن كل من كان عبداً لنا كان مملِك الدنيا والآخرة.

وتاسعها: لو قال: إياك أعبد، لكان ذلك تكبيراً، ومعناه أنني أنا العابد، أما لما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كان معناه أنني واحد من عبيدك، فالأول تكبير، والثاني تواضع، ومن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله.

فإن قال قائل: جميع ما ذكرتم قائم في قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مع أنه قدم فيه ذكر الحمد على ذكر الله؟

فالجواب: أن قوله «الحمد» يحتمل أن يكون لله ولغير الله، فإذا قلت: «لله» فقد تقيّد الحمد بأن يكون لله، أما لو قدم قوله «نعبد» احتمل أن يكون لله، واحتمل أن يكون لغير الله، وذلك كفر؛ والنكته

أن الحمد لما جاز لغير الله في ظاهر الأمر كما جاز لله ، لا جرم حَسُنَ
تقدُّمُ الحمد ، أما هاهنا فالعبادة لما لم تجز لغير الله لا جرم قدم قوله
«إياك» على «نعبد» ، فتعيَّن الصرْفُ للعبادة ، فلا يبقى في الكلام
احتمال أن تقع العبادة لغير الله .

35 - لقائل أن يقول: النون في قوله «نعبد» إما أن تكون نونَ
الجمع أو نونَ التعظيم ، والأول باطل لأن الشخص الواحد لا يكون
جمعاً ، والثاني باطل لأن اللائق بالإنسان عند أداء العبادة أن يذكر نفسه
بالعجز والذلة لا بالعظمة والرفعة .

واعلم أنه يمكن الجواب عنه من وجوه ، كل واحد من تلك
الوجوه يدل على حكمة بالغة:

فالوجه الأول: أن المراد من هذه النون نونُ الجمع ، وهو تنبيه
على أن الأولى بالإنسان أن يؤدِّي الصلاة بالجماعة ، واعلم أن فائدة
الصلاة بالجماعة معلومة في موضعها ، ويدل عليه قوله ﷺ: «التكبيره
الأولى في صلاة الجماعة خير من الدنيا وما فيها» [نوادير الأصول للحكيم
الترمذي] ، ثم نقول: إن الإنسان لو أكل الثوم أو البصل فليس له أن
يحضر الجماعة لئلا يتأذى منه إنسان ، فكأنه تعالى يقول: هذه الطاعة
التي لها هذا الثواب العظيم لا يفي ثوابها بأن يتأذى واحد من
المسلمين برائحة الثوم والبصل ، فإذا كان هذا الثواب لا يفي بذلك
فكيف يفي بإيذاء المسلم ؟ وكيف يفي بالنميمة والغيبة والسعاية ؟
الوجه الثاني: أن الرجل إذا كان يصلي بالجماعة فيقول «نعبد» ،

والمراد منه ذلك الجمع ، وإن كان يصلي وحده كان المراد أني أعبدك
والملائكةُ معي في العبادة . فكان المراد بقوله «نعبد» هو وجميع
الملائكة الذين يعبدون الله .

الوجه الثالث: أن المؤمنين إخوة ، فلو قال: إياك أعبد ، لكان قد
ذكر عبادة نفسه ولم يذكر عبادة غيره ، أما لما قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كان
قد ذكر عبادة نفسه وعبادة جميع المؤمنين شرقاً وغرباً ، فكأنه سعى
في إصلاح مهمات سائر المؤمنين ، وإذا فعل ذلك قضى الله مهماته
لقوله ﷺ: «من قضى لمسلم حاجة من حوائج الدنيا قضى الله له اثنتين
وسبعين حاجة» [رواه أبو نعيم بسند ضعيف] .

الوجه الرابع: كأنه تعالى قال للعبد: لما أثنت علينا بقولك:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾﴾
وفوضت إلينا جميع محامد الدنيا والآخرة فقد عظم قدرك عندنا
وتمكنت منزلتك في حضرتنا ، فلا تقتصر على إصلاح مهماتك وحدك ،
ولكن أصلح حوائج جميع المسلمين فقل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ﴾ .

الوجه الخامس: كأن العبد يقول: إلهي ما بلغت عبادتي إلى حيث
أستحق أن أذكرها وحدها ؛ لأنها ممزوجة بجهاث التقصير ، ولكني
أخلطها بعبادات جميع العابدين ، وأذكر الكل بعبارة واحدة وأقول:
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

وهاهنا مسألة شرعية ، وهي أن الرجل إذا باع من غيره عشرةً من العبيد فللمشتري إما أن يقبل الكل ، أو لا يقبل واحداً منها ، وليس له أن يقبل البعض دون البعض في تلك الصفقة ، فكذا هنا إذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فقد عرض على حضرة الله جميع عبادات العابدين ، فلا يليق بكرمه أن يميز البعض عن البعض ويقبل البعض دون البعض ، فإما أن يردَّ الكل وهو غير جائز ، لأن قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دخل فيه عبادات الملائكة وعبادات الأنبياء والأولياء ، وإما أن يقبل الكل ، وحينئذٍ تصير عبادة هذا القائل مقبولة ببركة قبول عبادة غيره ، والتقدير كأن العبد يقول: إلهي إن لم تكن عبادتي مقبولة فلا تردني لأنني لست بوحيد في هذه العبادة ، بل نحن كثيرون ، فإن لم أستحق الإجابة والقبول فأتشعّع إليك بعبادات سائر المتعبدين ، فأجيني .

36 - اعلم أن من عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها؛

وثقل عليه الاشتغال بغيرها ، وبيانه من وجوه:

الأول: أن الكمال محبوب بالذات ، وأكمل أحوال الإنسان وأقواها في السعادة باشتغاله بعبادة الله ، فإنه يستنير قلبه بنور الإلهية ، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والقراءة ، وتتجمل أعضاؤه بجمال خدمة الله ، وهذه الأحوال أشرف المراتب الإنسانية والدرجات البشرية ، فإذا كان حصول هذه الأحوال أعظم السعادات الإنسانية في الحال ، وهي موجبة أيضاً لأكمل السعادات في الزمان المستقبل ، فمن وقف على

هذه الأحوال زال عنه ثقل الطاعات وعظمت حلاوتها في قلبه .

الثاني: أن العبادة أمانة ، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ ﴾ الآية [الأحزاب: 72] ، وأداء الأمانة واجب عقلاً وشرعاً ، بدليل قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: 58] ، وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات ؛ ولأن أداء الأمانة - أحد الجانبين - سبب لأداء الأمانة من الجانب الثاني .

قال بعض الصحابة: رأيت أعرابياً أتى باب المسجد، فنزل عن ناقته وتركها، ودخل المسجد وصلى بالسكينة والوقار ودعا بما شاء، فتعجبنا، فلما خرج لم يجد ناقته فقال: إلهي أديت أمانتك فأين أمانتي؟ قال الراوي: فزدنا تعجباً، فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته وقد قطع يده وسلم الناقة إليه. والنكته أنه لما حفظ أمانة الله حفظ الله أمانته، وهو المراد من قوله ﷺ لابن عباس: «يا غلام احفظ الله يحفظك» [رواه الترمذي].

الثالث: أن الاشتغال بالعبادة انتقال من عالم الغرور إلى عالم السرور، ومن الاشتغال بالخلق إلى حضرة الحق، وذلك يوجب كمال اللذة والبهجة؛ يحكى عن أبي حنيفة أن حية سقطت من السقف، وتفرق الناس، وكان أبو حنيفة في الصلاة ولم يشعر بها. ووقعت الأكلة في بعض أعضاء عروة بن الزبير، واحتاجوا إلى قطع ذلك العضو، فلما شرع في الصلاة قطعوا منه ذلك العضو فلم يشعر عروة بذلك القطع .

وعن رسول الله ﷺ أنه كان حين يشرع في الصلاة كانوا يسمعون من صدره أزيزاً كأزيز المرجل، ومن استبعد هذا فليقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: 31]، فإن النسوة لما غلب على قلوبهن جمال يوسف عليه السلام وصلت تلك الغلبة إلى حيث قطعن أيديهن وما شعرن بذلك، فإذا جاز هذا في حق البشر فلأن يجوز عند استيلاء عظمة الله على القلب أولى، ولأن من دخل على ملك مهيب فرمى به أبواه وبنوه وهو ينظر إليهم ولا يعرفهم لأجل أن استيلاء هيبة ذلك الملك تمنع القلب عن الشعور بهم، فإذا جاز هذا في حق ملك مخلوق فلأن يجوز في حق خالق العالم أولى.

ثم قال أهل التحقيق: العبادة لها ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يعبد الله طمَعاً في الثواب أو هرباً من العقاب، وهذا هو المسمى بالعبادة، وهذه الدرجة نازلة ساقطة جداً، لأن معبوده في الحقيقة هو ذلك الثواب، وقد جعل الحق وسيلة إلى نيل المطلوب، ومن جعل المطلوب بالذات شيئاً من أحوال الخلق وجعل الحق وسيلة إليه فهو خسيسٌ جداً.

والدرجة الثانية: أن يعبد الله لأجل أن يتشرف بعبادته، أو يتشرف بقبول تكاليفه، أو يتشرف بالانتساب إليه، وهذه الدرجة أعلى من الأولى، إلا أنها أيضاً ليست كاملة، لأن المقصود بالذات غير الله.

والدرجة الثالثة: أن يعبد الله لكونه إلهاً وخالقاً، ولكونه عبداً له، والإلهية توجب الهيبة والعزة، والعبودية توجب الخضوع والذلة، وهذا

أعلى المقامات وأشرف الدرجات ، وهذا هو المسمى بالعبودية ، وإليه الإشارة بقول المصلي في أول الصلاة: أصلي لله ، فإنه لو قال: أصلي لثواب الله ، أو لله رب من عقابه ، فسدت صلاته .

37 - واعلم أن العبادة والعبودية مقام عالٍ شريف ، ويدل عليه آيات:

الأولى: قوله تعالى في آخر سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: 97-99] ، والاستدلال بها من وجهين:

أحدهما: أنه قال: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ فأمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالمواظبة على العبادة إلى أن يأتيه الموت ، ومعناه أنه لا يجوز الإخلال بالعبادة في شيء من الأوقات ، وذلك يدل على غاية جلاله أمر العبادة .

وثانيهما: أنه قال: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ، ثم إنه تعالى أمره بأربعة أشياء: التسبيح: وهو قوله ﴿فَسَبِّحْ ﴾ ؛ والتحميد: وهو قوله ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ والسجود: وهو قوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ ﴾ والعبادة: وهي قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ؛ وهذا يدل على أن العبادة تنزيل ضيق القلب ، وتفيد انشراح الصدر ، وما ذاك إلا لأن العبادة توجب الرجوع من الخلق إلى الحق ، وذلك يوجب زوال ضيق القلب .

الآية الثانية: في شرف العبودية: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1]، ولولا أن العبودية أشرف المقامات، ما وصفه الله بهذه الصفة في أعلى مقامات المعراج، ومنهم من قال: العبودية أشرف من الرسالة، لأنه بالعبودية ينصرف من الخلق إلى الحق، وبالرسالة ينصرف من الحق إلى الخلق، وأيضاً بسبب العبودية ينعزل عن التصرفات، وبسبب الرسالة يقبل على التصرفات، واللائق بالعبد الانعزال عن التصرفات، وأيضاً العبد يتكفل المولى بإصلاح مهماته، والرسول هو المتكفل بإصلاح مهمات الأمة، وشتان ما بينهما.

الآية الثالثة: في شرف العبودية: أن عيسى أول ما نطق قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 30]، وصار ذكره لهذه الكلمة سبباً لطهارة أمه، ولبراءة وجوده عن الطعن، وصار مفتاحاً لكل الخيرات، ودافعاً لكل الآفات، وأيضاً لما كان أول كلام عيسى ذكر العبودية كانت عاقبته الرفعة، كما قال تعالى: ﴿وَرَأْفَعَكَ إِلَىٰ﴾ [آل عمران: 55]، والنكته أن الذي ادّعى العبودية بالقول رفع إلى الجنة، والذي يدّعيها بالعمل سبعين سنة كيف يبقى محروماً عن الجنة؟

الآية الرابعة: قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: 14] أمره بعد التوحيد بالعبودية، لأن التوحيد أصل، والعبودية فرع؛ والتوحيد شجرة، والعبودية ثمرة؛ ولا قوام لأحدهما إلا بالآخر، فهذه الآيات دالة على شرف العبودية.

وأما المعقول فظاهر، وذلك لأن العبد محدث ممكن الوجود لذاته، فلولا تأثير قدرة الحق فيه لبقى في ظلمة العدم وفي فناء الفناء ولم يحصل له الوجود فضلاً عن كمالات الوجود، فلما تعلق قدرة الحق به وفاضت عليه آثار جوده وإيجاده حصل له الوجود وكمالات الوجود، ولا معنى لكونه مقدور قدرة الحق وكونه متعلق بإيجاد الحق إلا العبودية، فكل شرف وكمال وبهجة وفضيلة ومسرة ومنقبة حصلت للعبد فإنما حصلت بسبب العبودية، فثبت أن العبودية مفتاح الخيرات، وعنوان السعادات، ومطلع الدرجات، وينبوع الكرامات، فهذا السبب قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكان علي كرم الله وجهه يقول: (كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بي شرفاً أن تكون لي رباً، اللهم إني وجدتك إلهاً كما أردت، فاجعني عبداً كما أردت).

38 - اعلم أن المقامات محصورة في مقامين: معرفة الربوبية،

ومعرفة العبودية، وعند اجتماعهما يحصل العهد المذكور في قوله:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، أما معرفة الربوبية فكما لها

مذكور في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② مَلِكِ

يَوْمِ الدِّينِ﴾، فكون العبد منتقلاً من العدم السابق إلى الوجود يدل على كونه إلهاً، وحصول الخيرات والسعادات للعبد حال وجوده يدل على كونه رباً رحماناً رحيماً، وأحوال معاد العبد تدل على كونه مالك يوم الدين، وعند الإحاطة بهذه الصفات حصلت معرفة الربوبية على أقصى الغايات.

وبعدها جاءت معرفة العبودية، ولها مبدأ وكمال، وأول وآخر، أما مبدؤها وأولها فهو الاشتغال بالعبودية، وهو المراد بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وأما كمالها فهو أن يعرف العبد أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله، فعند ذلك يستعين بالله في تحصيل كل المطالب، وذلك هو المراد بقوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولمّا تمّ الوفاء بعهد الربوبية وبعهد العبودية ترتّب عليه طلب الفائدة والثمرة، وهو قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا ترتيب شريف رفيع عالٍ يمتنع في العقول حصول ترتيب آخر أشرف منه.

39 - لعل قائلاً يقول: قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ ② مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿ كله مذكور على لفظ الغيبة، وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتقال من لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، فما الفائدة فيه؟ قلنا: فيه وجوه:

الأول: أن المصلي كان أجنبيّاً عند الشروع في الصلاة، فلا جرم

أثنى على الله بألفاظ المغيبة إلى قوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ثم إنه تعالى كأنه يقول له: حمدتني وأقررت بكوني إلهاً رباً رحماناً رحيماً مالكاً ليوم الدين، فنعم العبد أنت، قد رفعنا الحجاب، وأبدلنا البعد

بالقرب، فتكلم بالمخاطبة وقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

الوجه الثاني: أن أحسن السؤال ما وقع على سبيل المشافهة، ألا

ترى أن الأنبياء عليهم السلام لما سألوا ربهم شافهوه بالسؤال فقالوا:
﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23] ، و﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران:
147] ، و﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ [آل عمران: 38] ، و﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [الأعراف:
143] ، والسبب فيه أن الرد من الكريم على سبيل المشافهة والمخاطبة
بعيد ، وأيضاً العبادة خدمة ، والخدمة في الحضور أولى .

الوجه الثالث: أن من أول السورة إلى قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثناء ،
والثناء في الغيبة أولى ، ومن قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى
آخر السورة دعاء ، والدعاء في الحضور أولى .

الوجه الرابع: العبد لما شرع في الصلاة وقال: نويت أن أصلي
تقرباً إلى الله ، فينوي حصول القربة ، ثم إنه ذكر بعد هذه النية أنواعاً من
الثناء على الله ، فافتضى كرمُ الله إجابته في تحصيل تلك القربة ،
فنقله من مقام الغيبة إلى مقام الحضور ، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ﴾ .

40 - تقديم ذكر الله تعالى يورث الخشية والمهابة ، حتى لا يلتفت
في العبادة يميناً وشمالاً بخلاف العكس ، وأيضاً ذكره تعالى أولاً مما
يورث العبد قوةً يسهل بها عليه ثقلُ العبودية ، فوجب تقديمه ، كما أن
من أراد حمل ثقل يُقدِّم عليه دواءً أو غذاءً يعينه على ذلك ، كما أن
العاشق يسهل عليه جميع الآلام عند حضور معشوقه .

وأيضاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿ [الأعراف: 201] ، فالنفس إذا مسها طائف الشيطان من الكسل والغفلة والبطالة طلع لها جلال الله من مشرق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فتصير مبصرة مستعدة لأداء حق العبودية .

وأيضاً إن بدأ بالعبادة شكك إبليس قلبه أن المعبود من هو؟ فيلقي في نفسه وساوس، أما إذا غير هذا الترتيب وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كان بعيداً عن احتمال الشرك .

وأيضاً الواجب لذاته متقدم في الوجود، فيناسب أن يكون مقدماً في الذكر .

وأيضاً المحققون نظرهم على المعبود لا على العبادة، وعلى المنعم لا على النعمة، ولهذا قيل لبني إسرائيل ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: 40] ولأمة محمد ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [البقرة: 152]، فذكر المعبود عندهم أولى من ذكر العبادة .

41 - النون في قوله تعالى «نعبد» فيها وجوه من الحكمة :

منها: أنها تشریف من الله تعالى للعبد حيث لقنه لفظاً ينبئ عن التعظيم والتكريم، كقوله حكاية عن نفسه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 2] كأنه قال: لما أظهرت عبوديتي ولم تستنكف أن تكون عبداً لي جعلناك أمة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120] .
ومنها: أنه لو قال: إياك أعبد، كان إخباراً عن كونه عبداً فقط،

ولما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ صار معناه إني واحد من عبيدك، ولا ريب أن الثاني أدخل في الأدب والتواضع.

ومنها: أن يكون تنبيهاً على أن الصلاة بالجماعة أولى، قال ﷺ: «من قضى لمسلم حاجة من حوائج الدنيا قضى الله له اثنتين وسبعين حاجة» [رواه أبو نعيم بسند ضعيف].

ومنها: أن يكون المراد: أعبدك والملائكة معي والحاضرون، بل جميع عبادك الصالحين.

ومنها: أن المؤمنين إخوة، فكأن الله تعالى قال: لما أثنت عليّ

بقولك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ

الْدِّينِ ﴿٣﴾ ارتفعت منزلتك عندنا، فلا تقتصر على إصلاح حالك بل

عليك بالسعي في إصلاح حال جميع إخوانك فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

ومنها: أن العبد يقول: إلهي عبادتي مخلوطة بالتقصير، وإني أخطأها بعبادة جميع العابدين، فلا يليق بكرمك أن تميز بين العبادات، ولا أن تردّ الكل وفيها عبادة الأنبياء والأولياء بل الملائكة المقربين. وهذا كمثل الرجل إذا باع من غيره عشرة أعبد، فالمشتري إما أن يقبل الكل أو يردّ الكل، وليس له أن يقبل البعض دون البعض في تلك الصفقة.

42 - من عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها وثقل عليه

الاشتغال بغيرها، لأن الكمال محبوب لذاته، وأكمل أحوال الإنسان

اشتغاله بخدمة مولاه، فإنه يستنير قلبه بنوره ويشرق عليه من جماله، ولهذا قد ورد في الحديث: «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ» [رواه ابن ماجه].

43 - والعبادة لها ثلاث درجات، لأنه إما أن يعبد الله رغبة في ثوابه، أو رهبة من عقابه، ويختص باسم الزاهد حيث يعرض عن متاع الدنيا وطيباتها طمعاً فيما هو أشرف منها وأدوم، وهذه مرتبة نازلة عند المحققين.

وإما أن يعبد الله تشرفاً بعبادته أو بقبول تكاليفه أو بالانتساب إليه، وهذه مرتبة متوسطة وتسمى بالعبودية.

وإما أن يعبد الله لكونه إلهاً ولكونه عبداً له، والإلهية توجب العزة والهيبة، والعبودية تقتضي الخضوع والذلة، وهذه أعلى الدرجات، وتسمى بالعبودية، وإليها الإشارة بقول المصلي: أصلي لله، فإنه لو قال: أصلي لثواب الله أو هرباً من عقابه، فسدت صلاته.

(يحكى) أن عبداً في بني إسرائيل اعتزل وعبد الله تعالى سبعين سنة، فأرسل الله تعالى إليه ملكاً فقال: إن عبادتك غير مقبولة، فلا تشق على نفسك ولا تجاهد، فأجاب العابد: إن الذي عليّ هو العبودية وإنني لا أزال أفعل ما عليّ، فأما القبول وعدم القبول فموكول إلى المعبود. فرجع الملك إلى ربه، فقال له الله تعالى: بم أجاب العابد؟ فقال: أنت أعلم يا رب، إنه قال كذا وكذا. فقال الله تعالى: ارجع إليه وقل له: قبلنا طاعتك بسبب ثبات نيتك.

والتحقيق أن إثبات نسبة الإمكان هو قصارى مجهود العابدين ونهاية مطامح أبصار العارفين. وفي العبادة انشراح صدور المؤمنين وإنها عاقبة حال المتقين، قال عز من قائل ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يُصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 97 - 99]، ولأن العبودية أشرف المقامات مدح الله تعالى نبيه ﷺ في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]، وافتخر عيسى بذلك أول ما نطق فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 30].

ومنهم من قال: العبودية أشرف من الرسالة، فبالعبودية ينصرف من الخلق إلى الحق، وبالرسالة ينصرف من الحق إلى الخلق، وبالعبودية ينعزل عن التصرفات، وبالرسالة يُقبل على التصرفات، ولهذا نال شرف التقدم في قول الموحّد: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: 172].

44 - كَأَنَّ الْحَقَّ جَلَّ جلاله يقول تميماً لتعليم عباده: فإذا أثنتم عليّ ومجدتموني وعظمتموني فأقروا لي بالربوبية، وأظهروا من أنفسكم العبودية، واطلبوا مني العون في كل وقت، وقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكأنه - جلّ جلاله - لَمَّا ذكر أنه مستحقّ للمحامد كلها قديمها وحديثها؛ لأنه رب العوالم وقيومها، وأصل

الأصول وفروعها، أنعم عليها أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالي الإمداد، فهو مالکها على الإطلاق، ذکر أنه لا يستحق أن يُعبد سواه؛ إذ لا مُنعمَ على الحقيقة إلا الله، فهو أحقُّ أن يُعبد، وأولى أن يفرد بالوجهة والقصد، لأنه مُستَبَدٌّ وغير مُستَمَدٍّ، والمادة من عَيْنِ الجود، فإذا انقطعت المادة انعدم الوجود.

قال البيضاوي: ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميّز بها عن سائر الذوات، تعلق العلمُ بمعلوم معين، خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصُّك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدلَّ على الاختصاص، وللترقى من الغيبة إلى الشهود، وكأن المعلوم صار عياناً، والمعقول مُشاهداً، والغيبة حضوراً، بنى أول الكلام على ما هو مبادئ حال العارف؛ من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه، والنظر في آلائه، والاستدلال بصنائه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفى بما هو منتهى أمره، وهو أن يخوض لُجَّةَ الوصول، ويصير من أهل المشاهدة، فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً، اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون التابعين للأثر.

ومن عادة العرب التفتُّن في الكلام والعدول عن أسلوبٍ إلى آخر، تطريةً وتنشيطاً للسامع، فتعدّل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ ۖ﴾ [يونس: 22]، ولم يقل (بكم)، وقوله: ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَسَقَنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ ۖ﴾ [فاطر: 9]، أي: ولم يقل: (فتسوقه).

والالتفات هذا في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم يقل: إياه نعبد؛ لأن الظاهر من قبل الغيبة، وحسنه أن الموصوف تعيّن وصار حاضراً. قال الأقلشي: فهذه الآية هي التي قال فيها النبي ﷺ: «فإذا قال العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، يقول الله تعالى: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سألت» معناه: أي عبد توجه إليّ بالعبادة وسألني العون عليها فعبادته متقبّلة، والعون مني له عليها حاصل حتى يُوقعها على وجهها، فالعبادة وصف العبد، والعون من الله تعالى للعبد، فلهذا قال: «فهذه بيني وبين عبدي».

قال ابن جزي: أي نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا، وفي هذا دليل على بطلان قول القدرية والجبرية، وأن الحق بين ذلك.

45 - من لطائف إشارات الآية: أنه لما تجلّى الحق جلّ جلاله من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت، وحمّد نفسه بنفسه، تجلّى أيضاً وتنزّل من عالم الملكوت إلى عالم المُلْك بقدرته وحكمته؛ لإظهار آثار أسمائه وصفاته، فأظهر العبودية وأخفى الربوبية، أظهر الحكمة وأبطن القدرة، فجعل عالم الحكمة يخاطب عالم القدرة، ويخضع له ويتعبد، ويستمد منه الإعانة والهداية، ويتحرّز من طريق الضلالة والغواية. فعالم الحكمة محلُّ التكليف، وعالم القدرة محلُّ التصريف، عالم الحكمة عالم الأشباح، وعالم القدرة عالم الأرواح، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأهل عالم الحكمة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأهل عالم القدرة،

ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي ~: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ شريعة،
 ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقيقة، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إسلاماً، ﴿وَأِيَّاكَ
 نَسْتَعِينُ﴾ إحساناً، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عبادة، ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عبودية،
 ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فَرْقٌ، ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جَمْعٌ. اهـ.

وإن شئت قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأهل العمل لله وهم المخلصون،
 ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأهل العمل بالله وهم الموحدون، العمل لله
 يوجب المثوبة، والعمل بالله يوجب القربة، العمل لله يوجب تحقيق
 العبادة، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة، العمل لله نعت كل
 عابد، والعمل بالله نعت كل قاصد، العمل لله قيامٌ بأحكام الظواهر،
 والعمل بالله قيام بإصلاح الضمائر، قاله القشيري.

46 - ثم إنَّ الناسَ في شهود القدرة والحكمة على ثلاثة أقسام:
 قسم حُجِبوا بالحكمة عن شهود القدرة، وهم أهل الحجاب من أهل
 الغفلة، وقفوا مع قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وقسم حُجِبوا بشهود القدرة عن
 الحكمة، وهم أهل الفناء، وقفوا مع قوله: ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقسم
 لم يحجبوا بالحكمة عن القدرة ولا بالقدرة عن الحكمة، أعطوا كلَّ ذي
 حقَّ حقَّه، وَوَفَّوْا كلَّ ذي قسطٍ قسطه، وهم أهل الكمال من أهل البقاء،
 جمعوا بين قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وبالله التوفيق.
 رُوِيَ عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمته الله أنه قال: قرأتُ الفاتحة،

فقلت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فقال لي الهاتف من قِبَلِ اللَّهِ تعالى: صدقت، فقلت: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾، فقال: صدقت. فقلت: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فقال: صدقت. فلما قلتُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، قال: كذبت؛ لأنك تعبد الكرامات، قال: ثم أدبني، وتبت لله تعالى. ذكره ابن الصباغ مُطَوَّلًا.

47 - للناس في العبادة مقامان:

1- المقام الأول مقام التكليف: وهو من يرى الصلاة وجميع العبادات حملاً ثقيلاً يريد إلقاءه عن ظهره، ولسان حاله يردد قائلاً: أرحنا منها يا بلال، لا يُهْمُهُ ما عقل من عبادته، وما غاب عنه منها، ولا يبالي ما كتب له من عبادته: كلها، أو نصفها، أو رُبُعُهَا، أو عشرها.

جاء في سنن البيهقي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرَةَ أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ رضي الله عنه دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى صَلَاةً فَأَخَفَّهَا، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ إِنَّكَ خَفَفْتَ فَقَالَ: رَأَيْتَنِي انْتَقَصْتُ مِنْ حُدُودِهَا شَيْئًا؟ إِنِّي بَادَرْتُ بِهَا سَهْوَةَ الشَّيْطَانِ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ، يَقُولُ: <إِنَّ الرَّجُلَ لِيُصَلِّيَ الصَّلَاةَ مَا لَهُ مِنْهَا إِلَّا عَشْرُهَا، تَسْعُهَا، ثَمْنُهَا، سُبْعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا>.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها. وفي الحديث عند ابن حبان والبيهقي في السنن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «رُبَّ قَائِمٍ حَظَّهُ مِنْ قِيَامِهِ

السَّهْرُ، وَرُبَّ صَائِمٍ حَظَّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ».

2- المقام الثاني مقام الشريف: وهو مقام سيد العابدين والمتعبدين، مقام سيدنا محمد رسول الله ﷺ ومن اقتفى أثره، وسار على هداه من أمته، وهو مقام: أرحنا بها يا بلال.

فالعبادة نزهة القاصدين، ومستروح المريرين، ومربع الأفس والمحبين، ومرتع البهجة للعارفين، بها قُرَّةُ أعينهم، وفيها مسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم.

إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير.

والمنهج الإسلامي منهج عبادة، والعبادة ذات أسرار، ومن أسرارها أنها زاد الطريق، وأنها مدد الروح، وأنها جلاء القلب، وأنه حيثما كان تكليفٌ كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر.. إن الله سبحانه حينما انتدب محمداً ﷺ للدور الكبير الشاق الثقيل، قال له: ﴿يَأَيُّهَا الْمُرْسَلُ ۖ قُرْ آيَاتِ الْكِتَابِ ۚ إِنَّكَ عَلَيْهَا تُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَتُنزِلُ الْغَمَامَ ۗ وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ ۚ الَّذِينَ إِذَا أُتُوا بِالْحَبْرِ قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ بَشِيرًا دَلِيلًا ۚ لِيُخْرِجَ مِنْهُمْ الْحَبْرَ وَيُؤْتِيَ الثَّمَرَ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الصَّالِحِينَ ۚ﴾ ﴿١﴾ ﴿قُرْ آيَاتِ الْكِتَابِ ۚ إِنَّكَ عَلَيْهَا تُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَتُنزِلُ الْغَمَامَ ۗ وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ ۚ الَّذِينَ إِذَا أُتُوا بِالْحَبْرِ قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ بَشِيرًا دَلِيلًا ۚ لِيُخْرِجَ مِنْهُمْ الْحَبْرَ وَيُؤْتِيَ الثَّمَرَ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الصَّالِحِينَ ۚ﴾ ﴿٢﴾ ﴿نُصِّفَهُ ۚ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ﴾ ﴿٣﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۚ﴾ ﴿٤﴾ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ فكان الإعداد للقول الثقيل، والتكليف الشاق، والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن.. إنها العبادة التي تفتح القلب، وتوثق الصلة، وتيسر الأمر، وتشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان.

يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيراً؛ ذلك أن الله سبحانه يعلم

ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع؛ والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات؛ والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج.. ولا بد من الصبر في هذا كله، لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد النفس لله تعالى، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بقاء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقله العناد، ومضاضة الإعراض.

وحيث يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد، فمن ثم يقرون الصلاة إلى الصبر، فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد، المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب، فيمتد جبل الصبر ولا ينقطع. ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين.

إنه لا بد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى، يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة، حينما يطول به الطريق وتبعد به

الشقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئاً وشمس العمر تميل للغروب. حينما يجد الشر نافشاً والخير ضاويماً ولا شعاع في الأفق ولا معلم في الطريق. وهنا تبدو قيمة العبادة والصلاة.. إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية، إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض، إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض.

ولقد وَسَّعَ اللهُ قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْعُلُومِ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ بِالْمَعَارِفِ، وَذَلِكَ مِمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ، وَخَفَّفَ عَلَيْهِ ثِقَلَ الْعِبَادَةِ حَتَّى جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ، جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ».

والعبادة إجلالك لنعوت كرمه، ونزولك بساحة جوده، وتسليمك إلى يد حكمه، فتقصده بأمل فسيح، وتخطو إليه بخطو وسيع، وتأمل فيه برجاء قوي، وثق بكرم أزلي، وتكل على اختيار سابق، وتعصم بسبب جوده.

روى الترمذي وغيره أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي» أَي أَحَقُّ أَحِبَّائِي وَأَنْصَارِي عِنْدِي بِأَنْ يَغِيبَ وَيَتَمَنَّى حَالَهُ مُؤْمِنٌ بِهِذِهِ الصِّفَةِ «لِمُؤْمِنٍ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنَ الصَّلَاةِ» أَي وَمَعَ هَذَا هُوَ صَاحِبٌ لَذَّةٍ وَرَاحَةٍ مِنَ الْمُنَاجَاةِ مَعَ اللَّهِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَاسْتِغْرَاقٍ فِي الْمُشَاهَدَةِ.

والحديث يدل على مشروعية اجتهاد النفس في العبادة من الصلاة وغيرها ما لم يؤديه ذلك إلى الملل، وكانت حاله ﷺ أكمل

الأحوال ، فكان لا يميل من عبادة ربه ، بل كان في الصلاة قرّة عينه .
وأهل مقام «أرحنا بها»: يحافظون على الصلاة في أوقاتها ، ومن
آخر الصلاة عن وقتها ، أذهب الله البركة من عمره ، إلا أن القضية
تتلخص في أن الذي حزم أمره وأعلن توبته واصطلح مع الله يرتاح في
الصلاة ، بينما الذي أقام على معصية أو مخالفة يرتاح منها إذا صلاها ،
وفرق كبير جداً بين أن يرتاح الإنسان في الصلاة وبين أن يرتاح منها ،
الراحة منها تشير إلى بعض أنواع النفاق ، لكن الراحة فيها عين الإيمان .
والصلاة الكاملة التي يؤديها المرء بخشوع وحضور قلب تُعدُّ راحةً
للقلب وقرّة للعين ، وهذه صلاة النبي ﷺ ، ففي الحديث الذي أخرجه
الترمذي والحاكم والطبراني والنسائي في الأوسط والصغير وأبو يعلى في
مسنده وأبو عوانة في مستخرجه والطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ
الدُّنْيَا النَّسَاءُ وَالطَّيْبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»⁽¹⁾ .

(1) قال العجلوني في كشف الخفاء: ذكر هذا الحديث السيوطي في المقاصد
وكثيرون بدون «من دنياكم ثلاث» وقال: وأما ما اشتهر من زيادة «ثلاث» فلم
أقف عليها إلا في موضعين من الإحياء ، وفي تفسير آل عمران من الكشاف ،
وما رأيتها في شيء من طرق هذا الحديث بعد مزيد التفتيش ، قال: وبذلك
صرح الزركشي ، بل قال: زيادتها محيلة للمعنى ، فإن الصلاة ليست من الدنيا .
وقال في المواهب: وقع في الإحياء والكشاف وكثير من كتب الفقهاء «حُبِّبَ
إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ: النِّسَاءِ ، وَالطَّيْبِ ، وَجُعِلَتْ فِي قُرَّةِ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» ،
وقال ابن القيم وغيره: من رواه «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ» فقد وهم ، ولم
يقبل عليه السلام: «ثلاث» إذ الصلاة ليست من أمور الدنيا التي تضاف إليها ،

تنبيه: نقل الشبراملسي في حاشيته على المواهب عن الذريعة لابن العماد أنه قال فيها: وعن الشيخ أبي محمد النيسابوري أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، قال: وأنا حجب إلي من الدنيا ثلاث: الصلاة عليك، والجلوس بين يديك وإنفاق مالي عليك.

فقال عمر رضي الله عنه: وأنا حجب إلي من الدنيا ثلاث: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة حدود الله.

فقال عثمان رضي الله عنه: وأنا حجب إلي من الدنيا ثلاث: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام.

فقال علي رضي الله عنه: وأنا حجب إلي من الدنيا ثلاث: الضرب بالسيف، والصوم بالصيف، وإكرام الضيف.

فنزله جبريل عليه السلام وقال: وأنا حجب إلي من الدنيا ثلاث: إغاثة المضطرين، وإرشاد المضلين، والمؤانسة بكلام رب العالمين.

ثم عرج ثم رجع فقال: يقول تعالى: وهو حجب إليه من عباده ثلاث: لسان ذاك، وقلب شاكر، وجسم على بلائه صابر.

وفي كلام بعضهم: أن أبا حنيفة لما وقف على ذلك قال: وأنا

بل هي عبادة محضة، نعم يصح أن تضاف إليها لكونها ظرفاً لوقوعها فيها. وكذا قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الرافعي تبعاً لأصله، والولي ابن العراقي في أماليه: إن لفظ «ثلاث» لم يقع في شيء من طرقه، بل هي مفسدة للمعنى. انتهى ملخصاً.

وقال العجلوني أيضاً: لكن عند أحمد عن عائشة: كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ثلاثة أشياء: النساء والطيب والطعام، فأصاب اثنتين ولم يصب واحدة، أصاب النساء والطيب، ولم يصب الطعام. إسناده صحيح.

حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ: تَرَكَ التَّرَفَعَ وَالتَّعَالَى، وَقَلْبَ مِنْ حَبِيبِ خَالِي، وَالتَّهَجَّدَ بِالْعِلْمِ فِي طَوْلِ اللَّيَالِي.

وَأَنْ مَالِكًا لَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ أَيْضًا قَالَ: وَأَنَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ: مَجَاوِرَةَ تَرَبَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِحْيَاءَ عُلُومِ الدِّينِ، وَالِاقْتِدَاءَ بِالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ.

وَأَنْ الشَّافِعِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ أَيْضًا قَالَ: وَأَنَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ: تَرَكَ التَّكْلِفَ، وَعَشْرَةَ الْخَلْقِ بِالتَّلَطُّفِ، وَالِاقْتِدَاءَ بِطَرِيقِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ.

وَأَنْ أَحْمَدَ لَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ قَالَ: وَأَنَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ: عَطَاءَ مَنْ غَيْرِ مَنْةٍ، وَنَفْسَ مَطْمَئِنَّةٍ، وَالِاتِّبَاعَ لِلسَّنَةِ. اهـ كَشَفَ الْخُفَاءَ (360/1).



تفسير قوله تعالى

﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وفيه اثنتا عشرة مسألة:

1 - العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ، ومنه طريق مُعَبَّدٌ ، أي : مُذَلَّلٌ ، والاستعانة: طلب المعونة ، والمراد طلب المعونة في المهمات كُلِّهَا ، أو في أداء العبادات . ولقد ثبت بالدلائل العقلية أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله تعالى ، ولا قوة على طاعة الله تعالى إلا بتوفيق الله تعالى ، ويدل عليه وجوه من العقل والنقل ، أما العقل فمن وجوه:

الأول: أن القادر متمكّن من الفعل والترك على السوية ، فما لم يحصل المرجّح لم يحصل الرجحان ، وذلك المرجح ليس من العبد ، وإلا لعاد في الطلب ، فهو من الله تعالى ، فثبت أن العبد لا يمكنه الإقدام على الفعل إلا بإعانة الله تعالى .

الثاني: أن جميع الخلائق يطلبون الدين الحق والاعتقاد الصادق ، مع استوائهم في القدرة والعقل والجد والطلب ، ففوز البعض بَدْرُكِ الحق لا يكون إلا بإعانة معين ، وما ذاك المعين إلا الله تعالى ، لأن ذلك المعين لو كان بشراً أو ملكاً لعاد الطلب فيه .

الثالث: أن الإنسان قد يطالب بشيء مدةً مديدة ولا يأتي به ، ثم في أثناء حال أو وقت يأتي به ويُقدّم عليه ، ولا تتفق له تلك الحالة إلا إذا وقعت داعية جازمة في قلبه تدعوه إلى ذلك الفعل ، فإلقاء تلك

الداعية في القلب وإزالة الدواعي المعارضة لها ليست إلا من الله تعالى ، ولا معنى للإعانة إلا ذلك .

وأما النقل فيدل عليه آيات :

أولها: قوله ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وثانيها: قوله: ﴿أَسْتَعِينُوا﴾

بِاللَّهِ ﴿ [الأعراف: 128] ، وقد اضطربت الجبرية والقدرية في هذه الآية: أما الجبرية فقالوا: لو كان العبد مستقلاً بالفعل لما كان للاستعانة على الفعل فائدة ، وأما القدرية فقالوا: الاستعانة إنما تحسّن لو كان العبد متمكناً من أصل الفعل ، فتبطل الإعانة من الغير ، أما إذا لم يقدر على الفعل لم تكن للاستعانة فائدة .

والصحيح أن القدرة لا تؤثر في الفعل إلا مع الداعية الجازمة ، فالإعانة المطلوبة عبارة عن خلق الداعية الجازمة ، وإزالة الداعية الصارفة .

2 - الاستعانة على العمل إنما تحسّن قبل الشروع في العمل ،

وهاهنا ذكر قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم ذكر عقبه ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، فما الحكمة فيه ؟ الجواب من وجوه:

الأول: كأن المصلي يقول: شرعت في العبادة فأستعين بك في إتمامها ، فلا تمنعني من إتمامها بالموت ولا بالمرض ولا بقلب الدواعي وتغيّرها .

الثاني: كأن الإنسان يقول: يا إلهي إني أتيت بنفسي ، إلا أن لي قلباً يفرّ مني ، فأستعين بك في إحضاره ، وكيف وقد قال عليه الصلاة

والسلام: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» [رواه مسلم]؟ فدل ذلك على أن الإنسان لا يمكنه إحضار القلب إلا بإعانة الله تعالى.

الثالث: لا أريد في الإعانة غيرك، لا جبريل ولا ميكائيل، بل أريدك وحدك، وأقتدي في هذا المذهب بالخليل عليه السلام، لأنه لما قيد نمرود رجله ويديه ورماه في النار جاءه جبريل عليه السلام وقال له: هل لك من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: سله، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، بل ربما أزيد على الخليل في هذا الباب، وذلك لأنه قيّد رجله ويديه لا غير، وأما أنا فقيدت رجليّ فلا أسير، ويديّ فلا أحركهما، وعينيّ فلا أنظر بهما، وأذنيّ فلا أسمع بهما، ولساني فلا أتكلم به، وكان الخليل مشرفاً على نار نمرود، وأنا مشرف على نار جهنم، فكما لم يرض الخليل عليه السلام بغيرك معيناً فكذلك لا أريد معيناً غيرك، فإياك نعبد وإياك نستعين.

فكأنه تعالى يقول: أتيت بفعل الخليل وزدت عليه، فنحن نزيد أيضاً في الجزاء لأننا ثَمَّتَ قلنا: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]، وأما أنت فقد نجيناك من النار، وأوصلناك إلى الجنة، وزدناك سماع الكلام القديم، ورؤية الموجود القديم، وكما أنا قلنا لنار نمرود: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ﴾ فكذلك تقول لك نار جهنم: جُزْ يا مؤمن قد أطفأ نورك لهبي. قاله الرازي.

الرابع: «إياك نستعين»: أي: لا أستعين بغيرك، وذلك لأن ذلك

الغير لا يمكنه إعانتي إلا إذا أعتته على تلك الإعانة، فإذا كانت إعانة الغير لا تتم إلا بإعانتك فلنقطع هذه الوسطة ولنقتصر على إعانتك .

الوجه الخامس: قوله ﴿وَأَيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يقتضي حصول رتبة عظيمة

للنفس بعبادة الله تعالى، وذلك يورث العُجبَ، فأردف بقوله ﴿وَأَيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ ليدل ذلك على أن تلك الرتبة الحاصلة بسبب العبادة ما حصلت من قوة العبد، بل إنما حصلت بإعانة الله، فالمقصود من ذكر

قوله ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إزالة العجب وإفناء تلك النخوة والكبر .

3 - والاستعانة تجمع أصليين: الثقة بالله تعالى . والاعتماد عليه،

فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره - مع ثقته به - لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه . . فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به .

قال تعالى: ﴿وَأَيَّاكَ نَعْبُدُ وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي لا نعبد إلا إياك ولا

نستعين إلا بك، ونبرأ من كل معبود دونك ومن عابديه، ونبرأ من الحول والقوة إلا بك، فلا حول لأحد عن معصيتك، ولا قوة على طاعتك إلا بتوفيقك ومعونتك . وقال عن نبيه يعقوب عليه السلام:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ .

وللترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خَلْفَ النَّبِيِّ

ﷺ يوماً فقال: «يا غلامُ إني أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ،

أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنُ

بِاللَّهِ؛ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَّمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَّمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»
 قال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وفي رواية غير الترمذي زيادة: «أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدَهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ»
 وفي آخره «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ~ عن النبي: <..أحرص على ما ينفعك واستعن بالله...>، وفي الترمذي من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وقد يحتج بعضهم بهذه الآية وبهذه الأحاديث على حرمة التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالصالحين، وأنه يتعارض مع حصر الاستعانة بالله تعالى، ويعتقدون أن التوسل باستعانة بالمخلوق وترك الخالق، وهذا خطأ كبير، وجعل فاضح، فالتوسل هو من الاستعانة بالله تعالى وحده لا شريك له، لأن التوسل من باب تعاطي الأسباب المأمورين بالأخذ بها، كالأدوية والرقى الشرعية.

جاء في مستدرک الحاكم عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: مرنا بسيل فدخلت فاعتسلت فيه فخرجت محمومًا، فمني ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «مروا أبا ثابت يتعوذ» قال: فقلت: يا سيدي والرقي صالحه؟! فقال: «لا رقي إلا في نفس أو حمة أو لدغة».

وَمَنْ عَدَّ التَّوَسَّلَ شِرْكَاً وَجَعَلَهُ مِنْ قَبِيلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ فِي
 الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ دَعَاءِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ فَهَذَا بَلِغٌ حَدًّا مِنَ الْجَهْلِ لَا مَزِيدَ
 عَلَيْهِ ، لِأَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ بِجَمِيعِ فِرْقِهِمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنْ يَدْعُونَهُ إِلَهًا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، فَالتَّوَسُّلُ غَيْرُ الشُّرْكِ ؛ فَدَعَاءُ
 الْمُشْرِكِينَ دَعَاءُ الْأَوْهِيَّةِ وَتَعَبُّدٌ ، وَدَعَاءُ الْمُسْلِمِينَ تَوَسُّلٌ وَاسْتِشْفَاعٌ ،
 وَفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ مَنْ يَقُولُ : يَا رَبِّ اعْطِنِي كَذَا بِحَقِّ فُلَانٍ ، وَبَيْنَ مَنْ
 يَقُولُ : اُعْلُ هَبْلٌ !! خَذَلْنِي اللَّاتُ !!

والإشراك في اللغة: معناه اعتقاد شريك مع الله في الألوهية ، وهو
 كفرٌ بالله تعالى ، وأما التوسل فهو التقرب إلى الغير ، يقال: توسل إلى
 فلان بكذا إذا تقرب إليه بشيء ، والوسيلة ما يُتَقَرَّبُ بِهِ ، ومنه قوله
 تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ .
 والاستغاثة: معناه طلب الغوث والنجدة . والدعاء: معناه النداء
 وطلب الإقبال .

كما أن الإشراك الذي حصل من المشركين الذين ذمهم القرآن
 هو عبادتهم للأنبياء والملائكة والأولياء ، بناءً على اعتقادهم فيهم أنهم
 شاركوا الله في الألوهية ، وأن لهم تأثيراً في الأشياء ، والمشركون كانوا
 يعبدون آلهتهم ويعتقدون أنها تستطيع أن تقربهم إلى الله تعالى ، وهذا
 بنص القرآن ، فاعترفوا على أنفسهم بأمرين عظيمين: أنهم يعبدون
 آلهتهم التي يعتقدون أنها تؤثر في الكون مع الله تعالى ، وهذا كفر ،
 ولهذا كانوا يقولون في تلييتهم إذا حجوا في جاهليتهم: «لييك لا

شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك» ، وقد علم في علم التوحيد أنه لا فعل إلا لله تعالى ، وأنه من أثبت لغير الله تعالى فعلاً مستقلاً كفعله تعالى من غير إرادة له تعالى فإنه كافر بالله تعالى ، وإن زعم أنه مؤمن .

والتوسل إلى الله عز وجل بعباده الصالحين من الأنبياء وغيرهم إنما يعتمد ويستند إلى أدلة ثابتة كثيرة جداً منها:

* روى الطبراني بإسنادٍ رجاله ثقات - كما قال الحافظ الهيثمي - عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكةً في الأرض - سوى الحفظة - يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا أصاب أحدكم عرجةٌ بأرض فلاة فليناد: أعينوا عباد الله». نجد في هذا الحديث جواز استغاثة المخلوق والاستعانة به ، وذلك لا يكون بالضرورة إلا فيما يقدر عليه ويليق به ، أما الاستغاثة المطلقة والإعانة المطلقة فهما مختصان بالله تعالى ، لا يطلبان إلا منه ، وهذا معلوم من الدين بالضرورة.

* وأخرج الترمذي وابن ماجه في سننهما ، والنسائي في عمل اليوم والليلة ، والطبراني ، والحاكم ، والبيهقي وغيرهم ، عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه: أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: «إن شئت دعوتُ ، وإن شئت صبرتَ فهو خير لك» قال: فادعه قال: «فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى ، اللهم فشفِّعه فيَّ» .

قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضررٌ قط .

وقد يقول قائل: ليس في هذا الحديث جواز التوسل به في مغيبه وبعد مماته، بل إنما فيه التوسل في حياته بحضوره؟ فنقول: هذه مغالطة وقلة إنصاف، فقد تقرر في علم الأصول أن الحديث إذا ورد في جواز شيء أو غيره كان شرعاً ثابتاً مستقراً لا يُخصَّص بحالة دون أخرى، بل يجب استمراره إلى قيام الساعة، إلا أن يخصصه الشارع بحالة من الأحوال أو ينسخه بالنسبة لبعض الأزمان .

ثم إذا فرضنا أن هذا صائب، فكيف أمر عثمان بن حنيف رضي الله عنه وهو راوي الحديث ومشاهد لسبب وروده ذلك الرجل الذي كانت له إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه حاجة أن يدعو به؟ أترى عثمان بن حنيف رضي الله عنه كان أقلَّ فهماً من المعترض؟! فقد روى الهيثمي في مجمع الزوائد عن عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف، فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك، ورح إليَّ حتى أروح معك .

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة وقال: حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له، ثم إن الرجل خرج من عنده

فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمته فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ: ائت الميضاة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الكلمات، فقال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل عليه الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط.

قال الهيثمي: روى الترمذي وابن ماجه طرفاً من آخره خالياً عن القصة، وقد قال الطبراني عقبه: والحديث صحيح بعد ذكر طرقة التي روى بها.

* عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترب آدم عليه السلام الخطيئة قال: يا رب، أسألك بحق محمد لما غفرت لي. فقال الله: يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب، لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فعرفتُ أنك لم تُضفْ إلى اسمك إلا أحبَّ الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك، وهو آخر الأنبياء من ذريتك». أخرجه الحاكم في المستدرک بإسناده وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

* وحديث توسل آدم عليه السلام له شاهداً يؤيده، فقد أخرج ابن المنذر في تفسيره عن محمد بن علي بن حسين بن علي عليهم السلام قال: لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربُه واشتد ندمه، فجاءه

جبريل عليه السلام فقال: «يا آدم هل أدلك على باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه؟ قال: بلى يا جبريل، قال: قم في مقامك الذي تناجي فيه ربك، فمجّده وامدح، فليس أحبّ إلى الله من المدح، قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: فقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير، ثم تبوء بخطيئتك، فتقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، ربّ إني ظلمت نفسي وعملت السوء فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم إني أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي»، قال: ففعل آدم، فقال الله: يا آدم من علّمك هذا؟ فقال: يا رب إنك لما نفخت فيّ الروح فقمّتُ بشراً سوياً أسمع وأبصر وأعقل وأنظر، رأيت على ساق عرشك مكتوباً: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله، فلما لم أرَ على إثر اسمك اسم ملك مقرب ولا نبي مرسل غير اسمه، علمت أنه أكرم خلقك عليك. قال: صدقت، وقد تبّئتُ عليك وغفرت لك.

* وحديث توّسل آدم عليه السلام له شاهدٌ آخر يؤيده، فقد أخرج ابن المنذر في تفسيره عن محمد بن علي بن حسين بن علي عليهم السلام قال: لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: «يا آدم هل أدلك على باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه؟ قال: بلى يا جبريل، قال: قم في مقامك الذي تناجي فيه ربك، فمجّده وامدح، فليس أحبّ إلى الله من المدح،

قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: فقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير، ثم تبوء بخطيئتك، فتقول: «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، رب إني ظلمت نفسي وعملت سوء فاعفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم إني أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي».

* وله شاهد آخر، فقد روى ابن الجوزي في كتاب «الوفا بفضائل المصطفى ﷺ» من طريق أبي الحسين ابن بشران: حدثنا أبو جعفر محمد بن سنان العوفي: ثنا إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن مسيرة، عن عبد الله بن شقيق، عن ميسرة قال: قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش، كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء، فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام، وآدم بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي، فأخبره الله أنه سيد ولدك، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه». وإسناد هذا الحديث قويٌّ كما قال الحافظ في الفتح وغيره، وهو أقوى شاهد وقفت عليه لحديث عبد الرحمن بن زيد.

* وفي الباب ما رواه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة قال: حدثنا هارون بن يوسف التاجر: ثنا أبو مروان العثماني: حدثني أبو عثمان بن خالد، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه أنه قال: من

الكلمات التي تاب الله بها على آدم قال: اللهم إني أسألك بحق محمد عليك، قال الله تعالى: وما يدريك ما محمد؟ قال: يا رب رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على عرشك: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه أكرم خلقك. فانضمام هذا الأثر إلى حديث عبد الرحمن ابن زيد يفيد قوة كما لا يخفى.

أما قوله في الحديث «لولاہ یا آدم ما خلقتك»، فقد أخرج الحاكم نفسه شاهداً له عن ابن عباس فقال: حدثنا علي بن حمشاذ العدل، حدثنا هارون بن العباس الهاشمي، حدثنا جندل بن والقي، حدثنا عمرو بن أوس الأنصاري، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عباس قال: أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: «يا عيسى آمِنْ بمحمد وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولاہ ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب، فكتبت عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فسكن». قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، فكتب عليه الذهبي ما نصه: أظنّه موضوعاً على سعيد. اهـ.

ولا يخفى أن هذا الظن من الذهبي لم يقم عليه دليل فلا اعتداد به، فكيف وقد ورد من طريق آخر عن ابن عباس مرفوعاً؟ قال الديلمي في مسند الفردوس: أخبرنا أبي، ثنا أبو طالب بن علي بن الحسين، ثنا عبد الله بن إبراهيم، ثنا عبید الله بن موسى القرشي، ثنا الفضل بن جعفر بن سليمان، عن عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن ابن عباس مرفوعاً: «أتاني جبريل فقال: يا محمد

إن الله يقول: لولاك ما خلقت الجنة، ولولاك ما خلقت النار». وعبد الصمد ضعّفه العقيلي، وقال: حديثه غير محفوظ.

والمقصود أن حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قصة توصل آدم عليه السلام ليس بموضوع، ولا تسمح القواعد الحديثية أن يكون موضوعاً للوجوه التي ذكرناها، خلافاً للذهبي رحمه الله تعالى، فإنه تشدّد كثيراً كما أن الحاكم تساهل فيه كثيراً، والصواب أن الحديث ضعيف منجبر بحديث ميسرة الفجر، وهو حديث قوي كما سبق آنفاً، وبأثر الباقر وغيره رضي الله عنهم، وبذلك يكون حديث توصل آدم حسناً لغيره، فيُحتج به بلا نزاع.

* وأخرج ابن ماجه في سننه قال: حدثنا محمد بن سعيد بن يزيد بن إبراهيم التستري، ثنا الفضل بن الموفق أبو الجهم، ثنا فضيل ابن مرزوق، عن عطية - يعني العوفي - عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشي هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وتغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك».

* قال ابن السني في عمل اليوم والليلة: حدثنا ابن منيع، ثنا الحسن بن عرفة، ثنا علي بن ثابت الجزري، عن الوازع بن نافع، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن جابر بن عبد الله، عن بلال مؤذن النبي ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا خرج إلى الصلاة قال: «بسم الله

آمنتُ بالله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق مخرجي هذا، فإني لم أخرجهُ أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعةً، خرجت ابتغاء مرضاتك واتقاء سخطك، أسألك أن تعيذني من النار وتدخلني الجنة».

وهذا الحديث يدل على التوسل، فمعنى التوسل بالأولياء الذي نقول به هو سؤال الله بحقهم عليه وجاههم عنده وكرامتهم لديه، وذلك في التحقيق يرجع إلى التوسل بحب الله وإكرامه لهم، وهذا يستوي فيه الولي الحي والميت، لأن الله يحب أوليائه ويكرمهم جميعاً، بل الولي الميت أولى لأنه في دار الكرامة والجزاء.

قال العلامة محمد زاهد الكوثري: وفي الحديث التوسل بعامة المسلمين وخاصتهم، وإدخال الباء في أحد مفعولي السؤال إنما هو في السؤال الاستعلامي، كقوله تعالى: ﴿فَسأَلْ بِهِ خَبيراً﴾، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، وأما السؤال الاستعطافي لا تدخل الباء فيه أصلاً إلا على المتوسّل به، فدونك الأدعية المأثورة، فتصوّر إدخالها هنا في المفعول الثاني إخراجاً للكلام عن سننه بهوى وصيحة باطل تمجها الأسماع، وليس معنى الحق الإجابة، بل ما يستحقه السائلون المتضرعون فضلاً من الله سبحانه وتعالى، فيكون عد «بحق السائلين» سؤالاً لهذا الداعي هذياناً محضاً، ولا سيما عند ملاحظة ما عطف عليه في الحديث، وأما زعم أنه ليس في سياق الحديث ما يصح أن يكون سؤالاً غير ذلك فمما يثير الضحك الشديد

والهزء المديد، فأين ذهب من هذا الزاعم «أن تعيذني من النار»؟ وكم يكرر الفعل للتوكيد؟ فالسؤال في الفعل الأخير هو السؤال في الفعلين المتقدمين، بل لو لم تكن تلك الأفعال من باب التوكيد لدخلت في باب التنازع، فيكون هذا القيد معتبراً في الجميع على كل تقدير.

وأما من يحاول ردّ التوسل بتصور دخوله في الحلف بغير الله، فإنما حاول الرد على المصطفى صلوات الله عليه لأنه هو الذي علم صيغ التوسل، وفيها التوسل بالأشخاص، وأين التوسل من الحلف؟ اهـ.

* وأخرج البزار في مسنده قال: ثنا يوسف بن موسى، ثنا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكةً سياحين يبلغوني عن أمتي السلام» قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حياتي خير لكم، تُحدثون ويُحدث لكم، ووفاتي خير لكم، تُعرض عليّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدتُ الله، وما رأيت من شرٍّ استغفرتُ الله لكم». قال البزار: لا نعلمه يُروى عن عبد الله إلا بهذا الإسناد. قال الحافظ العراقي في كتاب الجنائز من طرح الشريب في شرح التقريب: إسناده جيد. وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد والمحدث القسطلاني في شرح البخاري: رجال إسناده رجال الصحيح. وقال السيوطي في كتاب المعجزات والخصائص: إسناده صحيح، وكذا قال الملا علي القاري والشهاب الخفاجي في أول شرحيهما على الشفاء.

وبالجملة فالحديث صحيح لا مطعن فيه ، وهو يدل على أن النبي ﷺ يعلم أعمالنا بعرضها عليه ويستغفر الله لنا على ما فعلنا من سيئ وقبيح ، وإذا كان كذلك فيجوز لنا أن نتوسل به إلى الله ونستشفع به لديه ؛ لأنه يعلم بذلك فيشفع فينا ويدعو لنا ، وهو الشفيع المشفع ﷺ .
وقد أخبر الله في القرآن أن النبي ﷺ شهيد على أمته ، وذلك يقتضي أن تعرض أعمالهم عليه ليشهد على ما رأى وعلم .

روى الطبراني في معجميه الكبير والأوسط قال: حدثنا أحمد بن حماد بن زعبة ، ثنا روح بن صلاح ، أخبرنا سفيان ، عن عاصم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال: «رحمك الله يا أمي ، كنت أمي بعد أمي ، تجوعين وتشبعيني ، وتعرين وتكسينني ، وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني ، تريدن بذلك وجه الله والدار الآخرة» ، ثم أمر أن تُغسل ثلاثاً ثلاثاً ، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور وضعه ﷺ بيده ، ثم خلع رسول الله عليه وسلم قميصه فألبسها إياه ، وكفنها ببرد فوقه ، ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون ، فحفروا قبرها ، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل فيه رسول الله ﷺ فاضطجع فيه ثم قال: «إن الله يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حُجَّتْها ، ووسع عليها مُدخَلْها ، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ، فإنك أرحم الراحمين» وكبّر عليها أربعاً وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو

بكر رضي الله عنهما .

قال الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح غير روح بن صلاح ، وقد وثقه ابن حبان والحاكم .
ومنها ما رواه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح وإذا أمسى دعا بهذا الدعاء: «اللهم أنت أحق من ذكر، وأحق من عبد، وأنصر من أتبع، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأوسع من أعطى، أنت المالك لا شريك لك، والفرد لا يهلك، كل شيء هالك إلا وجهك، لن تطاع إلا بإذنك، ولن تعصى إلا بعلمك، تطاع فتشكر، وتُعصى فتغفر، أقرب شهيد وأدنى حفيظ، حلت دون الثغور، وأخذت بالنواصي، وكتبت الآثار، ونسخت الآجال، القلوب لك مفضية، والسر عندك علانية، الحلال ما حلت، والحرام ما حرمت، والدين ما شرعت، والأمر ما قضيت، والخلق خلقك، والعبد عبدك، وأنت الله الرؤوف الرحيم، أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض، وبكل حق هو لك، وبحق السائلين عليك، أن تقبلني في هذه الغداة أو في هذه العشيّة وأن تجيرني من النار بقدرتك». قال الحافظ الهيثمي: في سنده فضال بن جبير وهو ضعيف مجمع على ضعفه . اهـ .

ولكن للحديث شاهد قوي وهو حديث: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك»، فإنه حسن كما رأيت .
ومنها ما رواه الحاكم في المستدرک والبيهقي في الدلائل من طريق عبد الملك بن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن جده، عن سعيد

ابن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا هُزمت يهود خيبر، فعادت اليهود بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بُعث النبي ﷺ كفروا به فأنزل الله ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: وقد كانوا يستفتحون بك يا محمد، إلى قوله: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. هذا إسناد ضعيف لضعف عبد الملك بن هارون.

لكن للأثر طرق، فأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت يهود بني قريظة والنضير من قبل أن يُبعث محمدٌ ﷺ يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا، يقولون: اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلا نصرتنا عليهم، فينصرون، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ يريد محمداً ﷺ، ولم يشكوا فيه ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾.

وأخرج أيضاً من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان يهود المدينة قبل قدوم النبي ﷺ إذا قاتلوا من يليهم من مشركي العرب من أسد وغطفان وجهينة وعدرة يستفتحون عليهم ويستنصرون، يدعون عليهم باسم نبي الله، فيقولون: اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك وبكتابك الذي تنزل عليه الذي وعدتنا أنك باعته في آخر الزمان.

ووجه الدلالة في هذا الأثر ظاهر، فإن الله تعالى أقرهم على توسلهم بالنبي ﷺ ولم يذمهم عليه، وإنما ذمهم على جحودهم وكفرهم به .

ومنها ما رواه الطبراني عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستفتح بصعاليك المسلمين . قال الحافظ المنذري: رواه رواية الصحيح، وهو مرسل . اهـ .

قال الإمام الحافظ الشامي في كتابه القيم سبل الهدى والرشاد (403/12): قال الإمام السبكي - رحمه الله تعالى -: اعلم أن الاستعانة والتشفع بالنبي ﷺ وبجاهه وبركته إلى ربه تبارك وتعالى من فعل الأنبياء عليهم السلام وسير السلف الصالحين واقع في كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته الدنيوية، ومدة البرزخ [وبعد البعث] وعَرَصَات القيامة، وذلك مما قام الإجماع عليه وتواترت به الأخبار، وإذا جاز السؤال بالأعمال كما في حديث الغار الصحيح، وهي مخلوقة، فالسؤال بالنبي ﷺ أولى، وفي العادة أن من له عند شخص قدر يتوسل به إليه في غيبته، فإنه يجيب إكراماً للمتوسّل به، وقد يكون ذكر المحبوب أو المعظم سبباً للإجابة، ولا فرق في هذا بين التعبير بالتوسل أو الاستعانة أو التشفع، ومعناه: التوجه بذى الحاجة، وقد يتوجه بمن له جاه إلى من هو أعلى منه، وكيف لا يتشفع ويتوسل بمن له المقام المحمود والجاه عند مولاه؟ بل يجوز التوسل بسائر الصالحين .

مع العلم أن غير البشر قد توسّلت به، فقد روى ابن شاهين في

(دلائله) عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم خلفه، فأسرَّ إليَّ حديثاً لا أحدثُ به أحداً من الناس، وقال: كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائشٌ نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبيَّ صلى الله عليه وسلم فمسح سراته وذفراه، فسكت. وفي رواية: فسكن.

ثم قال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: هذا لي يا رسول الله، فقال: أفلا تتقي الله في هذا الجمل الذي ملكك الله إياه؟ فإنه يشتكي إليَّ أنك تُجيعه وتُدبِّبه).
وروى مسلم إلى: (حائش نخل) عن محمد بن عبد الله بن أسماء، ورواه أبو داود بطوله عن موسى بن إسماعيل، عن مهدي بن ميمون.

وروى ابن ماجه (أوله) عن مهدي، وذكر ابن النعمان في كتابه (مصباح الظلام) بسنده عن تميم الداري رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل بغيرٍ يغدو، حتى وقف على هامة رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعاً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيها البعير اسكن، فإن تك صادقاً فلك صدقك، وإن تك كاذباً فعليك كذبك، مع أن الله قد أمّن عائدنا، وليس بخائب لائدنا».

قلنا: يا رسول الله ما يقول البعير؟ قال: هم أصحابه بنحره وأكله، فهرب منهم، فاستغاث بنبيكم، فبينما نحن كذلك، إذ أقبل أصحابه يتعادون، فلما رأهم البعير عاد إلى هامة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاذ

بها، فقالوا: يا رسول الله، بعيرنا هرب منا منذ ثلاثة أيام، فلم نلقه إلا بين يديك، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه شكا، فبئست الشكاية»، فقالوا: يا رسول الله ما يقول؟ قال: «يقول إنه رُبِّي في بيتكم، وكنتم تحملون عليه في الصيف إلى موضع الكلاء، وفي الشتاء إذا رحلتم إلى موضع الدفء، فلما كبر استفحلتموه، فرزقكم الله به إبلاً سائمة، فلما أدركته هذه السنة الخصبة هممتم بنحره وأكل لحمه»، فقالوا: قدر الله كان ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا جزاء المملوك الصالح من مواليه»، فقالوا: يا رسول الله فإننا لا نبيعه ولا ننحره، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم، قد استغاث بكم فلم تغيثوه، فأنا أولى بالرحمة منكم، فاشتره وأعتقه».

وروى البيهقي في (دلائله) عن عطية بن أبي سعيد قال: مرّ رسول الله ﷺ بطيبة مربوطة إلى خباء، فقالت: يا رسول الله حُلّني حتى أذهب فأرضع خشفي، ثم أرجع فتربطني، فقال رسول الله ﷺ: «صيد قوم، وربطة قوم»، قال: فأخذ عليها فحلفت له، فحلها، فما مكثت إلا قليلاً حتى جاءت، وقد نفضت ما في ضرعها، فربطها رسول الله ﷺ، ثم أتى خباء أصحابها، فاستوهبها منهم، فوهبها له، فحلها ثم قال رسول الله ﷺ: «لو علمت البهائم من الموت ما تعلمون ما أكلتم سميناً أبداً».

قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: وإذا علمت أن التبرك بالشيء إنما هو طلب الخير بواسطته ووسيلته، علمت أن التوسل بآثار النبي ﷺ أمرٌ مندوب إليه ومشروع، فضلاً عن التوسل بذاته الشريفة.

وليس ثمّة فرق بين أن يكون ذلك في حياته ﷺ أو بعد وفاته ،
فآثار النبي ﷺ وفضلاته لا تتصف بالحياة مطلقاً ، سواء تعلق التبرك
والتوسل بها في حياته أو بعد مماته كما ثبت ذلك في صحيح البخاري
في باب شيب النبي . فهل ثبت لرسول الله ، تأثير ذاتي في
الأشياء في حال حياته ﷺ حتى نبحت عن مصير هذا التأثير بعد
وفاته؟!

إن أحداً من المسلمين لا يستطيع أن ينسب أي تأثير ذاتي في
الأشياء لغير الله الواحد الأحد جل جلاله ، ومن اعتقد خلاف هذا
يكفر بإجماع المسلمين كلهم ، فمناط التبرك والتوسل بآثار النبي ﷺ
وبه ليس هو إسناد أي تأثير إليه - والعياذ بالله - وإنما المناط كونه ﷺ
أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق وكونه رحمة من الله على العباد ،
فهو التوسل بقربه ﷺ إلى ربه ، وبرحمته الكبرى للخلق ، وبهذا
المعنى توسل الأعمى به ﷺ في أن يُردّ عليه بصره ، فرده الله عليه ،
وبهذا المعنى كان الصحابة يتوسلون بآثاره وفضلاته دون أن يجدوا منه
أي إنكار ، وقد مرّ في الكتاب بيان الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى
وأهل بيت النبوة في الاستسقاء وغيره ، وأن ذلك مما أجمع عليه
جمهور الأئمة والفقهاء بما فيهم الشوكاني وابن قدامة الحنبلي والصنعاني
وغيرهم ، والفرق بعد هذا بين حياته وموته ﷺ خلط عجيب وغريب
في البحث لا مسوّغ له .

هذا وقد توسل به ، واستشفع به في مغفرة ذنوبه كثيرون
صالحون ، ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره (347/3-348)

والنووي في الأذكار(262): فقالا: وقد ذكر جماعة منهم: الشيخ أبو نصر بن الصباغ في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العُتبي، قال: كنت جالسا عند قبر النبي، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهنّ القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفأ وفيه الجود والكرم
أنت النبي الذي تُرجى شفاعته عند الصراط إذا ما زلت القدم

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي، الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له.

وذكر الشوكاني كلاماً رائعاً في تحفة الذاكرين في التوسل فقال: عن عثمان بن حنيفٍ رضي الله عنه: أن رجلاً ضريراً البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يُعافيني، قال: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك»، قال: فادعهُ، قال: فأمرهُ أن يتوضأ فيحسن وضوءهُ ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في». حديث صحيح أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، وابن ماجه باب ما جاء في صلاة الحاجة، والنسائي في عمل اليوم والليلة، والحاكم في

المستدرك وابن خزيمة في صحيحه ، والطبراني في الدعاء وغيرهم .
وقال الشوكاني: وفي الحديث دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ إلى الله عز وجل ، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى ،
وأنه المعطي المانع ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . انتهى .

وقال فيها في شرح قول صاحب العمدة: (ويتوسل إلى الله
بأنبيائه والصالحين) ما لفظه: «ومن التوسل بالأنبياء ما أخرجه الترمذي
من حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن أعمى أتى النبي ﷺ ، فذكر الحديث
ثم قال: وأما التوسل بالصالحين فممنه ما ثبت في الصحيح أن الصحابة
استسقوا بالعباس رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ ، وقال عمر رضي الله عنه: اللهم إنا
نتوسل إليك بعم نبينا...إلخ». انتهى .

وقال في رسالته (الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد): «وأما
التوسل إلى الله سبحانه بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربه
فقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: إنه لا يجوز التوسل إلى الله
تعالى إلا بالنبي ﷺ إن صح الحديث فيه . اهـ . ولعله يشير إلى
الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه والترمذي وصححه وابن ماجه
 وغيرهم أن أعمى أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أصبت في
بصري فادع الله لي ، فقال له النبي ﷺ: «توضأ وصل ركعتين ثم قل:
اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ، يا محمد إني أستشفع
بك في رد بصري . اللهم شفّع النبي فيّ» وقال: «فإن كان لك حاجة
فمثل ذلك» فرد الله بصره .

وللناس في معنى هذا قولان:

أحدهما: أن التوسل هو الذي ذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قال: كنا إذا أجدبنا نتوسل بنبينا إليك فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا. وهو في صحيح البخاري وغيره، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته في الاستسقاء، ثم توسل بعمه العباس بعد موته، وتوسلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه، فيكون هو وسيلتهم إلى الله تعالى، والنبي صلى الله عليه وسلم كان في مثل هذا شافعاً وداعياً لهم.

والقول الثاني: أن التوسل به صلى الله عليه وسلم يكون في حياته وبعد موته، وفي حضرته ومغيبه، ولا يخفك أنه قد ثبت التوسل به صلى الله عليه وسلم في حياته، وثبت التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة إجماعاً سكوتياً، لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في التوسل بالعباس رضي الله عنه.

وعندي أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم كما زعمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام لأمرين: الأول ما عرفناك به من إجماع الصحابة رضي الله عنهم. والثاني: أن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسلٌ بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة، إذ لا يكون الفاضل فاضلاً إلا بأعماله، فإذا قال القائل: (اللهم إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني) فهو باعتبار ما قام به من العلم.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله، فارتفعت الصخرة، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير

جائز أو كان شركاً - كما يزعمه المتشدّدون في هذا الباب كابن عبد السلام ومن قال بقوله من أتباعه - لم تحصل الإجابة لهم، ولا سكت النبي ﷺ عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم.

وبهذا تعلم أن ما يورده المانعون من التوسل بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ونحو قوله تعالى ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ونحو قوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ ليس بوارد، بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه، فإن قولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ مصرّح بأنهم عبدوهم لذلك، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يعبد، بل علم أن له مزية عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك، وكذلك قوله ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، فإنه نهى عن أن يدعى مع الله غيره كأن يقول: بالله وبفلان، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله، فإنما وقع منه التوسل عليه بعمل صالح عمله بعض عباده، كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم، وكذلك قوله ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ الآية فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم ولم يدعوا ربهم الذي يستجيب لهم، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله، ولم يدع غيره دونه ولا دعا غيره معه.

وإذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع خروجاً زائداً على ما ذكرناه،

كاستدلّ لهم بقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ، فإن هذه الآية الشريفة ليس فيها إلا أنه تعالى المنفرد بالأمر في يوم الدين ، وأنه ليس لغيره من الأمر شيء ، والمتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء هو لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله في أمر يوم الدين ، ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبياً أو غير نبي فهو في ضلال مبين .

وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ، فإن هاتين الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله ﷺ من أمر الله شيء ، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، فكيف يملك لغيره؟ وليس فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء أو الأولياء أو العلماء ، وقد جعل الله لرسوله ﷺ المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى ، وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك ويطلبوه منه ، وقال له: «سل تعطه واشفع تشفع» ، وقيل ذلك في كتابه العزيز: بأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه ، ولا تكون إلا لمن ارتضى .

وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾: «يا فلان بن فلان لا أملك لك من الله شيئاً ، يا فلانة بنت فلان لا أملك لك من الله شيئاً...» فإن هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه ﷺ لا يستطيع نفع من أراد الله ضرره ، ولا ضرر من أراد

الله تعالى نفعه ، وأنه لا يملك لأحد من قرابته فضلاً عن غيرهم شيئاً من الله ، وهذا معلوم لكل مسلم ، وليس فيه أنه لا يتوسل به إلى الله ، فإن ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر والنهي ، وإنما أراد الطالب أن يقدم بين يدي طلبه ما يكون سبباً للإجابة ممن هو المنفرد بالعطاء والمنع ، وهو مالك يوم الدين». انتهى كلام الشوكاني .

4 - وَقُدِّمَ لِلتَّعْظِيمِ وَالِاهْتِمَامِ بِهِ ، وَالِدَلَالَةِ عَلَى الْحَصْرِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (نَعْبُدُكَ وَلَا نَعْبُدُ مَعَكَ غَيْرَكَ) ، وَلِتَقْدِيمِ مَا هُوَ مُقَدَّمٌ فِي الْوُجُودِ وَهُوَ الْمَلِكُ الْمَعْبُودُ ، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنْ الْعَابِدَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ إِلَى الْمَعْبُودِ أَوْلَى وَبِالذَّاتِ ، وَمِنْهُ إِلَى الْعِبَادَةِ ، لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا عِبَادَةٌ صَدَرَتْ عَنْهُ ، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا نَسَبَةٌ شَرِيفَةٌ إِلَيْهِ ، وَوُضِّلَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِّ ، فَإِنَّ الْعَارِفَ إِنَّمَا يَحِقُّ وَصُولُهُ إِذَا اسْتَغْفَرَ فِي مَلَا حِظَةِ جَنَابِ الْقُدْسِ ، وَغَابَ عَمَّا عَدَاهُ ، حَتَّى إِنَّهُ لَا يَلَا حِظَ نَفْسِهِ وَلَا حَالاً مِنْ أَحْوَالِهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَجَلُّ مِنْ تَجَلِّيَاتِهِ وَمَظْهَرٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَلِذَلِكَ فَضَّلَ مَا حَكَى اللَّهُ عَنْ حَبِيبِهِ ﷺ حِينَ قَالَ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التَّوْبَةِ : 40] عَلَى مَا حَكَاهُ عَنْ كَلِمِهِ حَيْثُ قَالَ : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشُّعْرَاءُ : 62] ، أَيْ : حَيْثُ صَرَّحَ بِمَطْلُوبِهِ .

و«إياك» مفعول «نستعين» وقُدِّمَ أيضاً للاختصاص والاهتمام ، كما تقدم في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . وكرّر الضمير ولم يقل : إياك نعبد ونستعين ؛ لأن إظهاره أبلغ في إظهار الاعتماد على الله ، وأقطع في إحضار التعلق بالله والإقبال على الله وأمدح ، ألا ترى أن قولك : بك

أنتصر وبك أحتمي وبك أنال مطالبي . أبلغ وأمدح من قولك: بك أنتصر وأحتمي... إلخ؟

5 - وَقَدَّمَ الْعِبَادَةَ عَلَى الْإِسْتِعَانَةِ لِيُعْلَمَ مِنْهُ أَنَّ تَقْدِيمَ الْوَسِيلَةِ عَلَى طَلْبِ الْحَاجَةِ أَدْعَى إِلَى الْإِجَابَةِ ، فَإِنْ مَنْ تَلَبَّسَ بِخِدْمَةِ الْمَلِكِ وَشَرَعَ فِيهَا بِحَسَبِ وَسْئِعِهِ ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ الْإِعَانَةَ عَلَيْهَا أُجِيبَ إِلَى مَطْلَبِهِ ، بِخِلَافِ مَنْ كَلَّفَهُ الْمَلِكُ بِخِدْمَتِهِ ، فَقَالَ: أَعْطِنِي مَا يَعِينُنِي عَلَيْهَا ، فَهُوَ سُوءُ أَدَبٍ .

وأيضاً: من استحضر الأوصاف العظام ما أمكنه إلا المسارعة إلى الخضوع والعبادة .

وأيضاً: لما نسب المتكلم العبادَةَ إلى نفسه أوهم ذلك تبجحاً واعتداداً منه بما يصدر عنه فعقبه بقوله: ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

6 - الضمير المستتر في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة ، أو له ولسائر الموجودين . أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقبل ببركتها ويُجاب إليها ، ولهذا شرعت الجماعة . قاله البيضاوي .

7 - قال الفخر الرازي: قوله تعالى: ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، ومعناه أن الله تعالى أعلى وأجل وأكبر من أن يتم مقصود من المقاصد وغرض من الأغراض إلا بإعانتته وتوفيقه وإحسانه ، وهذا هو المراد من قولنا: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» ، فثبت أن سورة الفاتحة من أولها إلى آخرها منطبقة على ذلك الذكر ، وآيات هذه السورة جارية

مجرى الشرح والتفصيل للمراتب الخمس المذكورة في ذلك الذكر .

8 - قال تعالى: ﴿وَأِيَّاكَ فَسْتَعِيبُ﴾ فيها حث على تحصيل

العبادة والمباح، وعلى دفع المعاصي عنها والمضار، وخدمته إما للشراب والهروب عن العقاب، وذلك زهد، وهي عبادة، وإما للشرف بها والنسبة إليه تعالى، وهي عبودية، وإما لإجلاله، وهي عبودية، وهي أعلى، وقدم العبادة لتتوسل بها إلى دفع المكروه، وجلب المحبوب، أو قدّمها لأن المراد بها التوحيد، فذكر بعدها الاستعانة على مطلق العبادة، وأياً كان الأمر فالواو لا ترتب، وفي الوجه الأخير حصولُ التخلي قبل التجلي .

9 - الحكمة من تقديم العبادة على الاستعانة: العبادة مطلوبة لله

تعالى من العباد، والاستعانة مطلوبهم منه سبحانه، فتقديم العبد ما يريده مولاه منه أدل على صدق العبودية من تقديم ما يريده هو من مولاه، والعبادة واجبة حتماً لا مناص للعباد عن الإتيان بها، حتى جعلت كالعلة لخلق الإنس والجن، فكانت أحقّ بالتقديم .

والعبادة أشد مناسبة بذكر الجزاء، والاستعانة أقوى التثاماً بطلب الهداية، ومبدأ الإسلام التخصيص بالعبادة والخلوص من الشرك، والتخصيص بالاستعانة بعد الرسوخ .

وأن في تأخير فعل الاستعانة توافق رؤوس الآي، وأن أحدهما إذا كان مرتبطاً بالآخر لم يختلف التقديم والتأخير، كما يقال: قضيت حقي فأحسنّت إليّ، وأحسنّت إليّ فقضيت حقي .

وأن مقام السالكين ينتهي عند قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، وبعده يطلب التمكين ، وذلك أن الحمد مبادئ حركة المرید فإن نفس السالك إذا تزكّت ومرة قلبه إذا انجلت فلاحت فيها أنوار العناية الموجبة للولاية تجردت النفس الزكية للطلب فرأت آثار نعم الله تعالى عليها سابغة وألطفه غير متناهية فحمدت على ذلك وأخذت في الذكر ، فكشف لها الحجاب من وراء أستار العزة عن معنى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، فشاهدت ما سوى الله سبحانه على شرف الفناء مفتقراً إلى المبقى محتاجاً إلى التربية ، فترقت لطلب الخلاص من وحشة الأدبار ، وظلمة السكون إلى الأغيار ، فهبت لها من نفحات جناب القدس نسائم ألطف الرحمن الرحيم ، فخرجت للمعات بوارق الجلال ، من وراء سجاف الجمال ، إلى الملك الحقيقي ، فنادت بلسان الاضطرار ، في مقام ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]: أسلمت نفسي إليك ، وأقبلت بكليتي عليك .

وهناك خاضت لجة الوصول وانتهت إلى مقام العين ، فحققت نسبة العبودية فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، وهنا انتهاء مقام السالك . ألا يرى إلى سيد الخلق وحبیب الحق ﷺ كيف عبّر عن مقامه هذا بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1] ، فطلب التمكين بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، واستعاذ عن

التلوين بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فصعد مستكملاً ورجع مكماً، وكأنه لهذا سُميت الصلاة معراج المؤمنين.

10 - في سرّ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقد ازدحمت فيه أذهان العلماء بعد بيان نكته العامة، وهي التفنن في الكلام، والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، ف قيل: لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميّز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين، خوطب بذلك ليكون أدل على الاختصاص، والترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، وكأن المعلوم صار عياناً، والمعقول مشاهداً، والغيب حضوراً.

وقيل: لما شرح الله تعالى صدر عبده وأفاض على قلبه وقاله نور الإيمان والإسلام من عنده ترقى بذريعة الحمد المستجلب لمزيد النعم إلى رتبة الإحسان، وهو: «أن تعبد الله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وأيضاً حقيقة العبادة انقياد النفس الأمانة لأحكام الله تعالى، وصورته وقلبه الإسلام، ومعناه وروحه الإيمان، ونوره الإحسان، وفي «نَعْبُدُ» والالتفات تتم الأمور الثلاثة.

وأيضاً لما تبين أنه ملك في الأزل ما في آحاين الأبد، علم أن الشاهد والغائب والماضي والمستقبل بالنسبة إليه على حد سواء، فلذلك عدل عن الغيبة إلى الخطاب، ويحتمل أن يكون السر أن الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء، والثناء في الغيبة أولى، ومن هنا إلى الآخر دعاء، وهو في الحضور أولى، والله تعالى حيي كريم.

وقيل: إنه لما كان الحمد لا يتفاوت غيبة وحضوراً، بل هو مع ملاحظة الغيبة أدخل وأتم، وكانت العبادة إنما يستحقها الحاضر الذي لا يغيب، كما حكى سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَفْلَقَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ [الأنعام: 6 7] لا جرم عبّر سبحانه وتعالى عن الحمد بطريق الغيبة، وعنهما بطريق الخطاب، إعطاءً لكل منهما ما يليق من النسق المستطاب.

وأيضاً من تشبّهه بقوم فهو منهم، فالعابد لما رام ذلك سلك مسلك القوم في الذكر، ومزج عبادته بعبادتهم وتكلم بلسانهم، وساق كلامه على طبق مساقهم، عسى أن يصير محسوباً في عدادهم، مندرجاً في سياقهم:

إن لم تكونوا منهم فتشبهوا إن التشبه بالكرام فلاح
وأيضاً فيه إشارة إلى أن من لزم جادة الأدب والانكسار، ورأى نفسه بعيداً عن ساحة القرب لكمال الاحتقار، فهو حقيق أن تدركه رحمة إلهية، وتلحقه عناية أزلية، إلى حظائر القدس، وتطلعه على سرائر الأنس، فيصير واطئاً على بساط الاقتراب، فائزاً بعزّ الحضور وسعادة الخطاب.

وأيضاً إنه لما لم يكن في الحمد مزيد كلفة بخلاف العبادة، فإن خطبها عظيم، ومن دأب المحب تحمّل المشاق العظيمة في حضور المحبوب، قرن سبحانه العبادة بما يشعر بحضوره ليأتي بها العابد خالية عن الكلال، عارية عن الفتور والملال، مقرونة بكمال النشاط،

موجبة لتمام الانبساط .

وأيضاً إن الحمد ليس إلا إظهارَ صفاتِ الكمالِ على الغير ، فما دام للأغيار وجود في نظر السالك فهو يواجههم بإظهار مزايا المحبوب عليهم ، ويخاطبهم بذكر مآثره الجميلة لديهم ، وأما إذا آل أمره بملازمة الأذكار ، إلى ارتفاع الحجب والأستار ، واضمحلال جميع الأغيار ، لم يبق في نظره سوى المعبود الحق والجمال المطلق ، وانتهى إلى مقام الجمع ، وصار في مقعد ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115] ، وبالضرورة لا يصير توجيه الخطاب إلا إليه ، ولا يمكن إظهار السر إلا لديه ، فينعطف عنان لسانه إلى جنبه ، ويصير كلامه منحصرأً في خطابه .

وثم وراء الذوق معنى يدق عن مدارك أرباب العقول السليمة ، وهو من نسائم الأسحار: أن الله سبحانه بعد أن ذكر يوم الدين - وهو يوم القيامة - التفت إلى الخطاب للإشارة إلى أنه إذا قامت القيامة على ساق ، وكان إلى ربك يومئذ المساق ، هنالك يفوز المؤمن بلذة الحضور ، ويتبلج جبينه بأنوار الفرح والسرور ، ويخلو به الديان ، وليس بينه وبينه ترجمان ، ويكشف الحجاب ، وتدور بين الأحباب كؤوس الخطاب .

فتأمل في عظيم الرحمة! كيف قرن سبحانه هذا الترهيب برحمتين! فصرح قبل يوم الدين بما صرح ورمز بعد ذكره بما رمز ، ولن يغلب عسر يسرين . وتظهر فائدة الاستعانة في أنه ربما جعل الله تعالى ذلك واسطة إلى نيل المطلوب ، كالشعب الحاصل عقيب أكل الطعام ونحوه . والاستعانة على العمل إنما تحسُن قبل الشروع فيه لا بعده ، فهلا

قدّمت الاستعانة على ذكر العبادة؟ والجواب كأنّه يقول: شرعتُ في العبادة، فأستعين بك على إتمامها حتى لا يمنعني مانع ولا يعارضني صارف، فإن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن. وأيضاً إن قيل: الاستعانة مطلقة تتناول كل مستعان فيه، فذكر العبادة كالوسيلة إلى طلب الإعانة على الحوائج وتقديم الوسيلة مناسب.

وهاهنا مقامان: معرفة الربوبية ومعرفة العبودية، وعند اجتماعهما يحصل الربط المذكور في قوله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] أما معرفة الربوبية فكمالها مذكور في قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ③ فانتقال العبد من العدم السابق إلى الوجود يدل على كون الله تعالى إلهاً، وحصول الفوائد للعبد حال وجوده يدل على كونه رباً رحماناً رحيماً، وأحوال معاده تدل على أنه مالك يوم الدين، وأما معرفة العبودية فمبدؤها <إياك نعبد> وكمالها «إياك نستعين» في جميع المطالب، وإذا تم الوفاء بالعهدين ترتبت عليه الثمرة وهو قوله: «اهدنا» إلى آخره. وهذا ترتيب لا يتصور أحسن منه.

11 - في الالتفات الوارد في السورة وجوه:

منها: أن المصلي كان أجنبياً عند الشروع في الصلاة، فلا جرم أثنى على الله بالألفاظ الغائبة إلى قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

ثم الله تعالى كأنه يقول: حمدتني وأقررت بأني إله، رب العالمين، رحمن رحيم، مالك يوم الدين، فَنِعَمَ الْعَبْدُ أَنْتَ يَا عَبْدِي، رفعنا الحجاب وأبدلنا البعد بالقرب، فتكلم بالمخاطبة وقل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

ومنها: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من كونه رباً لا يخرج شيء من ملكوته، منعماً على الخلق بأنواع النعم - جلائلها ودقائقها - مالكاً للأمر كله في العاقبة، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بغاية الخضوع والاستعانة في المهام، فخطوب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقول: «إياك» يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به.

ومنها: أن الدعاء بالحضور أولى، كما أن الثناء في الغيبة أوقع وأحرى، وهكذا فعل الأنبياء عليهم السلام ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23] ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ [الشعراء: 83] ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [الأعراف: 143] ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89].

ومنها أنه إذا شرع في الصلاة نوى القربة، فأثنى على الله بما هو أهله، فاستجاب الله دعاءه في تحصيل تلك القربة، ونقله إلى مقام الحضور من مقام الغيبة.

12 - اعلم أن المشركين طوائف: منهم من اتخذ إلهه من الأجسام

المعدنية كالحجر والذهب والفضة والنحاس، ومنهم من اتخذه من النبات كالشجر المعين، ومنهم من اتخذه من الإنسان كعبدة المسيح وعزير، ومنهم من اتخذه من الأجسام البسيطة، إما السفلية كعبدة النار وهم المجوس، أو العلوية كعبدة الشمس والقمر وسائر الكواكب. ومنهم من قال: مدبر العالم نور وظلمة وهم الثنوية، ومنهم من قال: الملائكة عبارة عن الأرواح الفلكية، ولكل إقليم روح من الأرواح الفلكية يدبره، وكذا لكل نوع من أنواع هذا العالم. فيتخذون لتلك الأرواح صوراً وتمائيل يعبدونها، وهم عبدة الملائكة. ومنهم من قال: للعالم إلهان: أحدهما خير وهو الله، والآخر شرير وهو إبليس.

إذا عرفت ذلك فنقول: قد مر أن «الحمد لله» يتضمن التسبيح له، وسائر الصفات مُنبئة عن سبب إثبات جميع أنواع «الحمد لله»، «وإياك نعبد» يدل على التوحيد المحض والبراءة من كل ما يعبد من دون الله، وأن الله أكبر من جميع المعبودين، فيقوم مقام قوله: «لا إله إلا الله والله أكبر» «وإياك نستعين» يدل على قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، فثبت أن سورة الفاتحة مشتملة إلى هنا على الذكر المشهور: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

*** ** **

تفسير قوله تعالى

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

وفيه ستّ عشرة مسألة:

1 - الهداية في الأصل: الدلالة بلطف، ولذلك تُستعمل في الخير،

وقوله: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصّافات: 23] على التهكم، والفعل منه (هدى) بالفتح، وأصله أن يُعدّى باللام، أو «إلى»، فعومل

هنا معاملة: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: 155].

والصراط لغة: الطريق، مشتق من سَرَطَ الطعام إذا ابتلعه، فكأنها تبتلع السابلة؛ أي المارة به، وَقَلِبَتِ السَّيْنَ صَاداً لتطابق الطاء في الإطباق.

و«المستقيم»: الذي لا عوج فيه، والمراد به طريق الحق الموصلة

إلى الله تعالى.

يقول الحقّ جلّ جلاله مُعلِّماً لعباده كيف يطلبونه، وما ينبغي لهم أن يطلبوا: «اهدنا» أي قولوا: اهدنا، أي: أرشدنا إلى الطريق المستقيم، الموصلة إلى حضرة النعيم. والطريقُ المستقيم هو: السيرُ على الشريعة المحمدية في الظاهر، والتبرّي من الحول والقوة في الباطن.

أو تقول: هو أن يكون ظاهرُك شريعةً وباطنُك حقيقة، ظاهرُك عبودية وباطنُك حرية، الفرق على ظاهرُك موجود، والجمع في باطنك مشهود، وفي الحِكم: «متى جَعَلَك في الظاهر ممثلاً لأمره، وفي

الباطن مستسلماً لقهره ، فقد أعظم المِنَّةَ عليك» .
 فالصراط المستقيم الذي أمرنا الحقُّ بطلبه هو: الجمع بين الشريعة
 والحقيقة ، والمفهوم من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، ولذلك
 وصله به ، فكأن الحق - سبحانه - يقول: «يا عبادي احمدوني ومجدوني
 وأفردوني بالقصد وخصوني بالعبادة، وكونوا في ظاهركم
 مشتغلين بعبادتي، وفي باطنكم مستعنين بحولي وقوتي ، أو كونوا في
 ظاهركم متأدبين بخدمتي، وفي باطنكم مشاهدين لقدرتي وعظمة
 ربوبيتي». وقال سيدنا عليّ - كرمَ الله وجهه -: (الصراط المستقيم هنا
 القرآن). وقال جابر رضي الله عنه: (هو الإسلام) يعني الحنيفة السمحاء ، وقال
 سهل بن عبد الله: (هو طريق محمد صلوات الله عليه). يعني اتباع ما جاء به .
 وحاصله ما تقدم من إصلاح الظاهر بالشريعة والباطن بالحقيقة ، فهذا
 هو الطريق المستقيم الذي من سلكه كان من الواصلين المقربين مع
 النبيين والصدِّيقين .

فإن قلت: إذا كان العبدُ ذاهباً على هذا المنهاج المستقيم ، فكيف
 يطلب ما هو حاصل؟ فالجواب: أنه طلب التثبيت على ما هو حاصل ،
 والإرشاد إلى ما ليس بحاصل ، فأهل مقام الإسلام يطلبون الثبات على
 الإسلام الذي هو حاصل ، والترقي إلى مقام الإيمان الذي ليس
 بحاصل ، على طريق الصوفية الذين يخصون العمل الظاهر بمقام
 الإسلام ، والعمل الباطن بمقام الإيمان ، وأهل الإيمان يطلبون الثبات
 على الإيمان الذي هو حاصل ، والترقي إلى مقام الإحسان الذي ليس
 بحاصل ، وأهل مقام الإحسان يطلبون الثبات على الإحسان ، والترقي

إلى ما لا نهاية له من كشوفات العرفان ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 76].

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رحمته الله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد فيما ليس بحاصل، ثم قال: عموم المؤمنين يقولون: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنه حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين، والصالحون يقولون: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ معناه: نسألك الثبوت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء، والشهداء يقولون: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي بالثبوت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصلت لهم الشهادة وفاتهم درجات الصديقين، والصديقون يقولون: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: بالثبوت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصديقين وفاتهم درجات القطب، والقطب يقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالثبوت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنه حصل له رتبة القطبانية، وفاته علم ما إذا شاء الله أن يطلعه عليه أطلعه. اهـ.

2 - الهداية إما للعين وإما للأثر الدال على العين، ولا نهاية للأولى، قلت: فالأولى لأهل الشهود والعيان، والثانية لأهل الدليل

والبرهان، فالهداية للعين هي الدلالة على الله، والهداية للأثر هي الدلالة على العمل، «مَنْ دَلَّكَ عَلَى اللَّهِ فَقَدْ نَصَحَكَ، وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى الْعَمَلِ فَقَدْ أْتَعَبَكَ». وإنما كانت الأولى لا نهاية لها؛ لأن الترقى بعد المعرفة لا نهاية له، بخلاف الدلالة على الأثر فنهايتها الوصول إلى العين، إن كان الدال عارفاً بالطريق.

قال البيضاوي: وهداية الله تتنوع أنواعاً لا يحصيها عدٌّ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، لكنها تنحصر في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه، كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

الثاني: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]، وقال: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: 17].

الثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عنى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: 73]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

الرابع: أن يكشف عن قلوبهم السرائر ويُرِيَهُمُ الْأَشْيَاءَ كما هي بالوحي والإلهام والمنامات الصادقة. وهذا يختص بنيله الأنبياء والأولياء، وإياه عنى بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ

أَقْتَدَهُ ﴿ [الأنعام: 90] ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾
[العنكبوت: 69].

فالمطلوب: إما زيادة ما مُنحوه من الهدى والثبات عليه، أو حصول
المراتب المترتبة عليه، فإذا قال العارف الواصل عَنَى بقوله: أرشدنا
طريق السير فيك، لتمحو عنا ظلمات أحوالنا، وتُميط غواشي أبداننا،
لنستضيء بنور قدسك، فنراك بنورك. اهـ.

وقوله: الرابع... إلخ، في عبارته قَلَقٌ واختصار، والصواب أن
يقول: الرابع: أن يكشف عن قلوبهم الظلم والأغيار، ويشرق عليها
الأنوار والأسرار، ويريهم الأشياء كما هي بالوحي والإلهام، وباستعمال
الفكرة في عظمة الملك العلام، حتى تستولي أنوار المعاني على حس
الأواني، ثم يقول: وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء.

وقوله: فإذا قال العارف... إلخ، الصواب أن يقول: فإذا قاله
المريد السائر؛ لأن الواصل انمحت عنه الظلمات كلها والغواشي وسائر
الأكدار؛ لأن الله تعالى غطى وصفه بوصفه ونعته بنعته، فلم يبق له
وصف ظلماني. وأيضاً قوله: «أرشدنا إلى طريق السير» إنما يناسب
السائر دون الواصل؛ لأن الواصل ما بقي له إلا الترقى، ولا يُسمى في
اصطلاح الصوفية «السير» إلا قبل الوصول. والله تعالى أعلم.

3 - «صراط» بدل من الأول - بدل الكل من الكل - وهو في
حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة، وفائدته: التوكيد
والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة،

على أكد وجه وأبلغه؛ لأنه جعله كالتفسير والبيان له، فكأنه من البيِّن الذي لا خفاء فيه، وأن الصراط المستقيم ما يكون طريق المؤمنين، ﴿غَيْرِ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من «الذين» على معنى أن المُنْعَمَ عليهم هم الذي سَلِمُوا من الغضب والضلال، أو صفة له مُبَيَّنَةٌ أو مقيدة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال.

وبيِّن العلماء أن في كل خلق من الأخلاق طرفي تفريط وإفراط، وهما مذمومان، والحق هو الوسط، ويتأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، وذلك الوسط هو العدل والصواب، فالمؤمن بعد أن عرف الله بالدليل صار مؤمناً مهتدياً، أما بعد حصول هذه الحالة فلا بدّ من معرفة العدل الذي هو الخط المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في الأعمال الشهوانية وفي الأعمال الغضبية وفي كيفية إنفاق المال، فالمؤمن يطلب من الله تعالى أن يهديه إلى الصراط المستقيم الذي هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال، وعلى هذا التفسير فالسؤال زائل.

4 - وأما مسألة تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف «إلى» ففيها: أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة وبحرف «إلى» تارة وباللام تارة، والثلاثة في القرآن: مِنْ الْمُعَدَّى بنفسه هذه الآية، وقوله: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، وَمِنَ الْمُعَدَّى بـ «إلى» قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ،
 وَمِنَ الْمَعْدَى بِاللَّامِ قَوْلُهُ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا
 لِهَذَا﴾ [الأعراف: 43] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ
 أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] .

والفروق لهذه المواضع تدقُّ جدًّا عن أفهام العلماء، ولكن نذكر
 قاعدة تشير إلى الفرق، وهي أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لا
 بد وأن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر،
 وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر
 الفرق، نحو: رغبت عنه ورغبت فيه، وعدلت إليه وعدلت عنه، وملت
 إليه وعنه، وسعيت إليه وسعيت به، وأن تفاوت معنى الأدوات عسرُ
 الفرق، نحو: قصدت إليه وقصدت له، وهديته إلى كذا وهديته لكذا.
 وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء
 أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع
 الحرف ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال،
 فيشربون الفعل المتعدى به معناه.

فإذا عرفتَ هذا ففعل الهداية متى عُدِّي بـ«إلى» تضمن الإيصال
 إلى الغاية المطلوبة، فأتى بحرف الغاية، ومتى عُدِّي باللام تضمن
 التخصيص بالشيء المطلوب فأتى باللام الدالة على
 الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا، فهم معنى: ذكرته له
 وجعلته له وهيأته ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع

لذلك كله ، وهو التعرف والبيان والإلهام .

فالقائل إذا قال: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه ، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه ، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجرداً معدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها ، ولو عُدِّي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف ، فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها .

5 - واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له «الصراط» في هذا الموضع وما المراد به؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصراط المستقيم هنا القرآن»، وقال جابر: «هو الإسلام» يعني الحنيفية . وقال: سَعَتُهُ ما بين السماء والأرض . وقال محمد بن الحنفية: «هو دين الله الذي لا يُقبل من العباد غيرُه» وقال أبو العالية: «هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر وعمر». وذكر ذلك للحسن بن أبي الحسن ، فقال: صدق أبو العالية ونصح .

قال القاضي أبو محمد: ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة إنما هي في أن يكون الداعي على سنن المنعم عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين في معتقداته ، وفي التزامه لأحكام شرعه ، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام ، وهو حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، وهذا الدعاء إنما أمر به المؤمنون وعندهم المعتقدات وعند كل واحد بعض الأعمال ، فمعنى قولهم «اهدنا» فيما هو حاصل عندهم طلب التثبيت والدوام ، وفيما ليس بحاصل إما من جهة الجهل به أو التقصير في المحافظة عليه طلب الإرشاد إليه .

وأقول: إن كلَّ داعٍ فإنما يريد «الصراط» بكماله في أقواله وأفعاله ومعتقداته، فيحسُن على هذا أن يدعو في الصراط على الكمال من عنده بعضه، ولا يتجه أن يراد بـ«اهدنا» في هذه الآية: اخلق الإيمان في قلوبنا، لأنها هداية مقيدة إلى صراط، ولا أن يراد بها: ادعنا، وسائر وجوه الهداية يتجه، و«الصراط» نصب على المفعول الثاني، و«المستقيم» الذي لا عوج فيه ولا انحراف، والمراد أنه استقام على الحق وإلى غاية الفلاح، ودخول الجنة، وإعلال «مستقيم» أن أصله «مستقوم» نُقلت الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.

6 - لقائل أن يقول: المصلي لا بدَّ وأن يكون مؤمناً، وكل مؤمن مهتد، فالمصلي مهتد، فإذا قال: «اهدنا» كان جارياً مجرى أن من حصلت له الهداية فإنه يطلب الهداية، فكان هذا طلباً لتحصيل الحاصل، وإنه محال؟ والعلماء أجابوا عنه من وجوه:

الأول: المراد منه صراط الأولين في تحمل المشاق العظيمة لأجل مرضاة الله تعالى. يُحكى أن نوحاً عليه السلام كان يضرب في كل يوم كذا مرة بحيث يُغشى عليه، وكان يقول في كل مرة: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. فإن قيل: إن رسولنا عليه الصلاة والسلام ما قال ذلك إلا مرة واحدة، وهو كان يقول كل يوم مرات، فلزم أن يقال: إن نوحاً عليه السلام كان أفضل منه؟ والجواب: لما كان المراد من قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ طلب تلك الأخلاق الفاضلة من الله تعالى، والرسول عليه السلام كان يقرأ الفاتحة في كل يوم كذا مرة، كان تكلم الرسول

ﷺ بهذه الكلمة أكثر من تكلم نوح عليه السلام بها .

الثاني: أن العلماء بينوا أن في كل خلق من الأخلاق طرفي تفریط وإفراط ، وهما مذمومان ، والحق هو الوسط ، ويتأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] ، وذلك الوسط هو العدل والصواب ، فالمؤمن بعد أن عرف الله بالدليل صار مؤمناً مهتدياً ، أما بعد حصول هذه الحالة فلا بدّ من معرفة العدل الذي هو الخط المتوسط بين طرفي الإفراط والتفریط في الأعمال الشهوانية وفي الأعمال الغضبية وفي كيفية إنفاق المال ، فالمؤمن يطلب من الله تعالى أن يهديه إلى الصراط المستقيم الذي هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفریط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال ، وعلى هذا التفسير فالسؤال زائل .

الثالث: أن المؤمن إذا عرف الله بدليل واحد فلا موجود من أقسام الممكنات إلا وفيه دلائل على وجود الله وعلمه وقدرته وجوده ورحمته وحكمته ، وربما صح دين الإنسان بالدليل الواحد وبقي غافلاً عن سائر الدلائل ، فقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ معناه: عرّفنا يا إلهنا ما في كل شيء من كيفية دلالاته على ذاتك وصفاتك وقدرتك وعلمك ، وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل .

الرابع: أنه تعالى قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: 52-53] وقال أيضاً لمحمد عليه السلام: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾

[الأنعام: 153] ، وذلك الصراط المستقيم هو أن يكون الإنسان معرضاً عما سوى الله مقبلاً بكلية قلبه وفكره وذكره على الله ، فقوله: ﴿ أَهْدِنَا صِرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ المراد أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم الموصوف بالصفة المذكورة ، مثاله: أن يصير بحيث لو أمر بذبح ولده لأطاع كما فعله إبراهيم عليه السلام ، ولو أمر بأن ينقاد ليدبحه غيره لأطاع كما فعله إسماعيل عليه السلام ، ولو أمر بأن يرمي نفسه في البحر لأطاع كما فعله يونس عليه السلام ، ولو أمر بأن يتلمذ لمن هو أعلم منه بعد بلوغه في المنصب إلى أعلى الغايات لأطاع كما فعله موسى مع الخضر عليهما السلام ، ولو أمر بأن يصبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على القتل والتفريق نصفين لأطاع كما فعله يحيى وزكريا عليهما السلام .

فالمراد بقوله: ﴿ أَهْدِنَا صِرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ هو الاقتداء بأنبياء الله في الصبر على الشدائد والثبات عند نزول البلاء ؛ ولا شك أن هذا مقام شديد هائل ؛ لأن أكثر الخلق لا طاقة لهم به ، إلا أنا نقول: أيها الناس ، لا تخافوا ولا تحزنوا ، فإنه لا يضيق أمر في دين الله إلا اتسع ؛ لأن هذه الآية فيها ما يدل على اليسر والسهولة ؛ لأنه تعالى لم يقل: صراط الذين ضربوا وقتلوا ، بل قال: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فلتكن نيتك عند قراءة هذه الآية أن تقول: يا إلهي ، إن والدي رأيتك ارتكب الكبائر كما ارتكبتها ، وأقدم على المعاصي كما أقدمت عليها ،

ثم رأيت لما قُرِبَ موتهُ تاب وأناب، فحكمت له بالنجاة من النار والفوز بالجنة، فهو ممن أنعمت عليه بأن وفقته للتوبة، ثم أنعمت عليه بأن قبلت توبته، فأنا أقول: اهدنا إلى مثل ذلك الصراط المستقيم طلباً لمرتبة التائبين، فإذا وجدتها فاطلب الاقتداء بدرجات الأنبياء عليهم

السلام. فهذا تفسير قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

الخامس: كأن الإنسان يقول في الطريق: كثرة الأحاب يجرؤني إلى طريق، والأعداء إلى طريق ثانٍ، والشيطان إلى طريق ثالث، وكذا القول في الشهوة والغضب والحقد والحسد، وكذا القول في التعطيل والتشبيه والجبر والقدر والإرجاء والوعيد والرفض والخروج، والعقل ضعيف، والعمر قصير، والصناعة طويلة، والتجربة خطيرة، والقضاء عسير، وقد تحيرتُ في الكل، فاهدني إلى طريق أخرج منه إلى الجنة؟

السادس: قال بعضهم: الصراط المستقيم: الإسلام، وقال بعضهم:

القرآن، وهذا لا يصح؛ لأن قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من

﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وإذا كان كذلك كان التقدير: اهدنا صراط مَنْ أنعمت عليهم من المتقدمين، ومن تقدّمنا من الأمم ما كان لهم القرآن والإسلام، وإذا بطل ذلك ثبت أن المراد: اهدنا صراط المحققين المستحقين للجنة، وإنما قال: <الصراط> ولم يقل <السبيل> ولا <«الطريق»> وإن كان الكل واحداً، ليكون لفظ الصراط مذكراً لصراط جهنم، فيكون الإنسان على مزيد خوف وخشية.

السابع: أن المراد: ثبّتنا على الهداية التي وهبتنا إيّاها، ونظيره

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 80] أي ثبتنا على الهداية، فكم من عالم وقعت له شبهة ضعيفة في خاطره فزاع وذو وانحرف عن الدين القويم والمنهج المستقيم.

7 - ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فالهداية هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب وجعله مؤثراً له راضياً به راغباً فيه.

وهما هديتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له وجعلنا مرادين لاتباعه ظاهراً وباطناً، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم ثم إدامة ذلك لنا، وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يُعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملة ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين: الجزاء

بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان ، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه ، فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال ، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم ، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم ، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه .

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام ، واقتضاه أكمل اقتضاء ، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة ، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة وحذفه في أهل الغضب ، وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال ، وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة والغضب والضلال ، فذكر المغضوب عليهم والضالين في مقابلة المهتدين المنعم عليهم .

وهذا كثير في القرآن يقرن بين الضلال والشقاء ، وبين الهدى والفلاح ، فالثاني كقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ، والأول كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ وقوله ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فهذا الهدى والسعادة . ثم قال: ﴿وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشُرُهُ يَوْمَ

أَلْقِيْمَةَ أَعْمَى ﴿١١٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا ﴿١١٥﴾ قَالَ
 كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِيْكَ فذكر الضلال والشقاء .
 فالهدى والسعادة متلازمان ، والضلال والشقاء متلازمان .

8 - والهداية: هي الإرشاد والدلالة بلطف على ما يوصل إلى
 البغية ، وتسند الهداية إلى الله وإلى النبي وإلى القرآن ، وقد يراد منها
 الإيصال إلى ما فيه خير .

قال أبو حيان في البحر ما ملخصه: وقد تأتي بمعنى التبيين كما
 في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾ أي بيننا لهم طريق الخير ، أو
 بمعنى الإلهام كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿١٩﴾ قَالَ
 رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ قال المفسرون معناه: ألهم
 الحيوانات كلها إلى منافعها ، أو بمعنى الدعاء كما في قوله تعالى:
 ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: داع .

والأصل في «هدى» أن يصل إلى ثاني معموليه باللام كما في
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أو بإلى كما في
 قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ثم يتسع فيه فيعدى
 إليه بنفسه ، ومنه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

9 - وقد تكلم المفسرون كلاماً كثيراً عن المراد بالصرط المستقيم
 الذي جعل الله طلب الهداية إليه في هذه السورة أول دعوة علمها لعباده ،

والذي نراه: أن أجمع الأقوال في ذلك أن المراد بالصراط المستقيم، هو ما جاء به الإسلام من عقائد وآداب وأحكام، توصل الناس متى اتبعوها إلى سعادة الدنيا والآخرة، فإن طريق السلام هو الطريق الذي ختم الله به الرسالات السماوية، وجعل القرآن دستوراً الشامل، ووكل إلى النبي ﷺ أمر تبليغه وبيانه.

وقد ورد في الأحاديث النبوية ما يؤيد هذا القول، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال له: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

10 - وذكر الصراط المستقيم مفرداً معرّفاً تعريفين: تعريفاً باللام وتعريفاً بالإضافة، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها كقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾، فوحد لفظ «الصراط» و«سبيله» وجمع «السبل» المخالفة له، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطأً وقال: «هذا

سبيل الله»، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال: «هذه سبيلٌ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۗ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق واستفتحوا من كل باب فالطرق عليهم مسدودة والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله موصل إلى الله، قال الله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم، وهذا يحتمل أمرين:

الأول: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى».

الثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي صراط موصل إليّ، وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء، وهذا مثل قول الحسن وأبين منه، وهو من أصح ما قيل في الآية، وقيل: «عليّ» فيه للوجوب، أي عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه.

والقولان نظير القولين في آية النحل وهي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر: أن السبيل القاصد وهو المستقيم المعتدل يرجع إلى الله ويوصل إليه، قال طفيل الغنوي:

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تشقلب
أي ممرنا عليهم وإليهم وصولنا، وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو علي طريقها
فإن قيل: لو أُريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي
للانتهاء، لا أداة «على» التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما
أراد الوصول قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ وقال: ﴿إِلَيْنَا
مَرْجِعُهُمْ﴾ وقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾، وقال لما أراد الوجوب:
﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ وقال: ﴿وَمَا
مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ونظائر ذلك .

وقيل: في أداة «على» سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على
هذا الصراط على هدى وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُولَٰئِكَ
عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ
الْمُبِينِ﴾، والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق ودينه حق،
فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة
«على» هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى»، فتأمله فإنه سر بديع .
فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضاً، وكيف
يكون المؤمن مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه
واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوتة
واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة «في»

الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه ، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ وقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا صُمْ وَبُكْمٌ فِي الظُّلْمَتِ﴾ وقوله ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وقوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ .

وتأمل قوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين .

وفي قوله تعالى ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قول ثالث ، وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد ، نظير قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ كما يقال: طريقك عليّ وممرك عليّ، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ولا معجز ، والسياق يأبى هذا ، ولا يناسبه لمن تأمله ، فإنه قاله مجيباً لابليس الذي قال ﴿لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُحْلَصِينَ﴾ فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم!

فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير ، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم ، فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط ، لأنه صراط علي ، ولا سبيل لابليس إلى هذا الصراط ولا الحوم حول ساحته ، فإنه محروس محفوظ بالله ، فلا يصل عدو الله إلى أهله .

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل ولينظر إلى هذا المعنى ويوازن بينه وبين القولين الآخرين ، أيهما أليق بالآيتين وأقرب إلى

مقصود القرآن وأقوال السلف .

11 - لقائل أن يقول: لم قال: «اهدنا» ولم يقل: «اهدني»؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن الدعاء كلما كان أعمّ كان إلى الإجابة أقرب . كان بعض العلماء يقول لتلامذته: إذ قرأتم في خطبة: «ورضي الله عنك وعن جماعة المسلمين» إن نويتني في قولك «رضي الله عنك» فحسن ، وإلا فلا حرج ، ولكن إياك وأن تنساني في قولك: «وعن جماعة المسلمين» لأن قوله: رضي الله عنك ، تخصيص بالدعاء ، فيجوز ألا يقبل ، وأما قوله: وعن جماعة المسلمين ، فلا بدّ وأن يكون في المسلمين من يستحق الإجابة ، وإذا أجاب الله الدعاء في البعض فهو أكرم من أن يردّه في الباقي .

ولهذا السبب فإن السنة إذا أراد أن يذكر دعاءً أن يصلي أولاً على النبي ﷺ ، ثم يدعو ، ثم يختم الكلام بالصلاة على النبي ﷺ ثانياً ؛ لأن الله تعالى يجيب الداعي في صلاته على النبي ﷺ ، ثم إذا أجيب في طرفي دعائه امتنع أن يرد ما في وسطه .

الثاني: قال عليه الصلاة والسلام: «ادعوا الله بألسنة ما عصيتموه بها» ، قالوا: يا رسول الله ومن لنا بتلك الألسنة؟ قال: «يدعو بعضكم لبعض ؛ لأنك ما عصيت بلسانه وهو ما عصى بلسانك» .

الثالث: كأنه يقول: أيها العبد، أأنت قلت في أول السورة:

«الحمد لله» وما قلت: «أحمد الله» فذكرت أولاً حمد جميع الحامدين؟ فكذا في وقت الدعاء أشركهم فقل: «اهدنا» .

الرابع: كأنَّ العبد يقول: سمعت رسولك يقول: «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب» [رواه عبد الله في زوائد المسند]، فلما أردتُ تحميدك ذكرت حمدَ الجميع فقلت: الحمد لله، ولما ذكرتُ العبادة ذكرت عبادة الجميع فقلت: «إياك نعبد»، ولما ذكرت الاستعانة ذكرت استعانة الجميع فقلت: «وإياك نستعين»، فلا جرم لما طلبت الهداية طلبتها للجميع فقلت: «اهدنا الصراط المستقيم»، ولما طلبت الاقتداء بالصالحين طلبت الاقتداء بالجميع فقلت: <صراط الذين أنعمت عليهم>، ولما طلبت الفرار من المردودين فررت من الكل فقلت: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين»، فلما لم أفارق الأنبياء والصالحين في الدنيا، فأرجو ألا أفارقهم في القيامة، قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: 69] الآية.

12 - إشارة: الطريق المستقيم التي أمرنا الحق بطلبها هي: طريق الوصول إلى الحضرة، التي هي العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وهو مقام التوحيد الخاص، الذي هو أعلى درجات أهل التوحيد، وليس فوقه إلا مقامُ توحيد الأنبياء والرسل، ولا بد فيه من تربية على يد شيخ كامل عارف بطريق السير، قد سلك المقامات ذوقاً وكشفاً، وحاز مقام الفناء والبقاء، وجمع بين الجذب والسلوك؛ لأن الطريق عويص، قليلُ خطَّارُهُ، كثيرُ قُطَّاعِهِ، وشيطانُ هذا الطريق فقيهُ بمقاماته ونوازله، فلا بد فيه من دليل، وإلا ضلَّ سالكها عن سواء

السييل ، وإلى هذا المعنى أشار أحدهم حيث قال :

وَإِنَّمَا الْقَوْمُ مُسَافِرُونَ لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونَ
فَأُتْقِرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيلٍ ذِي بَصَرٍ بِالسَّيْرِ وَالْمَقِيلِ
قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَ لِيُخْبِرَ الْقَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَ

الخط المستقيم أقرب خط يصل بين النقطتين ، والعبد عاجز فلا يليق بضعفه إلا الطريق المستقيم . وأيضاً المستقيم واحد وما سواه معوجة يشبه بعضها بعضاً في الاعوجاج ، فكان أبعد من الخوف وأقرب إلى الخلاص ، وأيضاً ميل الطباع إلى الاستقامة أكثرى ، فلهذه الأسباب سئل الصراط المستقيم .

13 - قال بعض العارفين: وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها ، وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة ، وهو الصراط الموصل إليها ، فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه ، هدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنّته ودار ثوابه ، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم ، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذلك الصراط: فمنهم من يمرُّ كالبرق ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الركاب ، ومنهم من يسعى سعياً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم المخدوش المسلم ، ومنهم المكردس في النار... فلينظر العبد سيره على ذلك

الصراط من سيره على هذا حذو القذة بالقذة، جزاءً وفاقاً، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟

ولينظر الشبهات والشهوات التي تُعيقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعيقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت، فكذلك هي هناك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

فسؤال الهداية متضمّن لحصول كل خير والسلامة من كل شر.

14 - في معرفة نفس المسؤول وهو الصراط المستقيم، ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعيينه طريقاً للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربَه لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته، وإضافته إلى المنعم عليهم ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعيينه طريقاً.

والصراط تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة،

لكونهم أهل سلوكه ، وهو المنسوب لهم ، وهم المارون عليه .

15 - اعلم أن أهل الهندسة قالوا: الخط المستقيم هو أقصر خط

يصل بين نقطتين ، فالحاصل أن الخط المستقيم أقصر من جميع الخطوط

المعوجة ، فكأن العبد يقول: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ لوجوه:

الأول: أنه أقرب الخطوط وأقصرها ، وأنا عاجز فلا يليق بضعفي

إلا الطريق المستقيم .

الثاني: أن المستقيم واحد وما عداه معوجة ، وبعضها يشبه بعضاً

في الاعوجاج ، فيشبهه الطريق عليّ ، أما المستقيم فلا يشابهه غيره ،

فكان أبعد عن الخوف والآفات ، وأقرب إلى الأمان .

الثالث: الطريق المستقيم يوصل إلى المقصود ، والمعوج لا

يوصل إليه .

الرابع: المستقيم لا يتغير ، والمعوج يتغير ، فلهذه الأسباب سأل

الصراط المستقيم ، والله أعلم .

16 - اهدنا يا ربنا إلى طريقك المستقيم ، إلى ما يوصلنا إلى

سعادة الدنيا والآخرة ، ويجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من خلقك ،

وجنبنا يا مولانا طريق الذين غضبت عليهم من الأمم السابقة أو الأجيال

اللاحقة بسبب سوء أعمالهم ، وطريق الذين هاموا في الضلالات ،

فانحرفوا عن القصد ، وحق عليهم العذاب .

في هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب ، لأن هذا الدعاء قد تضرع به

المؤمنون إلى خالقهم بعد أن اعترفوا له سبحانه قبل ذلك بأنه هو

المستحق لجميع المحامد، وأنه هو رب العالمين، والمتصرف في
أحوالهم يوم الدين.

** ** *

تفسير قوله تعالى

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

وفيه فوائدُ أربع وعشرون:

- 1 - ما الفائدة في أن عدل من أن يقول: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إلى ما عدل؟ قلت: الإيمان إنما يكمل بالرجاء والخوف كما قال ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا» فقله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يدل على الرجاء، وباقي الآية يدل على الخوف، فيكمل الإيمان بطرفيه وركنيه.
 - 2 - كأن الإنسان يقول في الطريق: كثرة الأحاب يجرؤني إلى طريق، والأعداء إلى طريق ثانٍ، والشيطان إلى طريق ثالث، وكذا القول في الشهوة والغضب والحقد والحسد، وكذا القول في التعطيل والتشبيه والجبر والقدر والإرجاء والوعيد والرفض والخروج، والعقل ضعيف، والعمر قصير، والصناعة طويلة، والتجربة خطيرة، والقضاء عسير، وقد تحيرت في الكل فاهدني إلى طريق أخرج منه إلى الجنة.
- يحكى عن إبراهيم بن أدهم أنه كان يسير إلى بيت الله، فإذا أعرابي على ناقة له فقال: يا شيخ إلى أين؟ فقال إبراهيم: إلى بيت الله، قال: كأنك مجنون لا أرى لك مركباً، ولا زاداً، والسفر طويل؟! فقال إبراهيم: إن لي مراكب كثيرة ولكنك لا تراها، قال: وما هي؟

قال: إذا نزلتُ على بلية ركبت مركب الصبر، وإذا نزلتُ على نعمة ركبت مركب الشكر، وإذا نزل بي القضاء ركبتُ مركب الرضا، وإذا دعيتني النفس إلى شيء علمتُ أن ما بقي من العمر أقل مما مضى. فقال الأعرابي: سر بإذن الله فأنت الراكب وأنا الراجل.

3 - قال بعضهم: الصراط المستقيم: الإسلام، وقال بعضهم:

القرآن، وهذا لا يصح؛ لأن قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وإذا كان كذلك كان التقدير: اهدنا صراط من أنعمت عليهم من المتقدمين، ومن تقدمنا من الأمم ما كان لهم القرآن والإسلام، وإذا بطل ذلك ثبت أن المراد: اهدنا صراط المحققين المستحقين للجنة، وإنما قال «الصراط» ولم يقل السبيل ولا الطريق وإن كان الكل واحداً ليكون لفظ الصراط مذكراً لصراط جهنم فيكون الإنسان على مزيد خوف وخشية.

4 - في حدِّ النعمة، وقد اختلف فيها، فمنهم من قال: إنها عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، ومنهم من يقول: المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، قالوا: وإنما زدنا هذا القيد لأن النعمة يستحق بها الشكر، وإذا كانت قبيحة لا يستحق بها الشكر. والحق أن هذا القيد غير معتبر، لأنه يجوز أن يستحق الشكر بالإحسان وإن كان فعله محظوراً، لأن جهة استحقاق الشكر غير جهة استحقاق الذنب والعقاب، فأى امتناع في اجتماعهما؟

ألا ترى أن الفاسق يستحق بإنعامه الشكر، والذم بمعصية الله، فلم لا يجوز أن يكون الأمر هاهنا كذلك؟

ولنرجع إلى تفسير الحدّ المذكور فنقول: أما قولنا «المنفعة» فلأنّ المضرة المحضّة لا تكون نعمة، وقولنا: «المفعولة على جهة الإحسان» لأنه لو كان نفعاً حقاً وقصد الفاعل به نفع نفسه لا نفع المفعول به لا يكون نعمة، وذلك كمن أحسن إلى جاريتة ليربح عليها.

5 - إذا عرفت حدّ النعمة فيتفرع على ذلك فروع:

الفرع الأول: اعلم أن كل ما يصل إلى الخلق من النفع ودفع الضرر فهو من الله تعالى، على ما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، ثم أن النعمة على ثلاثة أقسام:

أحدها: نعمة تفرّد الله بإيجادها، نحو أن خلق ورزق.

وثانيها: نعمة وصلت من جهة غير الله في ظاهر الأمر، وفي الحقيقة هي أيضاً إنما وصلت من الله تعالى، وذلك لأنه تعالى هو الخالق لتلك النعمة، والخالق لذلك المنعم، والخالق لداعية الإنعام بتلك النعمة في قلب ذلك المنعم، إلا أنه تعالى لما أجرى تلك النعمة على يد ذلك العبد كان ذلك العبد مشكوراً، ولكن المشكور في الحقيقة هو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَن شُكِرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14] فبدأ بنفسه تنبيهاً على أن إنعام الخلق لا يتم إلا بإنعام الله تعالى.

وثالثها: نعم وصلت من الله إلينا بسبب طاعتنا، وهي أيضاً من

الله تعالى؛ لأنه لولا أن الله سبحانه وتعالى وفقنا للطاعات وأعاننا عليها وهدانا إليها وأزاح الأعداء عنا لما وصلنا إلى شيء منها. فظهر بهذا التقرير أن جميع النعم في الحقيقة من الله تعالى.

الفرع الثاني: أن أول نعم الله على العبيد هو أن خلقهم أحياء، ويدل عليه العقل والنقل: أما العقل فهو أن الشيء لا يكون نعمة إلا إذا كان بحيث يمكن الانتفاع به، ولا يمكن الانتفاع به إلا عند حصول الحياة، فإن الجماد والميت لا يمكنه أن ينتفع بشيء، فثبت أن أصل جميع النعم هو الحياة. وأما النقل فهو أنه تعالى قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28] ثم قال عقيبها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]، فبدأ بذكر الحياة، وثنى بذكر الأشياء التي ينتفع بها، وذلك يدل على أن أصل جميع النعم هو الحياة.

الفرع الثالث: اختلفوا في أنه هل لله تعالى نعمة على الكافر أم لا؟ فقال بعض العلماء: ليس لله تعالى على الكافر نعمة، وقالت المعتزلة: لله على الكافر نعمة دينية، ونعمة دنيوية، واحتج الفريق الأول على صحة قولهم بالقرآن والمعقول:

أما القرآن فآيات: إحداهما: قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لأنه لو كان لله على الكافر نعمة لكانوا داخلين تحت قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ولو كان كذلك لكان قوله: ﴿أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿﴾ طلباً لصراط الكفار، وذلك باطل، فثبت بهذه الآية أنه ليس لله نعمة على الكفار، فإن قالوا: إن قوله «الصراط» يدفع ذلك، قلنا: إن قولنا: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فكان التقدير: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، وحينئذ يعود المحذور المذكور. والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُضِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُضِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178].

وأما المعقول فهو أن نعم الدنيا في مقابلة عذاب الآخرة على الدوام قليلة كالقطرة في البحر، ومثل هذا لا يكون نعمة، بدليل أن من جعل السم في الحلواء لم يعد النفع الحاصل منه نعمة، لأجل أن ذلك النفع حقير في مقابلة ذلك الضرر الكثير، فكذا هاهنا.

وأما الذين قالوا: إن لله على الكافر نعماً كثيرة، فقد احتجوا بآيات: إحداهما: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: 21-22]، فنبه على أنه يجب على الكل طاعة الله لمكان هذه النعم العظيمة. وثانيها: قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28] ذكر ذلك في معرض الامتنان وشرح النعم. وثالثها: قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 40]، وسيأتي تفصيل الكلام عليه برقم (13).

6 - واعلم أن هذا الدليل كما أنه في نفسه هو دليل ، فكذلك هو نفسه إنعام عظيم ، فهذه الحالة من حيث إنها تعرف العبد وجود الإله دليل ، ومن حيث إنها نفع عظيم وصل من الله إلى العبد إنعام ، فلا جرم هو دليل من وجه ، وإنعام من وجه ، والإنعام متى وقع بقصد الفاعل إلى إيقاعه إنعاماً كان يستحق هو الحمد ، وحدوث بدن الإنسان أيضاً كذلك ، وذلك لأن تولد الأعضاء المختلفة الطبائع والصور والأشكال من النطفة المتشابهة الأجزاء لا يمكن إلا إذا قصد الخالق إيجاد تلك الأعضاء على تلك الصور والطبائع ، فحدوث هذه الأعضاء المختلفة يدل على وجود صانع عالم بالمعلومات ، قادر على كل المقدورات ، قصد بحكم رحمته وإحسانه خلق هذه الأعضاء على الوجه المطابق لمصالحنا الموافق لمنافعنا ، ومتى كان الأمر كذلك كان مستحقاً للحمد والثناء .

فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يدل على وجود الصانع، وعلى علمه، وقدرته، ورحمته، وكمال حكمته، وعلى كونه مستحقاً للحمد والثناء والتعظيم، فكان قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دالاً على جملة هذه المعاني، وأما قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو يدل على أن ذلك الإله واحد، وأن كل العالمين ملكه، وليس في العالم إله سواه، ولا معبود غيره، وأما قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيدل على أن الإله الواحد الذي لا إله سواه موصوف بكمال الرحمة والكرم والفضل والإحسان قبل الموت وعند

الموت وبعد الموت ، وأما قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيدل على أن من لوازم حكمته ورحمته أن يحصل بعد هذا اليوم يوم آخر يظهر فيه تمييز المحسن عن المسيء، ويظهر فيه الانتصاف للمظلومين من الظالمين، ولو لم يحصل هذا البعث والحشر لقدح ذلك في كونه رحماناً رحيماً.

إذا عرفت هذا ظهر أن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يدل على وجود الصانع المختار، وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدل على وحدانيته، وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يدل على رحمته في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يدل على كمال حكمته ورحمته بسبب خلق الدار الآخرة.

وأما قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخر السورة فهو إشارة إلى الأمور التي لا بد من معرفتها في تقرير العبودية، وهي محصورة في نوعين: الأعمال التي يأتي بها العبد، والآثار المتفرعة على تلك الأعمال: أما الأعمال التي يأتي بها العبد فلها ركنان: أحدهما: إتيانه بالعبادة وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. والثاني: علمه بأنه لا يمكنه الإتيان بها إلا بإعانة الله وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهاهنا يفتح البحر الواسع في الجبر والقدر. وأما الآثار المتفرعة على تلك الأعمال فهي حصول الهداية والانكشاف والتجلي، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ثم إن أهل العالم ثلاث طوائف: الطائفة الأولى: الكاملون المحقون المخلصون، وهم الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته، ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

والطائفة الثانية: الذين أخلوا بالأعمال الصالحة، وهم الفسقة، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

والطائفة الثالثة: الذين أخلوا بالاعتقادات الصحيحة، وهم أهل البدع والكفر، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

إذا عرفت هذا فنقول: استكمال النفس الإنسانية بالمعارف والعلوم على قسمين: أحدهما: أن يحاول تحصيلها بالفكر والنظر والاستدلال. والثاني: أن تصل إليه محصولات المتقدمين فتستكمل نفسه.

فقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إشارة إلى القسم الأول،

وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى القسم الثاني، ثم في هذا القسم طلب أن يكون اقتداؤه بأنوار عقول الطائفة المحقة الذين جمعوا بين العقائد الصحيحة والأعمال الصائبة، وتبرأ من أن يكون اقتداؤه بطائفة الذين أخلوا بالأعمال الصحيحة، وهم المغضوب عليهم، أو بطائفة الذين أخلوا بالعقائد الصحيحة، وهم الضالون، وهذا آخر السورة، وعند الوقوف على ما لخصناه يظهر أن هذه السورة جامعة لجميع المقامات المعبرة في معرفة الربوبية ومعرفة العبودية.

7 - من جوانب الإنعام المُمثلة في الصلاة أنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فإنَّ مَنْ يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد، فإذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصباً له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا في ذلك الموضع، فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك، فكذلك العبد إذا صلى دخل في طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه، وصار له مقام معين، إذ صار من أصحاب اليمين، فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال، وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله، يعني من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر.

وهو موافق لما وردت به الأخبار، وهو أن من يكون بعيداً عن الملك كالسوقي والمنادي والمتعيش لا يبالي بما فعل من الأفعال، يأكل في دكان الهراس والرواس، ويجلس مع أحباش الناس، فإذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحداً من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطي ما كان يفعله، فإذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: 19]، فإذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي، فبتكرار الصلاة والسجود تزداد مكانته، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلاً عن الكبائر.

وفي الآية وجه آخر معقول يؤكد المنقول، وهو أن المراد من قوله: ﴿إِثْبَاتِ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45] هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك، والتعطيل هو إنكار وجود الله، والإشراك إثبات ألوهية لغير الله. فنقول: التعطيل عقيدة فحشاء، لأن الفاحش هو القبيح الظاهر القبح، لكن وجود الله أظهر من الشمس، وما من شيء إلا وفيه آية على الله ظاهرة، وإنكار الظاهر ظاهر الإنكار، فالقول بأن لا إله قبيح والإشراك منكر، وذلك لأن الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفساً إلى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال: ﴿إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا آلِيَّ وَوَلَدَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: 2] فالمشرك الذي يقول: الملائكة بنات الله، وينسب إلى من لم يلد ولا يجوز أن يكون له ولد ولداً، كيف لا يكون قوله منكرًا؟

فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء وهذا المنكر، وذلك لأن العبد أول ما يشرع في الصلاة يقول: الله أكبر، فبقوله «الله» ينفي التعطيل، وبقوله «أكبر» ينفي التشريك لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك، فإذا قال ﴿سَمِ اللَّهُ﴾ نفى التعطيل، وإذا قال ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ نفى الإشراك، لأن الرحمن من يعطي الوجود بالخلق بالرحمة، والرحيم من يعطي البقاء بالرزق بالرحمة، فإذا قال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أثبت بقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خلاف التعطيل، وبقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خلاف الإشراك، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

بتقديم <إياك> نفى التعطيل والإشراك، وكذا بقوله: ﴿وَيَاكَ
نَسْتَعِينُ﴾، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ نفى التعطيل لأن طالب
الصراط له مقصد، والمعطل لا مقصد له، وبقوله: ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ نفى
الإشراك لأن المستقيم هو الأقرب، والمشرك يعبد الأصنام حتى يعبد
صورة صورها إله العالمين، ويظنون أنهم يشفعون لهم وعبادة الله من
غير واسطة أقرب، وعلى هذا إلى آخر الصلاة، يقول فيها: أشهد أن
لا إله إلا الله، فينفي الإشراك والتعطيل.

وها هنا لطيفة: وهي أن الصلاة أولها لفظة «الله» وآخرها لفظة
«الله» في قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، ليعلم المصلي أنه من أول
الصلاة إلى آخرها مع الله، فإن قال قائل: فقد بقي من الصلاة قوله:
وأشهد أن محمداً رسول الله، والصلاة على الرسول والتسليم، فنقول:
هذه الأشياء في آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة، وذلك
لأن الصلاة ذكر الله لا غير، لكن العبد إذا وصل بالصلاة إلى الله
وحصل مع الله لا يقع في قلبه أنه استقل واستبد واستغنى عن الرسول
ﷺ، كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت إلى الثواب
والحجاب، فقال: أنت في هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد ﷺ وغير
مستغن عنه، فقل مع ذكري: محمد رسول الله.

ثم إذا علمت أن هذا كله ببركة هدايته فاذكر إحسانه بالصلاة
عليه، ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم
وبلغهم سلامي كما هو ترتيب المسافرين، واعلم أن هيئة الصلاة هيئة

فيها هيبة ، فإن أولها وقوف بين يدي الله كوقوف المملوك بين يدي السلطان ، ثم إن آخرها جثو بين يدي الله كما يجثو بين يدي السلطان من أكرمه بالإجلال ، كأن العبد لَمَّا وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه فجثا ، وفي هذا الجثو لطيفة وهي أن من جثا في الدنيا بين يدي ربه هذا الجثو لا يكون له جثو في الآخرة ، ويكون من الذين قال الله في حقهم: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بعلم الدين والعمل به ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من كل أمة .

8 - أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده ، وهو المنعم بالهداية دون أن يشرك أحد في نعمته ، فاقضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الأفراد فيقال: «أنعمت عليهم» أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة ، وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط ، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم ، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم ، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه ، ويرضى عمن رضي عنه ، فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه ، وهذا حقيقة العبودية . واليهود قد غضب الله عليهم ، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم ، فحذف فاعل الغضب وقال: «المغضوب عليهم» لما كان للمؤمنين نصيب من غضب الله عليهم ، بخلاف الإنعام فإنه لله وحده . فتأمل هذه النكت البديعة .

فإن «المغضوب عليهم» في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات

والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقْتِصَارُ عليها، وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشادة بذكرهم، وإذا ثبت هذا فالألف واللام في «المغضوب» وإن كانتا بمعنى «الذين» فليست مثلها في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمّى، فإن قولك: الذين فعلوا، معناه القوم الذين فعلوا، وقولك: الضاربون والمضروبون، ليس فيه ما في قولك: الذين ضربوا أو ضربوا. فتأمل ذلك

فـ<الذين أنعمت عليهم> إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم، بخلاف «المغضوب عليهم» فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم.

9 - ولما كان طالب الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثر الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزّة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الأُنس بالرفيق، نَبّه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشةُ تفرّده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وليعلمَ أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكثر بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغترّ بكثرة الهالكين.

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق ، واحرص على اللحاق بهم ، وغض الطرف عن سواهم ، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم ، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وأعاقوك .

وقد ضربت لذلك مثلاً فليكن منك على بال :

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة لا يريد غيرها ، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس فألقى عليه كلاماً يؤذيه ، فوقف وردّ عليه وتماسك ، فربما كان شيطان الإنس أقوى منه فقهره ومنعه عن الوصول إلى المسجد حتى فاتته الصلاة ، وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول وكمال إدراك الجماعة ، فإن التفت إليه أطمعه في نفسه وربما فترت عزيمته ، فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجمز بقدر التفاته أو أكثر ، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه ما شاء .

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: اللهم اهديني فيمن هديت ، أي أدخلني في هذه الزمرة واجعلني رفيقاً لهم ومعهم .

والفائدة الثانية أنه توسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية ، أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت وكان ذلك نعمة منك فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة ، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم ، فهو توسل إلى الله بإحسانه .

والفائدة الثالثة كما يقول السائل للكريم: تصدّق عليّ في جملة

مَنْ تَصَدَّقَتْ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَّمَنِي فِي جَمَلَةٍ مِنْ عِلْمَتِهِ ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فِي جَمَلَةٍ مِنْ شَمَلَتِهِ بِإِحْسَانِكَ .

10 - وَلَمَّا كَانَ سُؤَالَ اللَّهِ الْهَدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَجَلَّ الْمَطَالِبِ وَنِيلَهُ أَشْرَفَ الْمَوَاهِبِ عَلَّمَ اللَّهُ عِبَادَهُ كَيْفِيَةَ سُؤَالِهِ ، وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ حَمْدَهُ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ وَتَمْجِيدَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ عِبُودِيَّتَهُمْ وَتَوْحِيدَهُمْ ، فَهَاتَانِ وَسِيلَتَانِ إِلَى مَطْلُوبِهِمْ : تَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِعِبُودِيَّتِكَ لَهُ ، وَهَاتَانِ الْوَسِيلَتَانِ لَا يَكَادُ يُرَدُّ مَعَهُمَا الدُّعَاءُ ، وَيُؤَيِّدُهُمَا الْوَسِيلَتَانِ الْمَذْكُورَتَانِ فِي حَدِيثِي الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ اللَّذِينَ رَوَاهُمَا ابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ :

أَحَدُهُمَا : حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَرِيدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ » . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ .

فَهَذَا تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِتَوْحِيدِهِ وَشَهَادَةِ الدَّاعِي لَهُ بِالْوَاحِدَانِيَّةِ وَثَبُوتِ صِفَاتِهِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا بِاسْمِ الصَّمَدِ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْعَالَمُ الَّذِي كَمَلَ عِلْمُهُ ، الْقَادِرُ الَّذِي كَمَلَتْ قُدْرَتُهُ . وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ : هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِيهِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ السُّؤُدِ . وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ : هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى سُؤُدُهُ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : هُوَ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: ولم يكن له كفواً أحد. وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة والتوسل بالإيمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال: «لقد سألت الله باسمه الأعظم». فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوصيلتين: وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب، وهو الهداية بعد الوصيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل، رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنه: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبون حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له، ثم سأله المغفرة.

11 - فالمؤمن بعد أن عرف الله بالدليل صار مهتدياً، لكنه لا بدَّ

مع ذلك من حصول الملكات والأخلاق الفاضلة التي هي وسط بين الطرفين ومستقيم بين المنحرفين، ففي القوة الشهوية طرف الإفراط فجور، وطرف التفريط خمود، وهما مذمومان، والوسط وهو استعمالها في مواضعها على قضية العدالة والشريعة محمود، وهو العفة، وكذا في القوة الغضبية طرفا التهور والجبن مذمومان، والوسط وهو الشجاعة محمود، وفي القوة النفسانية الجريزة والبله مذمومان، والوسط وهو الحكمة محمود.

وبالجملة فإنه يحصل من توسط استعمال القوة الشهوية: الحياء والرفق والصبر والقناعة والورع والحرية والسخاء، ومن توابع السخاء: الكرم والإيثار والعفو والمروءة والمسامحة، ويلزم من توسط استعمال القوة الغضبية كبر النفس وعلو الهمة والثبات والحلم والسكون والتحمل والتواضع والحمية والرقّة، ومن توسط استعمال القوة النطقية الذكاء وسرعة الفهم وصفاء الذهن وسهولة التعلم وحسن التعقل والتحفظ والتذكر، ويحصل من كمال التوسط في القوى الثلاث كمال العدالة، ويتبعها الصداقة والألفة والوفاء والشفقة وصلة الرحم والمكافأة وحسن الشركة والتسليم والتوكل وتعظيم المعبود الحق وملائكته وأنبيائه وأولي الأمر والانقياد لأوامرهم ونواهيهم.

والتقوى تكمل هذه المعاني وتتممها، ولأن القوة النطقية ذاتية للإنسان، والشهوية والغضبية حصلتا له بواسطة التعلق البدني، فكمال التوسط في النطقية أن يستعملها بحيث لا يمكن أزيد منها. وكمال

التوسط في الآخرين أن يستعملهما بحيث لا يمكن أقل من ذلك ،
ليفضيَ إلى تحصيل سعادة الدارين .

وأيضاً العلم النظري يقبل الزيادة بمعنى تواصل أوقاته
وقلة الفترات ، وبمعنى زيادة الأدلة ، فليس مَن عِلْمٍ بدليل كمن علم
بأدلة ، فلا موجود من أقسام الممكنات إلا وفيه دلالة على وجود الله
وعلمه وقدرته ، وجوده ورحمته وحكمته . وربما صح دين الإنسان
بالدليل الواحد وبقي غافلاً عن سائر الدلائل ، فكأنه يقول: عرّفنا إلهنا
ما في كل شيء من كيفية دلالاته على ذاتك وصفاتك وعلمك
وقدرتك .

وأيضاً قد يُراد بالصراط المستقيم الاقتداءً بالأنبياء ، وهو أن يكون
الإنسان مُعرضاً عمّا سوى الله مقبلاً بكلية قلبه وفكره وذكره على الله ،
حتى لو أمر بذبح ولده لأطاع كالخليل ، ولو أمر أن يذبح لانقاد
كإسماعيل ، ولو أمر بإلقاء نفسه في البحر امثل كيونس ، ولو أمر بتلمذة
من هو أعلم منه بعد بلوغه أعلى منصب ائتمر كموسى مع الخضر .

وعن حباب قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في
ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَن
قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار
فيوضع على رأسه ، ويجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه
وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه» . وأيضاً كأن العبد يقول: الأحباب
يدعونني إلى طريق ، والأعداء إلى طريق ثانٍ ، والشيطان إلى ثالث .

وكذا القول في الشهوة والغضب والاعتقادات والآراء، والعقل ضعيف، والعمر قصير، والقضاء عسير، فاهدني هذا الطريق السوي الذي لا أزيغ به.

وقيل: الصراط القرآن أو الإسلام، وليس بشيء، إذ يصير المعنى: اهدنا صراط المتقدمين، مع أنه لم يكن لهم قرآن ولا إسلام، اللهم إلا أن يُراد أصول هذه الشريعة وقوانينها كما قال ﴿فَهَدَيْنَهُمْ أُقْتَدَةَ﴾ [الأنعام: 90]، وعن علي كرم الله وجهه: ثَبَّتْنَا عَلَى الْهَدَايَةِ كَقَوْلِهِ ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 80]، فكم من عالم يزلّ ومُهْتَدٍ يَضَلُّ. وفي اختيار لفظ الصراط دون الطريق أو السبيل، تذكيرٌ بالصراط الذي هو الجسر الممدود بين طرفي جهنم، سهل الله تعالى علينا عبوره ووروده.

12 - ذكرنا في حدّ النعمة أنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، لأنه لو قصد الفاعل منفعة نفسه أولاً على جهة الإحسان لم يكن نعمة، فلا يستحق الشكر.

ثم نقول: كل ما يصل إلى الخلق من نفع أو دفع ضرر فهو من الله تعالى لقوله ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، ولأن الواصل من جهة غير الله ينتهي إليه أيضاً، لأنه الخالق لتلك النعمة، وكذلك للمنعّم ولداعية ذلك الإنعام فيه. والنعمة الواصلة إلينا بطاعاتنا هي أيضاً من الله تعالى، لأنها بتوفيقه وإعانتته بأن أتاح الأسباب وأزاح الأعذار.

وأول نعمة من الله تعالى على عبده نعمة الحياة التي بها يمكن الانتفاع بالمنافع والاحتراز عن المضارّ، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28] ثم عقب ذلك بقوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29].

13 - هل لله تعالى على الكافر نعمة أم لا؟ أنكر ذلك بعض

العلماء لوجوه:

منها: قوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فإنه لو كان له على الكفار نعمة لزم طلب صراط الكفار، لأن المبدل منه وهو الصراط المستقيم في حكم المنحى. والجواب: أن قوله: ﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يدفع ذلك.

ومنها: قوله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]. والجواب: أنه لا يلزم من عدم كون الإملاء خيراً ونعمة لهم ألا يكون أصل الحياة وسائر أسباب الانتفاع نعمة، فإن الإملاء تأخير النعمة بعد ثبوت استحقاقها، فما قبل هذه الحالة لا يكون كذلك. على أن نفس الإملاء أيضاً تمتع حالي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ [البقرة: 126]، وليس هذا كمن جعل السم في الحلواء على ما ظن، وإنما هو كمن ناول شخصاً حلواءً لذيذة غير مسمومة، ولكن ذلك

الشخص لفساد مزاجه أو لاستعماله الحلواء لا كما ينبغي أفسد مزاج الحلواء أيضاً، وصيره كالسم القاتل بالنسبة إليه ، ولهذا قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» .

وكيف لا تعم نعم الله تعالى وقد قال على العموم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿البقرة: 21، 22﴾ وقال: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28] كل ذلك في معرض الامتنان وشرح النعم . وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: 13] ﴿وَلَا يَحِدُّ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17] والشكر لا يكون إلا بعد النعمة .

14 - اختلف الناس في المشار إليهم بأنه أنعم عليهم: فقال ابن عباس وجمهور من المفسرين: إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 66-69] ،

فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد.

وقال ابن عباس أيضاً: «المنعم عليهم هو المؤمنون». وقال الحسن ابن أبي الحسن: «المنعم عليهم أصحاب محمد ﷺ». وقيل: المؤمنون، وقيل: الصحابة، وقيل: قوم موسى وعيسى قبل أن يغيروا. والأول أرجح لعمومه ولقوله تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

15 - قرأ عمر بن الخطاب وابن الزبير: «صراط من أنعمت عليهم». و«صراط الذين» بدل من الأول، و«الذين» جمع الذي، وأصله «لذ»، حُذفت منه الياء للتنوين كما تحذف من عم وقاضٍ، فلما دخلته الألف واللام ثبتت الياء. و«الذي» اسم مبهم ناقص محتاج إلى صلة وعائد، وهو مبني في إفراده، وجمعه معرب في ثنيتها، ومن العرب من يعرب جمعه، فيقول في الرفع: اللذون. وكُتب الذي بلام واحدة في الأفراد والجمع تخفيفاً لكثرة الاستعمال. و«عليهم» الأول في موضع نصب، والثاني في موضع رفع.

16 - وأما لماذا قال ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: المنعم عليهم كما قال «المغضوب عليهم»؟ ففي جوابها فوائد:

إحداها: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن الكريم، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى،

فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حُذِفَ وبنى الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب، وإضافته إلى الله تعالى أشرف قسيمي أفعاله.

فمنه هذه الآية، فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول، فقال: «المغضوب عليهم» وقال في الإحسان: «الذين أنعمت عليهم»، ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء 78-80]، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10] فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول.

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فأضاف العيب إلى نفسه، وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف 82]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة 187] فحذف الفاعل وبناه للمفعول وقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة 275] لأن في ذكر الرفث

ما يحسن منه ألا يقترن بالتصريح بالفاعل .

ومنه ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالِدَمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة 3] ،
وقوله ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام 151] إلى آخرها .

ومنه - وهو اللفظ من هذا وأدق - معنى قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ [النساء 33] إلى آخرها، ثم قال:
﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء 24] ، وتأمل قوله ﴿فِيظَلَمِ مَنْ
الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء 16] كيف صرح
بفاعل التحريم في هذا الموضع ، وقال في حق المؤمنين: ﴿حُرِّمَتْ
عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالِدَمُ﴾ .

الفائدة الثانية: أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها ،
وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته ، وكان من شكره إبراز
الضمير المتضمن لذكره تعالى الذي هو أساس الشكر ، وكان في قوله:
﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من ذكره وإضافته النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم
عليهم لو قاله ، فضمن هذا اللفظ الأصليين وهما الشكر والذكر
المذكوران في قوله ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾
[البقرة 152] .

17 - أضاف النعمة إليه وحذف فاعل الغضب لوجوه:

الأول: أن النعمة هي الخير والفضل ، والغضب من باب الانتقام والعدل ، والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما ، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه . وحذف الفاعل في مقابلتها كقول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ، ومنه قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ ، وقال في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ، عَنِّ أَمْرِي﴾ وتأمل قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الصِّيَامِ الزَّهْرَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ .

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم ، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر ، فكل الخلق في نعمه ، وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ، ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، والنعمة من جنس الإحسان ، بل هي الإحسان ، والرب

تعالى إحسانه على البر والفاجر والمؤمن والكافر، وأما الإحسان المطلَق فللذين اتقوا والذين هم محسنون .

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعمة: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً ومجرى للنعمة، وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياءه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه، فكان في لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أوليائه له من الدلالة على تفرد به بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده هو المنفرد بها ما ليس في لفظة: المنعم عليهم .

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره ورفع قدره، فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ورفع قدره فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان وخلع عليه وأعطاه ما تمناه، كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أكرم وخلع عليه وشرف وأعطى .

وتأمل سرّاً بديعاً في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدى ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء، فهذا تمام النعمة، ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين .

الوجه الرابع: أن إسناد نعمة «عليهم» إلى الله ، والغضب لما لم يُسَمَّ فاعله على وجه التأدب، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ،

18 - وقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: صراط الأنبياء أو الصالحين، ليدل على أن الدين في ذاته نعمة عظيمة، ويكفي للدلالة على عظمتها إسنادها إليه تعالى في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لأن المراد بالإنعام هنا - على الراجح - الإنعام الديني . فالمنعم عليهم هم من عرفوا الحق فتمسكوا به، وعرفوا الخير فعملوا به، والنعمة لين العيش وخفضه، ونعم الله كثيرة لا تحصى .

قال بعض العلماء: «وإنما اختار في البيان أن يضيف الصراط إلى المنعم عليهم لمعنيين:

أولهما: إبراز نفسية المحب المخلص، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحري عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا، في ثقة تملأ نفسه، وتفعم قلبه، ولا يجد في مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة إلا أن يتبين الطريق، بأنه الطريق الذي وصل بالسير عليه من قبله الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون .

وثانيهما: أن من خواطر المؤمل في نعيم ربه أن يكون تمام أنسه في رفقة من الناس صالحين، وصَحْبٍ منهم محسنين .

19 - الآية تدل على أن أحداً من الملائكة والأنبياء ما أقدم على

عمل أو اعتقاد يخالف الحق، وإلا لكان ضالاً لقوله تعالى ﴿فَمَاذَا بَعَدَ
الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: 32] يصلح للاقتداء به والاهتداء بطريقه.

20 - ولم يقل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، مستغنياً عن
ذكر الصراط المستقيم، ليدل أن صراط هؤلاء المنعم عليهم هو
الصراط المستقيم.

21 - قال في لطائف المنن: من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة
الأتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيطاً لا أب
له، دعي لا نسب له، فإن يكن له نور فالغالب غلبة الحال عليه،
والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم ترضه سياسة التأديب
والتهذيب، ولم يقده زمان التربية والتدريب.

فهذا الطريق الذي ذكرنا هو الذي يستشعره القارئ للفتحة عند
قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ مع الترقى الذي ذكره الشيخ أبو
العباس المرسي رحمته الله المتقدم، وإذا قرأ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾
استشعر، أي: أنعمت عليهم بالوصول والتمكين في معرفتك.

وقال الورتجبي: اهدنا مُرَادَكَ مِنَّا؛ لأن الصراط المستقيم ما أراد
الحق من الخلق، من الصدق والإخلاص في عبوديته وخدمته. ثم
قال: وقيل: اهدنا هُدَى الْعِيَانِ بعد البيان، لتستقيم لك حسب إرادتك.
وقيل: اهدنا هُدَى مَنْ يَكُونُ مِنْكَ مَبْدُوهُ لِيَكُونَ إِلَيْكَ مَتْنَاهُ.

ثم قال: وقال بعضهم: اهدنا، أي: ثبَّتْنَا عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي لَا

اعوجاج فيه، وهو الإسلام، وهو الطريق المستقيم والمنهاج القويم ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: منازل الذين أنعمت عليهم بالمعرفة والمحبة وحسن الأدب في الخدمة. ثم قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: المطرودين عن باب العبودية، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يعني المُفْلِسِينَ عن نفائس المعرفة. اهـ.

22 - قال القشيري: قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الأمر في هذه الآية مضمّر، أي: قولوا: اهدنا. والصراط المستقيم: طريق الحق، وهو ما عليه أهل التوحيد، أي: أرشدنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات، فيقع على وجه التوحيد غُبارُ الظنون والحسابات لتكون دليلنا عليك، ثم قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الواصلين بك إليك، ثم قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بنسيان التوفيق والتَّعَامِي عن رؤية التأييد، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ عن شهودِ سابقِ الاختيار، وجريان تصاريف الأقدار. اهـ.

23 - ذكر المنعم عليهم وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال: انقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة، لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق أو جاهلاً به، والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له، فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة، فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه، وهو الذي

زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ ، والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه ، والجاهل بالحق هو الضال ، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل ، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل ، فكل منهما ضال مغضوب عليه ، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به .

ومن هاهنا كان اليهود أحق به وهو متغلظ في حقهم كقوله تعالى في حقهم: ﴿بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة:90] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:60] . والجاهل بالحق أحق باسم الضلال ، ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:77] فالأولى في سياق الخطاب مع اليهود والثانية في سياقه مع النصارى ، وفي الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «اليهود

مغضوب عليهم والنصارى ضالون».

ففي ذكر المنعم عليهم وهم من عرف الحق واتبعه، والمغضوب عليهم وهم من عرفه واتبع هواه، والضالين وهم من جهله، ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

24 - جاء في تفسير النيسابوري في فوائد قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: ما المراد بالنعمة المذكورة في قوله «أنعمت عليهم»؟ قلنا: يتناول كل من كان لله عليه نعمة دينية ودنيوية. ثم إنه يخرج

بقوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ كل من عليه نعمة دنيوية فقط، ويبقى الذين أنعم الله عليهم في الدنيا والآخرة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وكما أن أصل النعم الدنيوية هي الحياة المستتبعة لكل المنافع، فكذلك أصل النعم الدينية هو الإيمان المستلزم لجميع الخيرات والسعادات. وكما أن كمال البدن بالحياة فكمال النفس بالإيمان وموتها

بفقدته، ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: 80] ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: 22]، وكما أن حياة البدن من الله فكذا الإيمان منه وبتوقيفه.

وإضافة الإيمان إلى العبد إضافة الأثر إلى القابل، وبذلك القبول يستأهل الثواب. والمؤمن لا يبقى مخلداً في النار، فإن من شرفه الله

تعالى بأعظم الإنعام لن يعاقبه بأشد الآلام، فما الإنعام إلا بالإتمام.
قيل: لو كان رعاية الأصلح على الله واجباً لم يكن ذلك إنعاماً، لأن أداء
الواجب لا يسمى إنعاماً. قلت: النزاع لفظي، لأن الأصلح لا بد أن
يصدر عنه، ولا يليق بحكمته وكماله خلاف ذلك، ثم ما شئت فسّمه.

*** **

تفسير قوله تعالى

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

وفيه عشر فوائد:

1 - في هذه الآية تعليم لأدب جميل ، وهو أن الإنسان يجمُل به أن يُسند أفعال الإحسان إلى الله تعالى ، ويتحامى أن يسند إليه أفعال العقاب والابتلاء ، وإن كان كل من الإحسان والعقاب صادراً منه ، ومن شواهد هذا قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ .

وإنما أسند النعمة إلى الله والغضب إلى المجهول تعليماً للأدب ، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ . قال البيضاوي: ونعم الله وإن كانت لا تُحصى كما قال الله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34] تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي.

فالأول: وهو الدنيوي - قسمان: موهبي وكسبي ، والموهبي قسمان: رُوحاني ، كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى ، كالفهم والفكر والنطق ، وجسماني: كتخليق البدن بالقوة الحائلة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء .

والكسبي: كتزكية النفس عن الرذائل ، وتحليلتها بالأخلاق الحسنة

والملكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلي المستحسنة، وحصول الجاه والمال .

والثاني: وهو الأخرى: أن يغفر له ما قَرَطَ منه ويرضى عنه ويُبَوِّئُهُ في أعلى عِلِّيِّين، مع الملائكة المقربين أبد الأبد، والمراد القسم الأخير، وما يكون وُصْلَةٌ إلى نيله من القسم الأول، وأما ما عدا ذلك فيشترك فيه المؤمن والكافر. اهـ.

قال ابن جُزَيٍّ: النعم التي يقع عليها الشكر ثلاثة أقسام: دنيوية: كالصحة والعافية والمال الحلال. ودينية: كالعلم والتقوى والمعرفة. وأخرى: كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل. وقال أيضاً: والناس في الشكر على مقامين: منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه، الخاصة به، ومنهم من يشكر الله عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم.

والشكر على ثلاث درجات: فدرجة العوام، الشكر على النعم، ودرجة الخواص: الشكر على النعم والنقم وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن رؤية النعمة بمشاهدة المنعم.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: الفقراء إذا أعطوا شكروا، وإذا منعوا صبروا، فقال إبراهيم: هذه أخلاق العامة، ولكن القوم إذا منعوا شكروا، وإذا أعطوا آثروا. اهـ.

2 - ثم احتسب من الطريق غير المستقيمة، فقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ﴾ أي: غير طريق الذين غضبت عليهم، فلا تهدنا إليها ولا تسلك

بنا سبيلها، بل سلمنا من مواردنا. والمراد بهم: اليهود، كذا فسرها النبي ﷺ، ويصدق بحسب العموم على كل من غضب الله عليهم، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: ولا طريق الضالين، أي: التالفين عن الحق، وهم النصارى كما قال ﷺ. والتفسيران مأخوذان من كتاب الله تعالى. قال تعالى في شأن اليهود: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: 90]، وقال في حق النصارى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77].

واعلم أن الحق - سبحانه - قسم خلقه على ثلاثة أقسام: قسم أعددهم للكرم والإحسان، ليظهر فيهم اسم الكريم أو الرحيم، وهم المنعم عليهم بالإيمان والاستقامة. وقسم أعددهم للانتقام والغضب، ليظهر فيهم اسمه المنتقم أو القهار، وهم المغضوب عليهم والضالون عن طريق الحق عقلاً أو عملاً، وهم الكفار. وقسم أعددهم لله للحلم والعفو، ليظهر فيهم اسمه تعالى الحليم والعفو، وهم أهل العصيان من المؤمنين.

فمن رام أن يكون الوجود خالياً من هذه الأقسام الثلاثة، وأن يكون الناس كلهم سواء في الهداية أو ضدها، فهو جاهل بالله وبأسمائه؛ إذ لا بد من ظهور آثار أسمائه في هذا الآدمي، من كرم وقهرية وحلم وغير ذلك. والله تعالى أعلم.

قلت: والأحسن أن يقال: ﴿عَبْرَ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم الذين

أَوْقَفَهُمْ عَنِ السَّيْرِ اتِّبَاعَ الْحُظُوظِ وَالشَّهَوَاتِ ، فَأَوْقَعَهُمْ فِي مَهَاوِي الْعَصِيَانِ وَالْمُخَالَفَاتِ ، ﴿وَلَا أَلْصَّكَّائِينَ﴾ هم الذين حبسهم الجهل والتقليد ، فلم تنفذ بصائرهم إلى خالص التوحيد ، فنكصوا عن توحيد العيان إلى توحيد البرهان ، وهو ضلال عند أهل الشهود والعيان ، ولو بلغ في الصلاح غاية الإمكان .

3 - من المغضوب عليهم ومن الضالون؟ .

الجواب: المغضوب عليهم هم المائلون في كل خلق أو اعتقاد إلى طرف التفريط ومنهم اليهود، والضالون هم المائلون إلى طرف الإفراط ومنهم النصارى . وإنما خصَّ الأولون بالغضب عليهم لأن الغضب يلزمه البعد والطرْد، والمفْرَط في شيء هو المعرض عنه غير مجد بطائل فهو بعيد عن ذلك . وأما المفْرَط فقد أقبل عليه وجاوز حد الاعتدال ، فغاب عن المقصود ومُنِيَ بالحرمان ﴿كَأَلَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: 71] ، فاليهود فرطوا في شأن نبي الله ولم يطيعوه ، وآذوه حتى قالوا بعد أن نجاهم الله من عدوهم: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138] ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55] ، ولهذا قال عز من قائل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: 69] ، والنصارى أفرطوا وقالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30] ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73] .

روي عن عدي بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «غير المغضوب عليهم اليهود، والضالون النصارى» [رواه الطبراني في معجمه الأوسط]، وتصديق ذلك من كتاب الله حيث قال في اليهود: ﴿وَبَاءُ وَيَغَضِبِ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 112]، وفي النصارى ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77] هذا شأن الفريقين. وأما المؤمنون فطلبوا الوسط بين المنحرفين، وذلك من لطف الله تعالى بهم وفضله عليهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وخير الأمور أوسطها.

وقيل: المراد بالمغضوب عليهم اليهود، وبالضالين النصارى. وقد ورد هذا التفسير عن النبي ﷺ في حديث رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه. وقاله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما.

وقيل: المغضوب عليهم المشركون، والضالون المنافقون، وقيل: المغضوب عليهم اليهود والنصارى، والضالون سائر الكفار، وقيل: ذلك عام في كل مغضوب عليه وكل ضال.

والأول أرجح لأربعة أوجه: روايته عن النبي ﷺ، وجلالة قائله، وذكر «لا» في قوله «ولا الضالين» دليل على تغاير الطائفتين، وأن الغضب صفة اليهود في مواضع من القرآن، كقوله: ﴿فَبَاءُ وَيَغَضِبِ﴾، والضلال صفة النصارى لاختلاف أقوالهم الفاسدة في عيسى بن مريم عليه السلام، ولقول الله فيهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا

كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٤﴾ .

4 - الغضب لغة: الشدة، وحقيقته غليان دم القلب إمعاناً في التشفي، وهو في صفة الله تعالى إرادة الانتقام أو معاملة الغاضب عليه، وقيل: الغضبُ: ثورانُ النفس إرادة الانتقام، فإذا أسند إلى الله تعالى أريد غايته وهو العقوبة، و«عليهم» نائب فاعل: و«لا» مزيدة لتأكيد ما في «غير» من معنى النفي، فكأنه قال: ولا المغضوب عليهم ولا الضالين، وقرأ عمرُ رضي الله عنه: «وغير الضالين»، والضلال: العدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأً، وله عرض عريضٌ والتفاوت بين أدناه وأقصاه كبير. قاله البيضاوي.

وحرف (لا) في قوله ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٤﴾ جيء به لتأكيد معنى النفي المستفاد من كلمة «غير».

5 - ذهب بعض المفسرين إلى القول بأن المراد بالمغضوب عليهم من فسدت إرادتهم حيث علموا الحق ولكنهم تركوه عناداً وجحوداً، وأن المراد بالضالين من فقدوا العلم فهم تائهون في الضلالات دون أن يهتدوا إلى طريق قويم.

6 - قدم «المغضوب عليهم» على «الضالين»، لأن معنى المغضوب عليهم كالضد لمعنى المنعم عليهم، ولأن المقابلة بينهما أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين، فكان جديراً بأن يوضع في مقابله قبل الضالين.

7 - «غَيْرٍ» قال سيبويه: نعت «الذين»، لأن «الذين» كالنكرة، لأنه جنس، ولفظ «غير» نكرة ولو أضيف إلى معرفة، ولا سيما أنه

أضيف لمعرفة هي للجنس فهي كالنكرة، وقيل بجواز إبدال لمشتق الوصف وما أول به ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود المخالفين لموسى وعيسى ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ النصارى المخالفين لها. قيل: المغضوب عليهم لتقدمهم زماناً، ولأن الإنعام يقابل بالانتقام، ولأنهم أشد في الكفر والعناد والفساد، وأشد عداوة للذين آمنوا، ولأنهم كفروا بنبيين: عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، والنصارى بواحد، وهو سيدنا محمد ﷺ.

ولهذا لما أُريد بها هذا المعنى جرت صفة على المنعم عليهم، ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء، لأنه يزول منها معنى الوصفية المقصود، وفيها فائدة أخرى: وهي أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادَّعَوْا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام، فكأنه قيل لهم: المنعمُ عليهم غيركم لا أنتم. وقيل للمسلمين: المغضوب عليهم غيركم لا أنتم، فالإتيان بلفظة «غير» في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة، فتأمل.

وتأمل كيف قال: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ولم يقل: اليهود والنصارى. مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريداً لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم ولم يكونوا منهم بسبيل، لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضالاً، فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من

حكيم حميد .

8 - النعمة هي الخير والفضل ، والغضب من باب الانتقام والعدل ، والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما ، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه . وحذف الفاعل في مقابلتهما كقول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ، ومنه قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزُهُمَا﴾ ، وقال في حرق السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وتأمل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ .

9 - وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجه غاية العذاب والهوان ، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه ، فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال ، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم ، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم ، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه .

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام ، واقتضاه أكمل اقتضاء ، في غاية الإيجاز والبيان

والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة وحذفه في أهل الغضب، وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال، وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة والغضب والضلال، فذكر المغضوب عليهم والضالين في مقابلة المهتدين المنعم عليهم.

وهذا كثير في القرآن يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى

والفلاح، فالثاني كقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ﴾ وقوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾، والأول كقوله

تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ وقوله ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقد جمع

سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ

هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فهذا الهدى والسعادة. ثم

قال: ﴿وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشَرُهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قال رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١١٥﴾ قَالَ

كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْمَى فَانْتَظِرْ فَانْتَظِرْ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى﴾ فذكر الضلال والشقاء.

فالهدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان.

10 - في كلمة «آمين»:

أ - يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها «آمين»، والدليل

على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن

وائل بن حُجر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: «آمين» مدَّ بها صوته .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا
أمَّن الإمامُ فأمَّنوا، فإن من وافق تأمينه تأمينَ الملائكة عُفِرَ الله له ما
تقدم من ذنبه» .

ب - معنى «آمين»: اللهم استجب ، وليس هذا اللفظ من القرآن ،
بدليل أنه لم يثبت في المصاحف .

*** **

فصل في بيان ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من آداب وعقائد وعبادات وأحكام

هذا، وقد أفاض العلماء في الحديث عما اشتملت عليه سورة الفاتحة من آداب وعقائد وعبادات وأحكام:

1 - ومن ذلك قول ابن كثير: (اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات - على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العلیا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاد عبیده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبري من حولهم وقوتهم، إلى إخلاص العبادة له، وتوحيده بالألوهية، وتنزيهه عن أن يكون له شريك أو نظير، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم وتثيتهم عليه، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون).

2 - وقال الفقير: سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم هي مناط الدين.

أحدها: علم الأصول وإليه الإشارة بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ومعرفة النبوات وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ ﴿ وَمَعْرِفَةُ الْمَعَادِ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .
وثانيها: علم الفروع وأعظمه العبادات ، وإليه الإشارة بقوله
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

وثالثها: علم الأخلاق ، وإليه الإشارة بقوله ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

ورابعها: علم القصص والأخبار عن الأمم السابقة السعداء منهم
والأشقياء ، وهو المراد بقوله ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

لَمَّا تَجَلَّى الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ عَالَمِ الْجَبْرُوتِ إِلَى عَالَمِ الْمَلَكُوتِ ،
وَحَمِدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، تَجَلَّى أَيْضاً وَتَنَزَّلَ مِنْ عَالَمِ الْمَلَكُوتِ إِلَى عَالَمِ
الْمُلْكِ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ؛ لِإِظْهَارِ آثَارِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَأَظْهَرَ الْعِبُودِيَّةَ
وَأَخْفَى الرُّبُوبِيَّةَ ، أَظْهَرَ الْحِكْمَةَ وَأَبْطَنَ الْقُدْرَةَ ، فَجَعَلَ عَالَمَ الْحِكْمَةِ
يَخَاطَبُ عَالَمَ الْقُدْرَةِ ، وَيَخْضَعُ لَهُ ، وَيَتَعَبَّدُ وَيَسْتَمِدُّ مِنْهُ الْإِعَانَةَ
وَالهُدَايَةَ ، وَيَتَحَرَّزُ مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ .

فَعَالَمُ الْحِكْمَةِ مَحَلُّ التَّكْلِيفِ ، وَعَالَمُ الْقُدْرَةِ مَحَلُّ التَّصْرِيفِ ،
عَالَمُ الْحِكْمَةِ عَالَمُ الْأَشْبَاحِ ، وَعَالَمُ الْقُدْرَةِ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ ، ﴿إِيَّاكَ
نَعْبُدُ﴾ لِأَهْلِ عَالَمِ الْحِكْمَةِ ، ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لِأَهْلِ عَالَمِ الْقُدْرَةِ ،

ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي رحمته الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ شريعة،
﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقيقة، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إسلاماً، ﴿وإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ﴾ إحساناً، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عبادة، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
عبودية، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فرق، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جمع. اهـ.

وإن شئت قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأهل العمل لله وهم المخلصون،
﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأهل العمل بالله وهم الموحدون، العمل لله
يوجب المثوبة، والعمل بالله يوجب القربة، العمل لله يوجب تحقيق
العبادة، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة، العمل لله نعت كل
عابد، والعمل بالله نعت كل قاصد، العمل لله قيامٌ بأحكام الظواهر،
والعمل بالله قيام بإصلاح الضمائر، قاله القشيري.

3 - ثم إنَّ الناسَ في شهود القدرة والحكمة على ثلاثة أقسام: قسم
حُجِبُوا بالحكمة عن شهود القدرة، وهم أهل الحجاب من أهل الغفلة،
وقفوا مع قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وقسم حُجِبُوا بشهود القدرة عن الحكمة،
وهم أهل الفناء، وقفوا مع قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقسم لم
يحجبوا بالحكمة عن القدرة ولا بالقدرة عن الحكمة، أعطوا كلَّ ذي
حقَّ حقَّه، ووفَّوا كلَّ ذي قسط قسطه، وهم أهل الكمال من أهل البقاء،
جمعوا بين قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وبالله التوفيق.

4 - ومن ذلك ما قاله الإمام النيسابوري في تفسير الفاتحة تفسيراً

إجمالياً، مبيّناً بعض المناهج فيه:

المنهج الأول: نسبة عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ونسبة الأصل إلى الفرع، والنور إلى الظلمة، فكل شاهد فله في الغائب أصل، وإلا كان كسراب زائل وخيال باطل، وكل غائب فله في الشاهد مثال، وإلا كان كشجرة بلا ثمرة ومدلول بلا دليل، وكل شريف فهو بالنسبة إلى ما دونه مطاع كما قال عزّ من قائل: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾
مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ ﴿﴾ [التكوير: 20-21].

والمطاع في عالم الروحانيات مطاع في عالم الجسمانيات، والمطاع في عالم الأرواح هو المصدر، والمطاع في عالم الأجسام هو المظهر. ولا بد من أن يكون بينهما ملاقة ومجانسة، وبهما تتم سعادة الدارين لأنهما يدعوان إلى الله بالرسالة.

وحاصل الدعوة أمور سبعة تشتمل عليها خواتيم سورة البقرة، أربعة منها تتعلق بالمبدأ وهي معرفة الربوبية، أعني معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه ورسوله ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]، واثنان منها تتعلق بالوسط: أحدهما مبدأ العبودية ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: 285]، والثاني كمال العبودية وهو الالتجاء إلى الله وطلب المغفرة منه ﴿عُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: 285]، وواحد يتعلق بالمعاد وهو الذهاب إلى حضرة الملك الوهاب

﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

ويتفرع على هذه المراتب سبع مراتب في الدعاء والتضرع:

أولها ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]

فضدّ النسيان هو الذكر ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: 24]،

وهذا الذكر إنما يحصل بقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

وثانيها ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ

مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286]، ودفع الإصر والثقل يوجب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾.

وثالثها: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286]،

ذلك إشارة إلى كمال رحمته ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ورابعها ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ [البقرة: 286] لأنك أنت المالك للقضاء

والحكومة في يوم الدين ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وخامسها: ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا﴾ [البقرة: 286] لأننا التجأنا بكليتنا إليك

وتوكلنا في جميع الأمور عليك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وسادسها ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ [البقرة: 286] لأننا طلبنا الهداية منك

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وسابعها ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

[البقرة: 286] ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

الضَّالِّينَ﴾ .

فهذه المراتب ذكرها سيدنا محمد ﷺ في عالم الروحانيات عند صعوده إلى المعراج، فلما نزل من المعراج فاض أثر المصدر على المظهر فوقع التعبير عنها بسورة الفاتحة، فمن قرأها في صلاته صعدت هذه الأنوار من المظهر إلى المصدر كما نزلت في عهد الرسول ﷺ من المصدر إلى المظهر، ولهذا السبب قالوا: الصلاة معراج المؤمن .

المنهج الثاني: المداخل التي يأتي الشيطان من قبلها في الأصل ثلاثة: الشهوة والغضب والهوى . الشهوة بهيمية، والغضب سبعية، والهوى شيطانية أرضية، ولهذا قال: فالشهوة آفة لكن الغضب أعظم منها، والغضب آفة لكن الهوى أعظم منه، قال تعالى ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ [النحل: 9] أي الشهوة، والمنكر الغضب، والبغي الهوى، فالشهوة يصير الإنسان ظالماً لنفسه، وبالغضب ظالماً لغيره، وبالهوى لربه، ولهذا قال ﷺ: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يتركه الله عزَّ وجلَّ، وظلم يُغفر، وظلم لا يغفر، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك لا يغفره الله عزَّ وجلَّ، وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد فيما بينه وبين ربه عز وجل، وأما الذي لا يُترك فيقص الله بعضهم من بعض» [رواه أبو داود الطيالسي بسند ضعيف] .

ونتيجة الشهوة الحرص والبخل، ونتيجة الغضب العجب والكبر، ونتيجة الهوى الكفر والبدعة . ويحصل من اجتماع هذه الست في بني

آدم خصلة سابعة هي الحسد، وهو نهاية الأخلاق الذميمة، كما أن الشيطان هو النهاية في الأشخاص المذمومة، ولهذا السبب ختم الله تعالى مجامع الشرور الإنسانية بالحسد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: 5]، كما ختم جوامع الخبائث الشيطانية بالوسوسة في قوله ﴿يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۗ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 5-6].

روي أن إبليس أتى باب فرعون وقرع الباب، فقال فرعون: من هذا؟ قال: إبليس ولو كنت إلهاً ما جهلت. فلما دخل قال فرعون: أتعرف في الأرض شراً مني ومنك؟ قال: نعم، الحاسد، وبالحسد وقعت فيما وقعت.

ثم نقول: الأسماء الثلاثة في التسمية دافعة للأخلاق الثلاثة الأصلية، والآيات السبع التي هي الفاتحة دافعة للأخلاق السبعة، بيان ذلك: من عرف الله تباعد عنه شيطان الهوى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: 23]، يا موسى خالف هواك فإني ما خلقت خلقاً نازعني في ملكي إلا هواك.

ومن عرف أنه رحمن لم يغضب، لأن منشأ الغضب طلب الولاية، والولاية للرحمن، قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: 26]، ومن عرف أنه رحيم صحح نسبه إليه، فلا يظلم نفسه ولا يلطخها بالأفعال البهيمية.

وأما الفاتحة فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقد شكر الله واكتفى بالحاصل فزالت شهوته، ومن عرف أنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ زال حرصه فيما لم يجد وبخله فيما وجد، ومن عرف أنه ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بعد أن عرف أنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ﴾ زال غضبه، ومن قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ زال كبره بالأول وعُجبه بالثاني، وإذا قال ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ اندفع عنه شيطان الهوى، وإذا قال ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ زال عنه كفره، وإذا قال ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ اندفعت بدعته.

وإذا زالت عنه الأخلاق الستة اندفع عنه الحسد، ثم إن جملة القرآن كالتائج والشعب من الفاتحة، وكذا جميع الأخلاق الذميمة كالتائج والشعب من تلك السبعة، فلا جرم القرآن كله كالعلاج لجميع الأخلاق الذميمة.

وهنا نكتة دقيقة تتعلق بالرب والإله وبسببها ختم القرآن عليها، كأنه قال: إن أتاك الشيطان من قبل الشهوة فقل ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وإن أتاك من قبل الغضب فقل ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، وإن أتاك من قبل الهوى فقل ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾.

المنهج الثالث: في أن سورة الفاتحة جامعة لكل ما يفتقر إليه

الإنسان في معرفة المبدأ والوسط والمعاد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى إثبات الصانع المختار العليم الحكيم المستحق للحمد والثناء والتعظيم. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدل على أن ذلك الإله واحد، وأن كل العالمين مُلكه ومملكه، وليس في العالم إله سواه، ولهذا جاء في القرآن الاستدلال بخلق الخلائق كثيراً ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 285] ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 78] ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50] ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 26] ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21] ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: 2-1].

وهذه الحالة كما أنها في نفسها دليل على وجود الرب فكذلك هي في نفسها إنعام عظيم، وذلك أن تولد الأعضاء المختلفة الطبائع والصور من النطفة المتشابهة الأجزاء لا يمكن إلا إذا قصد الخالق إيجاد تلك الأعضاء على تلك الصور والطبائع، وكل منها مطابق للمطلوب وموافق للغرض كما يشهد به علم تشريح الأبدان. فلا أحق بالحمد والثناء من هذا المنعم المنان الكريم ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي شمل إحسانه قبل الموت وعند الموت وبعد الموت.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يدل على أن من لوازم حكمته ورحمته

أن يقدر بعد هذا اليوم يوماً آخر يظهر فيه تمييز المحسن من المسيء والمظلوم من الظالم، وهاهنا تمت معرفة الربوبية.

ثم إن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى الأمور التي لا بد من معرفتها في تقرير العبودية وهي نوعان: الأعمال، والآثار المتفرعة على الأعمال: أما الأعمال فلها ركنان: أحدهما: الإتيان بالعبادة وهو قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والثاني: علمه بأنه لا يمكنه ذلك إلا بإعانة الله وهو قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وأما الآثار المتفرعة على الأعمال فهي حصول الهداية والتحلي بالأخلاق الفاضلة المتوسطة بين الطرفين المستقيمة بين المنحرفين ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الخ، وفي قوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أن الاستضاءة بأنوار أرباب الكمال خلة محمودة وسنة مرضية «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

وفي قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ إشارة إلى أن التجنب عن مرافقة أصحاب البدع والأهواء واجب.

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي عدوى البليد الى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد

المنهج الرابع: قال ﷺ حكاية عن الله عز وجل: «قسمت الصلاة

بيني وبين عبدي نصفين: فإذا قال العبد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

يقول الله: ذكرني عبدي . وإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول الله: حمدني عبدي . وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمِ﴾ يقول الله: عظمني عبدي . وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول الله: مجدني عبدي - وفي رواية فوض إلي عبدي - وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يقول الله: عبدي عبدي، وإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول الله: توكل عليّ عبدي - وفي رواية وإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يقول الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» .

فقوله «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي» إشارة إلى أن أهم مهمات العبد أن يستنير قلبه بمعرفة الربوبية ثم بمعرفة العبودية ، لأنه إنما خلق لرعاية هذا العهد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] ، فلا جرم أنزل الله تعالى هذه السورة جامعة لكل ما يحتاج إليه العبد في الوفاء بذلك العهد .

وقوله «إذا قال العبد: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يقول الله: ذكرني عبدي» مناسب لقوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» والذكر مقام عالٍ شريف ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41] ﴿وَأَذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف:

[205] ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201] ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ

فِيمَا وَقَعُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]، ولهذا وقع الابتداء به .

وقوله «ذكرني عبدي» دل على أن ذاته المخصوصة صارت مذكورة

بقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، وهذا يدل على أن الله اسم علم .

وقوله «إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول الله: حمدني

عبدي» يدل على أن مقام الحمد أعلى من مقام الذكر لأنه أول كلام

في أول خلق العالم حيث قالت الملائكة: ﴿وَمَنْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30] ، وآخر كلام في الجنة ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10] ، ولأن الفكر في ذات الله

تعالى غير ممكن: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» [رواه الطبراني

والبيهقي] وكل من تفكر في مخلوقاته ومصنوعاته كان وقوفه على رحمته

وفضله وإحسانه أكثر، فيحمد الله تعالى أكثر، فقوله «حمدني عبدي»

شهادة من الله تعالى على وقوف العبد بعقله وفكره على وجوه

فضله وإنعامه في ترتيب العالم وتربية العالمين ، وأنه أقر بقلبه ولسانه

بكرمه وإحسانه .

قوله «وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يقول الله: عظمني عبدي» يدل

ذلك على أن الإله الكامل المكمل المنزه عن الشريك والنظير والمثل

والند وال ضد ، هو في غاية الرحمة والفضل والكرم مع عباده . ولا شك

أن غاية ما يصل العقل والفهم والوهم إليه من تصور معنى الكمال

والجلال ليس إلا هذا المقام وهو التعظيم لله .

وقوله «وإذا قال: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يقول الله: مجدني عبدي»
أي زهني وقدسني عن الظلم وعن شبهة الظلم حيث قضيت معاداً
يحشر إليه العباد ويقضي فيه بين الظالم والمظلوم والقوي والضعيف .

أيحسب الظالم في ظلمه أهمله القادر أم أهلاً
ما أهملوه بل لهم موعد لن يجدوا من دونه مؤثلاً

وقوله «وإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله:
هذا بيني وبين عبدي» معناه أن «إياك نعبد» يدل على إقدام العبد على
الطاعة والعبادة ولا يتم ذلك إلا بإعانة الله بخلق داعية فيه خالصة عن
المعارض ، فإن العبد غير مستقل بالإتيان بذلك العمل فهو المراد من
قوله «وإياك نستعين» .

وقوله «وإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يقول الله: هذا
لعبدي ولعبدي ما سألت» تقريره أن أهل العلم مختلفون بالنفي والإثبات
في جميع المسائل الإلهية أو أكثرها ، وفي المعاد والنبوات وغيرها مع
استواء الكل في العقل والنظر . فالاهتداء إلى ما هو الحق في الأمر نفسه
ليس إلا بهداية الله تعالى وإرشاده كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا
عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: 32] وقال إبراهيم عليه السلام ﴿لِيُنزِلَ
يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: 77] وقال موسى
﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: 25، 26] .

* لطيفة: إن من أسماء رسول الله ﷺ سوى اسمه «محمد وأحمد»: الحامد والمحمود على ما جاء في الروايات، وكلها تدل على الرحمة، لأن الحمد يتضمن النعمة فقال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: 49]، فقوله: «نبي» إشارة إلى «محمد» وهو مذكور «قل لعبادي»، والياء في قوله «عبادي» ضمير الله سبحانه. وكذا في «أني» و«أنا» و«الغفور» و«الرحيم» صفتان لله، فالعبد يمشي يوم القيامة وقدامه الرسول ﷺ مع خمسة أسماء تدل على الرحمة، وخلفه خمسة ألفاظ من أسماء الله تعالى تدل على الرحمة، ورحمة الرسول كثيرة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، ورحمة الله تعالى غير متناهية ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، فكيف يضع المذنب فيما بين هذه الأصناف من الرحمة؟!.

* لطيفة: في الفاتحة عشرة أشياء، خمسة من صفات الربوبية: الله الرب الرحمن الرحيم المالك، وخمسة من صفات العبودية: العبادة، الاستعانة، طلب الهداية، طلب الاستقامة، طلب النعمة في قوله «أنعمت عليهم»، وكأنه قيل: «إياك نعبد» لأنك أنت الله، «وإياك نستعين» يا رب اهدنا يا رحمن، وارزقنا الاستقامة يا رحيم، وأفضل علينا سجال فضلك يا مالك.

* لطيفة: الإنسان مركب من خمسة أشياء: بدن، ونفس شيطانية، ونفس سبعية، ونفس بهيمية، وجوهر ملكي عقلي. فتجلى اسم الله للجوهر الملكي فاطمأن إليه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

[28]، وتجلى للنفس الشيطانية باسم الرب فلانَ وانقاد لطاعة الديان ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: 97]، وتجلى للنفس السبعية باسم الرحمن وهو مركب من القهر واللفظ ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ أَحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: 26] فترك الخصومة والعدوان، وتجلى للنفس البهيمية باسم الرحيم ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: 4] فترك العصيان، وتجلى للأبدان بصفة القهر والمالكية لأن البدن غليظ كثيف فيحتاج إلى قهر شديد ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16] فدان . فلمكان هذه التجليات انغلقت له أبواب النيران وفتحت عليه أبواب الجنان ورجع القهقري كما جاء، فلطاعة الأبدان قال: «إياك نعبد»، ولطاعة النفس البهيمية قال: «وإياك نستعين» على ترك اللذات وارتكاب المنكرات، ولطاعة النفس السبعية قال: «اهدنا وأرشدنا وعلى دينك ثبتنا»، ولطاعة النفس الشيطانية طلب الاستقامة فقال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ولجوهره العقلي الملكي طلب مرافقة الأرواح المقدسة لا المدنسة فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ .

* لطيفة: بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. فشهادة أن لا إله إلا الله من تجلي نور اسم الله، وإقام الصلاة

من تجلي نور اسم الرب لأن الرب من التربية ، والعبد يربي إيمانه بمدد الصلاة ، وإيتاء الزكاة من تجلي اسم الرحمن لأن الزكاة سببها الرحمة على الفقراء ، وصوم رمضان من تجلي اسم الرحيم لأن الصائم إذا جاع يذكر جوع الفقراء فيعطيههم . يحكى أن يوسف حين تمكن من مصر كان لا يشبع فقيل له في ذلك ؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجيعاء .

لطفة أخرى: في الفاتحة كلمتان مضافتان إلى اسم الله «بسم الله» و«الحمد لله» بسم الله لبداية الأمور والحمد لله لخواتيم الأمور ، «بسم الله» ذكر «والحمد لله» شكر ، بسم الله أستحق الرحمة رحمن الدنيا ، وبالحمد لله أستحق رحمة أخرى رحيم الآخرة . كلمتان أضيف إليهما اسمان لله «رب العالمين» «مالك يوم الدين» فالربوبية لبداية حالهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172] والملك لنهاية حالهم ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16] وبينهما اسمان مطلقان لوسط حالهم «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» .

المنهج الخامس: للخلق خمس أحوال:

أولها: الإيجاد والتكوين والإبداع ويدل عليه اسم الله .
وثانيها: التربية في مصالح الدنيا ويدل عليها اسم الرب .
وثالثها: التربية في معرفة المبدأ ويدل عليها اسم الرحمن .
ورابعها: في معرفة المعاد ويدل عليها اسم الرحيم ، كي يقدم على ما ينبغي ويحجم عما لا ينبغي .

وخامسها: نقل الأرواح من عالم الأجساد إلى المعاد ويدل عليه اسم ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، ثم إن العبد إذا انتفع بهذه الأسماء صار من أهل المشاهدة فقال: «إياك نعبد» لأنك أنت الله الخالق «وإياك نستعين» لأنك أنت الرب الرازق ، «إياك نعبد» لأنك الرحمن «وإياك نستعين» لأنك الرحيم ، «إياك نعبد» لأنك الملك «وإياك نستعين» لأنك المالك ، «إياك نعبد» لأننا ننتقل من دار الشرور إلى دار السرور ولا بد من زاد وخير الزاد العبادة ، «وإياك نستعين» لأن الذي نكتسب بقوتنا وقدرتنا لا يكفيننا ، فإن السفر طويل والزاد قليل .

ثم إذا حصل الزاد بإعانتك فالشقة شاسعة والطرق كثيرة ، فلا طريق إلا أن يطلب الطريق ممن هو بإرشاد السالكين حقيق ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، ثم إنه لا بد لسالك الطريق الطويل من رفيق ودليل ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فالأنبياء أدلاء والصديقون والشهداء والصالحون رفقاء ، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ لأن الحجب قسمان: نارية وهي الدنيا بما فيها ، ونورية وهي ما سواها . اللهم ادفع عنا كل ما يحجب بينك وبيننا إنك رب العالمين ومالك يوم الدين . اهـ .

من لطائف هذه السورة

1 - اعلم أن الإنسان خلق محتاجاً إلى جرّ الخيرات واللذات ، ودفع المكروهات والمخافات ، ثم إن هذا العالم عالم الأسباب ، فلا

يمكنه تحصيل الخيرات واللذات إلا بواسطة أسباب معينة، ولا يمكنه دفع الآفات والمخافات إلا بواسطة أسباب معينة.

ولما كان جلب النفع ودفع الضرر محبوباً بالذات، وكان استقراء أحوال هذا العالم يدل على أنه لا يمكن تحصيل الخير ولا دفع الشر إلا بتلك الأسباب المعينة، ثم لما تقرّر في العقول أن ما لا يمكن الوصول إلى المحبوب إلا بواسطة فهو محبوب، صار هذا المعنى سبباً لوقوع الحب الشديد لهذه الأسباب الظاهرة.

وإذا علم أنه لا يمكنه الوصول إلى الخيرات واللذات إلا بواسطة خدمة الأمير والوزير والأعوان والأنصار بقي الإنسان متعلّق القلب بهذه الأشياء، شديد الحب لها، عظيم الميل والرغبة إليها.

ثم قد ثبت في العلوم الحكمية أن كثرة الأفعال سبب لحدوث الملكات الراسخة، وثبت أيضاً أن حب التشبه غالب على طباع الخلق.

أما الأول فكل من واطب على صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف مدةً مديدةً صارت تلك الحرفة والصناعة ملكة راسخة قوية، وكلما كانت المواظبة عليها أكثر كانت الملكة أقوى وأرسخ.

وأما الثاني فهو أن الإنسان إذا جالس الفساق مال طبعه إلى الفسق، وما ذاك إلا لأن الأرواح جُبلت على حب المحاكاة.

وإذا عرفت هذا فنقول: إنّنا بيّنا أن استقراء حال الدنيا يُوجب تعلق القلب بهذه الأسباب الظاهرة التي بها يمكن التوصل إلى جرّ المنافع

ودفع المضار، وبيّننا أنه كلما كانت مواظبة الإنسان عليها أكثر كان استحكام هذا الميل والطلب في قلبه أقوى وأثبت، وأيضاً فأكثر أهل الدنيا موصوفون بهذه الصفة مواظبون على هذه الحالة. وبيّننا أن النفوس مجبولة على حب المحاكاة، وذلك أيضاً يوجب استحكام هذه الحالة.

فقد ظهر بالبيّنات التي ذكرناها أن الأسباب الموجبة لحبّ الدنيا والمرغبة في التعلق بأسبابها كثيرة قوية شديدة جداً، ثم نقول: إنه إذا اتفق للإنسان هداية إلهية تهديه إلى سواء السبيل وقع في قلبه أن يتأمل في هذه الأسباب تأملاً شافياً وافيّاً، فيقول: هذا الأمير المستولي على هذا العالم استولى على الدنيا بفطرته وكمال حكمته أم لا؟

الأول باطل، لأن ذلك الأمير ربما كان أكثر الناس عجزاً، وأقلهم عقلاً، فعند هذا، يظهر له أن تلك الإمارة والرياسة ما حصلت له بقوته، وما هيئت له بسبب حكمته، وإنما حصلت تلك الإمارة والرياسة لأجل قسمة قسّام وقضاء حكيم علام لا دافع لحكمه ولا مردّ لقضائه.

ثم ينضم إلى هذا النوع من الاعتبار أنواع أخرى من الاعتبارات تعاضدها وتقويها، فعند حصول هذه المكاشفة ينقطع قلبه عن الأسباب الظاهرة، وينتقل منها إلى الرجوع في كل المهمات والمطلوبات إلى مسبب الأسباب ومفتّح الأبواب، ثم إذا توالى هذه الاعتبارات وتواترت هذه المكاشفات صار الإنسان بحيث كلما وصل إليه نفع وخير قال: هو النافع، وكلما وصل إليه شر ومكروه قال: هو الضارّ، وعند هذا لا يحمد أحداً على فعل إلا الله، ولا يتوجه قلبه في طلب أمر من الأمور

إلا إلى الله ، فيصير الحمد كله لله والثناء كله لله ، فعند هذا يقول العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .

2 - واعلم أن الاستقراء المذكور يدل العبد على أن أحوال هذا العالم لا تنتظم إلا بتقدير الله ، ثم يترقى من العالم الصغير إلى العالم الكبير فيعلم أنه لا تنتظم حالة من أحوال العالم الأكبر إلا بتقدير الله ، وذلك هو قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ثم إن العبد يتأمل في أحوال العالم الأعلى فيشاهد أن أحوال العالمين منظومة على الوصف الأتقن والترتيب الأقوم والكمال الأعلى والمنهج الأسنى ، فيرى الذرات ناطقة بالإقرار بكمال رحمته وفضله وإحسانه ، فعند ذلك يقول: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، فعند هذا يظهر للعبد أن جميع مصالحة في الدنيا إنما تهيات برحمة الله وفضله وإحسانه .

ثم يبقى العبد متعلق القلب بسبب أنه كيف يكون حاله بعد الموت ؟ فكأنه يقال: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ، ليس إلا الذي عرفته بأنه هو «الرحمن الرحيم» ، فحينئذ ينشرح صدر العبد وينفسح قلبه ويعلم أن المتكفل بإصلاح مهماته في الدنيا والآخرة ليس إلا الله ، وحينئذ ينقطع التفاته عما سوى الله ، ولا يبقى متعلق القلب بغير الله .

ثم إن العبد حين كان متعلق القلب بالأمر والوزير كان مشغولاً بخدمتهما ، وبعد الفراغ من تلك الخدمة كان يستعين في تحصيل المهمات بهما وكان يطلب الخير منهما ، فعند زوال ذلك التعلق يعلم

أنه لما كان مشغولاً بخدمة الأمير والوزير فلأن يشتغل بخدمة المعبود كان أولى ، فعند هذا يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، والمعنى إني كنت قبل هذا أعبد غيرك ، وأما الآن فلا أعبد أحداً سواك .

ولما كان يستعين في تحصيل المهمات بالأمير والوزير فلأن يستعين بالمعبود الحق في تحصيل المرادات كان أولى ، فيقول: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والمعنى: إني كنت قبل هذا أستعين بغيرك ، وأما الآن فلا أستعين بأحد سواك .

ولما كان يطلب المال والجاه اللذين هما على شفا حفرة الانقراض والانقضاء من الأمير والوزير فلأن يطلب الهداية والمعرفة من رب السماء والأرض أولى ، فيقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

ثم إن أهل الدنيا فريقان: أحدهما: الذين لا يعبدون أحداً إلا الله ، ولا يستعينون إلا بالله ، ولا يطلبون الأغراض والمقاصد إلا من الله . والفرقة الثانية: الذين يخدمون الخلق ويستعينون بهم ويطلبون الخير منهم ، فلا جرم العبد يقول: إلهي اجعلني في زمرة الفرقة الأولى ، وهم الذين أنعمت عليهم بهذه الأنوار الربانية والجلال النورانية ، ولا تجعلني في زمرة الفرقة الثانية ، وهم المغضوب عليهم والضالون ، فإن متابعة هذه الفرقة لا تفيد إلا الخسار والهلاك ، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ ؟ والله أعلم .

3 - العلوم البشرية إما علم ذات الله وصفاته وأفعاله ، وهو علم الأصول ، وإما علم أحكام الله تعالى وتكاليفه ، وهو علم الفروع ، وإما

علم تصفية الباطن وظهور الأنوار الروحانية والمكاشفات الإلهية .
والمقصود من القرآن بيان هذه الأنواع الثلاثة .

وهذه السورة الكريمة مشتملة على تقرير هذه المطالب الثلاثة
على أكمل الوجوه: فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إشارة إلى علم الأصول، لأن الدال على
وجوده وجود مخلوقاته، فقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يجري مجرى الإشارة
إلى أنه لا سبيل إلى معرفة وجوده إلا بكونه رباً للعالمين، وقوله:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى كونه مستحقاً للحمد، ولا يكون مستحقاً
للحمد إلا إذا كان قادراً على كل الممكنات عالماً بكل المعلومات،
ثم وصفه بنهاية الرحمة وهو كونه رحماناً رحيماً، ثم وصفه بكمال
القدرة وهو قوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ حيث لا يُهمل أمر المظلومين،
بل يستوفي حقوقهم من الظالمين، وعند هذا تم الكلام في معرفة
الذات والصفات وهو علم الأصول .

ثم شرع بعده في تقرير علم الفروع، وهو الاشتغال بالخدمة
والعبودية، وهو قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ثم مزجه أيضاً بعلم الأصول مرة
أخرى، وهو أن أداء وظائف العبودية لا يكمل إلا بإعانة الربوبية .

ثم شرع بعده في بيان درجات المكاشفات، وهي على كثرتها
محصورة في أمور ثلاثة: أولها: حصول هداية النور في القلب، وهو

المراد من قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وثانيها: أن يتجلى له درجات الأبرار المطهرين من الذين أنعم الله عليهم بالجلال القديسة والجواذب الإلهية، حتى تصير تلك الأرواح القديسة كالمرايا المجلوة، فينعكس الشعاع من كل واحدة منها إلى الأخرى، وهو قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وثالثها: أن تبقى مصونة معصومة عن أوضاع الشهوات، وهو قوله: ﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهَا﴾ وعن أوزار الشبهات، وهو قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فثبت أن هذه السورة مشتملة على هذه الأسرار العالية التي هي أشرف المطالب، فلهذا السبب سميت بأم الكتاب، كما أن الدماغ يسمى أم الرأس لاشتماله على جميع الحواس والمنافع.

فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يدل على وجود الصانع، وعلى علمه، وقدرته، ورحمته، وكمال حكمته، وعلى كونه مستحقاً للحمد والثناء والتعظيم، فكان قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دالاً على جملة هذه المعاني، وأما قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو يدل على أن ذلك الإله واحد، وأن كل العالمين ملكه، وليس في العالم إله سواه، ولا معبود غيره، وأما قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيدل على أن الإله الواحد الذي لا إله سواه موصوف بكمال الرحمة والكرم والفضل والإحسان قبل الموت وعند

الموت وبعد الموت ، وأما قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيدل على أن من لوازم حكمته ورحمته أن يحصل بعد هذا اليوم يوم آخر يظهر فيه تمييز المحسن عن المسيء، ويظهر فيه الانتصاف للمظلومين من الظالمين ، ولو لم يحصل هذا البعث والحشر لقدح ذلك في كونه رحماناً رحيماً، إذا عرفت هذا ظهر أن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يدل على وجود الصانع المختار، وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدل على وحدانيته ، وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يدل على رحمته في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يدل على كمال حكمته ورحمته بسبب خلق الدار الآخرة.

وأما قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخر السورة فهو إشارة إلى الأمور التي لا بد من معرفتها في تقرير العبودية، وهي محصورة في نوعين: الأعمال التي يأتي بها العبد، والآثار المتفرعة على تلك الأعمال: أما الأعمال التي يأتي بها العبد فلها ركنان: أحدهما: إتيانه بالعبادة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. والثاني: علمه بأنه لا يمكنه الإتيان بها إلا بإعانة الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهاهنا يفتح البحر الواسع في الجبر والقدر. وأما الآثار المتفرعة على تلك الأعمال فهي حصول الهداية

والانكشاف والتجلي ، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

ثم إن أهل العالم ثلاث طوائف: الطائفة الأولى: الكاملون المحقون المخلصون ، وهم الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته ، ومعرفة الخير لأجل العمل به ، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .

والطائفة الثانية: الذين أخلُّوا بالأعمال الصالحة ، وهم الفسقة ، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ .

والطائفة الثالثة: الذين أخلُّوا بالاعتقادات الصحيحة ، وهم أهل البدع والكفر ، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ .

إذا عرفت هذا فنقول: استكمال النفس الإنسانية بالمعارف والعلوم على قسمين: أحدهما: أن يحاول تحصيلها بالفكر والنظر والاستدلال . والثاني: أن تصل إليه محصولات المتقدمين فتستكمل نفسه .

فقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إشارة إلى القسم الأول ، وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى القسم الثاني ، ثم في هذا القسم طلب أن يكون اقتداؤه بأنوار عقول الطائفة المحقة الذين جمعوا بين العقائد الصحيحة والأعمال الصائبة ، وتبرأ من أن يكون اقتداؤه بطائفة الذين أخلُّوا بالأعمال الصحيحة ، وهم المغضوب عليهم ، أو بطائفة الذين أخلُّوا بالعقائد الصحيحة ، وهم الضالون ، وهذا آخر السورة ، وعند الوقوف على ما لخصناه يظهر أن هذه السورة جامعة

لجميع المقامات المعتبرة في معرفة الربوبية ومعرفة العبودية .

4 - من فوائد هذا الخبر أن آيات الفاتحة سبع ، والأعمال المحسوسة أيضاً في الصلاة سبعة ، وهي: القيام ، والركوع ، والانتصاب ، والسجود الأول ، والانتصاب فيه ، والسجود الثاني ، والقعدة ، فصار عدد آيات الفاتحة مساوياً لعدد هذه الأعمال ، فصارت هذه الأعمال كالشخص ، والفاتحة لها كالروح ، والكمال إنما يحصل عند اتصال الروح بالجسد .

فقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بإزاء القيام ، ألا ترى أن الباء في «بسم الله» لما اتصل باسم الله بقي قائماً مرتفعاً ، وأيضاً فالتسمية لبداية الأمور ، قال عليه الصلاة والسلام: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبت» [أخرجه الخطيب البغدادي] ، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [١٤] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ [الأعلى: 14 ، 15] ، وأيضاً القيام لبداية الأعمال ، فحصلت المناسبة بين التسمية وبين القيام من هذه الوجوه .

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بإزاء الركوع ، وذلك لأن العبد في مقام التحميد ناظر إلى الحق وإلى الخلق ؛ لأن التحميد عبارة عن الثناء عليه بسبب الإنعام الصادر منه ، والعبد في هذا المقام ناظر إلى المنعم وإلى النعمة ، فهو حالة متوسطة بين الإعراض وبين الاستغراق ، والركوع حالة متوسطة بين القيام وبين السجود ، وأيضاً الحمد يدل على النعم الكثيرة ، والنعم الكثيرة مما تثقل ظهره ، فينحني ظهره للركوع .

وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مناسب للانتصاب، لأن العبد لما تضرع إلى الله في الركوع فيليق برحمته أن يرده إلى الانتصاب.

وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ مناسب للسجدة الأولى: لأن قولك ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يدل على كمال القهر والجلال والكبرياء، وذلك يوجب الخوف الشديد، فيليق به الإتيان بغاية الخضوع والخشوع، وهو السجدة.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مناسب للقعدة بين السجدين، لأن قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخبار عن السجدة التي تقدمت، وقوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استعانة بالله في أن يوفقه للسجدة الثانية.

وأما قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فهو سؤال لأهم الأشياء، فيليق به السجدة الثانية الدالة على نهاية الخضوع.

وأما قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إِنْخ، فهو مناسب للقعدة، وذلك لأن العبد لما أتى بغاية التواضع قابل الله تواضعه بالإكرام، وهو أن أمره بالعودة بين يديه، وذلك إنعام عظيم من الله على العبد، فهو شديد المناسبة لقوله ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وأيضا أن محمداً ﷺ لما أنعم الله عليه بأن رفعه إلى قاب قوسين قال عند ذلك: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله»، والصلوة معراج المؤمن، فلما وصل المؤمن

في معراجه إلى غاية الإكرام وهي أن جلس بين يدي الله ووجب أن يقرأ الكلمات التي ذكرها محمد عليه السلام، فهو أيضاً يقرأ التحيات، ويصير هذا كالتنبيه على أن هذا المعراج الذي حصل له شعلة من شمس معراج محمد ﷺ وقطرة من بحره، وهو تحقيق قوله: ﴿فَأُوَلِّتِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: 69] الآية .

5 - واعلم أن آيات الفاتحة وهي سبع صارت كالروح لهذه الأعمال السبعة، وهذه الأعمال السبعة صارت كالروح للمراتب السبعة المذكورة في خلقه الإنسان، وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12] إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]، وعند هذا ينكشف أن مراتب الأجساد كثيرة، ومراتب الأرواح كثيرة، وروح الأرواح ونور الأنوار هو الله تعالى، كما قال سبحانه وتعالى .

6 - قال في الإحياء: إذا قلت: ﴿سِرُّ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فافهم أن الأمور كلها بالله، وأن المراد هاهنا المُسَمَّى، وإذا كانت الأمور كلها بالله فلا جرم أن الحمد كله لله، وإذا قلت: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فأحضر في قلبك أنواع لطفه لتفتح لك رحمته فينبعث به رجاءك، ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف من قولك: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ثم جدّد الإخلاص بقولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وجدّد العجز والاحتياج

والتبرّي من الحول والقوة بقولك: ﴿وَأَيَّكَ نَسْتَعِيبُ﴾، ثم اطلب اسم حاجتك، وقل: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي يسوقنا إلى جوارك ويُفضي بنا إلى مرضاتك، وزدّه شرحاً وتفصيلاً وتأكيذاً، واستشهد بالذين أفاض عليهم نعم الهداية من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين واليهود والنصارى والصابئين. اهـ ملخصاً.

7 - كأنّ العبد يقول: سمعت رسولك يقول: «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب» [رواه عبد الله في زوائد المسند]، فلما أردتُ تحميدك ذكرت حمدَ الجميع فقلت: الحمد لله، ولما ذكرتُ العبادة ذكرت عبادة الجميع فقلت: «إياك نعبد»، ولما ذكرت الاستعانة ذكرت استعانة الجميع فقلت: «وإياك نستعين»، فلا جرم لَمَّا طلبت الهداية طلبتها للجميع فقلت: <اهدنا الصراط المستقيم>، ولَمَّا طلبت الاقتداء بالصالحين طلبت الاقتداء بالجميع فقلت: «صراط الذين أنعمت عليهم»، ولما طلبت الفرار من المردودين فررت من الكل فقلت: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين»، فلما لم أفارق الأنبياء والصالحين في الدنيا، فأرجو ألا أفارقهم في القيامة، قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: 69] الآية.

8 - قدّم الحمد والثناء على الدعاء لأن تلك السُنّة في الدعاء،

وشأن الطلب أن يأتي بعد المدح ، وذلك أقرب للإجابة ، وكذلك قدّم «الرحمن» على «ملك يوم الدين» لأن رحمة الله سبقت غضبه ، وكذلك قدم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أولى .

9 - ثم لما قرّر أمر الربوبية بهذا الطريق أمره بثلاثة أشياء:

أولها: مقام الشريعة ، وهو أن يواظب على الأعمال الظاهرة ، وهو

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

وثانيها: مقام الطريقة ، وهو أن يحاول السفر من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، فيرى عالم الشهادة كالمسخر لعالم الغيب ، فيعلم أنه لا يتيسر له شيء من الأعمال الظاهرة إلا بمدد يصل إليه من عالم الغيب ،

وهو قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

وثالثها: أنه يشاهد عالم الشهادة معزولاً بالكلية ، ويكون الأمر

كله لله ، وحينئذ يقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

ثم إن هاهنا دقيقة ، وهي أن الروح الواحد يكون أضعف قوة من الأرواح الكثيرة المجتمعة على تحصيل مطلوب واحد ، فحينئذ علم العبد أن روحه وحده لا يكفي في طلب هذا المقصود ، فعند هذا أدخل روحه في زمرة الأرواح المقدسة المطهرة المتوجهة إلى طلب المكاشفات الروحانية والأنوار الربانية ، حتى إذا اتصل بها وانخرط في سلكها صار الطلب أقوى والاستعداد أتم ، فحينئذ يفوز في تلك

الجمعية بما لا يقدر على الفوز به حال الوحدة، فلهذا قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ثم لما بين أن الاتصال بالأرواح المطهرة يوجب مزيد القوة والاستعداد؛ بيّن أيضاً أن الاتصال بالأرواح الخبيثة يوجب الخيبة والخسران والخذلان والحرمان، فلهذا قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم الفساق ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ وهم الكفار.

ولما تمت هذه الدرجات الثلاث وكملت هذه المقامات الثلاثة أعني الشريعة المدلول عليها بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والطريقة المدلول عليها بقوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والحقيقة المدلول عليها بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ثم لما حصل الاستعداد بالاتصال بأرباب الصفاء والاستكمال بسبب المباحة عن أرباب الجفاء والشقاء، فعند هذا كملت المعارج البشرية والكمالات الإنسانية.

*** **

ملخص في التفسير الإشاري لسورة الفاتحة مما ورد على السنة أهل التصوف والعرفان

قيل: إنها سميت فاتحة الكتاب لأنه فتح بها عليك فاتحته ولذيذ مناجاته، فكانت فاتحة لكل خير.

وقيل أيضاً: فاتحة الكتاب هي أوائل ما فتحنا لك من خطابنا، فإن تَأَدَّبْتَ وإلا حُرِّمَتْ لطائف ما بعده.

قال أبو القاسم الحكيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى المودة بدءاً.

وحكي عن العباس بن عطاء أنه قال: الباء برُّه لأرواح الأنبياء بالهام الرسالة والنبوة، والسين سرُّه مع أهل المعرفة بالهام القربة والأنس، والميم مننُّه على المريدين بدوام نظره إليهم بعين الشفقة والرحمة.

وقال الجنيد: بسم الله هيئته، وفي الرحمن عونه، وفي الرحيم مودته ومحبتة.

وقيل: الباء في بسم الله: بالله ظهرت الأنبياء، وبه فنيت، وبتجليه حسنت المحاسن، وباستنارته فتحت وسمحت.

وحكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال: إن أهل المعرفة نفوا عن قلوبهم كل شيء سوى الله عز وجل، وصفوا قلوبهم لله، وكان أول ما وهب الله تعالى لهم فناهم عن كل شيء سوى الله.

وقيل: بسم الله إلينا فانتسبوا، ودعوا انتسابكم إلى آدم عليه

السلام.

وقيل أيضاً: إن بسم لبقاء هياكل الخلق فلو افتتح كتابه باسمه لذابت تحت حقيقتها الخلائق إلا من كان من نبي أو ولي، والاسم بنور نعيم الحق على قلوب أهل معرفته.

وقيل: بسم الله: إنه صفات أهل الحقيقة لئلا يتزينوا إلا بالحق، ولا يقسموا إلا به.

وقال أبو بكر بن طاهر: الباء سر الله بالعارفين، والسين السلام عليهم، والميم محبته لهم.

وقال بعضهم: الباء بهاؤه، والسين سناؤه، والميم مجده.

وعن جعفر بن محمد عليه السلام قال: «بسم» الباء بقاؤه، والسين أسماؤه، والميم ملكه، فإيمان المؤمن ذكره ببقائه، وخدمة المريد ذكره بأسمائه، والعارف انشغاله عن المملكة بالمالك لها.

وقال أيضاً: بسم ثلاثة أحرف: باء وسين وميم، فالباء باب النبوة، والسين سر النبوة الذي أسر النبي ﷺ به إلى خواص أمته، والميم مملكة الدين الذي أنعم به للأبيض والأسود.

وأما «الله»: قال الواسطي: ما دعا الله أحد باسم من أسمائه إلا ولنفسه في ذلك نصيب، إلا قوله «الله» فإن هذا الاسم يدعوه إلى الوجدانية وليس للنقص فيه نصيب.

وقيل: كل أسمائه تقتضي عوضاً عند الدعاء إلا «الله» فإنه اسم تفرّد الحق به.

وقيل: كل من قال «الله» عن حضور غيب عن شاهده، وقام

الحق بتوليته عنه عند ذاك ، وزالت العيوب والزلل .

وقال الحسين الحلاج: «بسم الله» منك منزلة «كن» منه ، فإذا أحسنت أن تقول: بسم الله ، وأدركت فيه فضل الله عليك أن تقول: «الله» وأنت بعيد من الغفلة والحيرة تحققت الأشياء بقولك: «بسم الله» كما يتحقق له: كن .

وحكي عن الشبلي أنه قال: ما قال «الله» أحد سوى الله ، فإن كل من قاله قاله بحظ ، وأنى يدرك الحقائق أصحاب الحظوظ ؟

وقال أبو سعيد الخراز: ومنهم من جاوز نسيان حظوظ نفسه فوقع في نسيان حظه من الله ونسيان حاجته إلى الله فهو يقول: لا أريد ، وما أنا؟ ومن أين أنا؟ ضاع اسمي فلا اسم لي ، وجهلت فلا علم لي ، وضللت فلا جهل لي ، وأساق إلى من يعرف يقول فيساعدني فيما أقول ، وإذا قيل لأحدهم: ما تريد؟ قال: الله ، وما تقول؟ قال: الله ، وما علمت؟ قال: الله ، فلو تكلمت جوارحه لقات: الله ، وأعضاؤه ومفاصله ممتلئة من نور الله المخزون عنده ، ثم يصيرون في القرب إلى غاية لا يقدر أحد منهم أن يقول: الله ، لأنه ورد في الحقيقة على الحقيقة ، ومن الله على الله ، ولا حيرة ، ومعناه لا حيرة فيما فيه الحيرة .

وقيل: إن الألف الأول من اسمه الله ابتداءه ، واللام الأول لام المعرفة ، واللام الثاني لام الآلاء والنعماء ، والسطر الذي بين اللامين معاني مخاطبات الأمر والنهي ، والهاء نهاية ما تكن العباد عنه من الحقيقة لا غير .

وقيل: إن الألف آلاء الله ، واللام لطف الله ، واللام الثاني لقاء

الله، والهاء هيبة بآلاء الله، فوله به المحبون والمشتاقون حين عجزوا عن علم شيء عنه.

وحكي أن أبا الحسين النوري بقي في منزله سبعة أيام لم يأكل ولم ينم ولم يشرب، ويقول في ولهه ودهشه: الله الله. وهو قائم يدور فأخبر الجنيد بذلك فقال: انظروا أمحفوظ عليه أوقاته أم لا؟ فقيل: إنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلاً، ثم قال: قوموا حتى نزوره إما نستفيد منه أو نفيده، فدخل عليه وهو في ولهه فقال: يا أبا الحسين ما الذي دهاك؟ قال: أقول: الله الله، فقال له الجنيد: انظر هل قولك: الله الله قولك أم قوله؟ إن كنت القائل: الله فالله فلست القائل له، وإن كنت تقوله بنفسك فأنت مع نفسك، فما معنى الوله؟ فقال: نعم، فسكن عن ولهه.

وقيل: الله هو المانع الذي يمنع الوصول إليه، لما امتنع هذا الاسم عن الوصول إليه حقيقة كانت اللذات أشد امتناعاً، لعجزهم في إظهار اسم الله، ليعلموا بذلك عجزهم عن ذكر ذاته.

وقيل: «الله» الألف إشارة إلى الوجدانية، واللام الأولى إشارة إلى محو الإشارة، واللام الثانية إشارة إلى محو المحو في كشف الهاء.

وقيل: إن الإشارة في الألف: هو قيام الحق بنفسه، وانفصاله عن جميع خلقه، ولا اتصال له بشيء من خلقه، كامتناع الألف أن يتصل بشيء من الحروف ابتداء، بل تتصل الحروف به على حد الاحتياج إليه واستغنائه عنها.

وقيل: إنه ليس من أسماء الله عز وجل اسم يبقى على إسقاط كل حرف منه اسم الله إلا «الله»، فإذا أسقطت منه الألف يكون «الله»، فإذا أسقطت إحدى لاميه يكون «له»، فإذا أسقطت اللامين بقيت «الهاء» وهو غاية الإشارات.

وأما وَلَهُ الخلق في توليهم فمنهم: من وَلَهُ سره في عظمة جلاله، ومنهم: من وله قلبه في وجوه معرفته، ومنهم: من وله لسانه بدوام ذكره.

وحكي عن ابن الشبلي قال في ولهه: الله، فقال له الجنيد: يا أبا بكر الغيبة حرام، أي أن ذكر الغائب غيبة، فإن كنت غائباً فالذكر غيبة، وإن كنت تذكره عن مشاهدة فهو ترك الحرمة.

وقيل: من قال «الله» بالحروف فإنه لم يقل: الله، لأنه خارج عن الحروف والخصوص والأوهام، ولكن رضي منك بذلك لأنه لا سبيل إلى توحيده من حيث لا حال ولا قال.

وقيل: إن معنى قول «الله»: إن الأسماء كلها داخلة في هذا الاسم وخارجة منه، يخرج من هذا الاسم معنى الأسماء كلها، ولا يخرج هذا الاسم من اسم سواه، وذلك أن الله عز وجل تفرد به الاسم دون خلقه، وشارك خلقه في اشتقاقات أساميته.

وقال أبو العباس بن عطاء: قوله: «الله» هو إظهار هيئته وكبريائه. وكتب أبو سعيد الخراز إلى بعض إخوانه: هل هو إلا الله؟ وهل

يقدر أحد أن يقول: الله، إلا الله؟ وهل يرى الله إلا الله؟ وهل عرف الله أو يعرفه إلا الله؟ وهل كان قبل العبد وقبل الخلق إلا الله؟ وهل الآن في السموات وفي الأرضين وما بينهما إلا الله؟ إذ لم تكونوا فكونوا بالله والله.

وقال أبو سعيد الخراز أيضاً: رأيت حكيماً من الحكماء فقلت له: ما غاية هذا الأمر؟ قال: الله، قلت: فما معنى قولك: الله؟ قال: اللهم دلني عليك، وثبتني عند وجودك، ولا تجعلني ممن يرضى بجميع ما عدا ذلك عوضاً، وأقر قراري عند لقاءك.

وقال أبو سعيد أيضاً: إن الله عز وجل أول ما دعا عباده دعاهم إلى كلمة واحدة، فمن فهمها فقد فهم ما وراءها، وهي قوله «الله» ألا تراه يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ﴾؟ فتم به الكلام لأهل الحقائق، ثم زاد بياناً للخاص فقال: ﴿أَحَدٌ﴾، ثم زاد بياناً للأولياء فقال: ﴿الصَّكْمُ﴾، ثم زاد بياناً للعوام فقال: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٢) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، فأهل الحقائق استغنوا باسمه «الله»، وهذه الزيادات لمن نزلت مرتبته عن مراتبهم.

وقيل: إن كل أسمائه قابلة لأن يتخلق بها العبد، إلا قوله «الله» فإنما هو للتعليق دون التخلق.

وعن جعفر أنه قال: «الله» اسم تام لأنه أربعة أحرف: الألف وهي عمود التوحيد، واللام الأول لوح القلم، واللام الثاني لوح النبوة، والهاء النهاية في الإشارة، والله هو الاسم المتفرد لا يضاف إلى شيء

بل تضاف الأشياء كلها إليه، وتفسيره: المعبود الذي هو إله الخلق منزه عن درك ماهيته، والإحاطة بكيفيته، وهو المستور عن الأبصار والأفهام، والمحتجب بجلاله عن الإدراك.

﴿ قوله تعالى: «الرحمن»: ﴾

باسم الرحمن خرجت جميع الكرامات للمؤمنين مثل الإيمان والطاعات والولاية والعصمة وسائر المنز وكل نعمة تدوم، ولا يستحق أحد من المخلوقين هذا الاسم لأن المخلوق عاجز عن إعطاء شيء لأحد يدوم ويبقى.

وأيضاً: فإن رحمة الرحمانية للمريدين بها ينفصلون عما دون الرحمن، ولما عمت رحمته في العاجلة على الولي والعدو في معاشهم وأرزاقهم وغير ذلك كان رحماناً.

وقيل: في اسمه «الرحمن» حلاوة المنة ومشاهدة القربة ومحافظة الخدمة.

وقيل: إن المحبين يتنعمون بأسرارهم في رياض معاني اسمه «الرحمن» فيجتنون منها ثمرة الأنس ويشربون منها ماء القربة ويتنعمون على ضفاف أنهار القدس ويرجعون منها بروية الآلاء والنعماء، والخائفون: يتلذذون في قلوبهم في معاني اسمه «الرحمن»، ويتزودون منها حلاوة السكون والأمن، والتائبون يتروحون بأسرارهم في معاني اسمه «الرحمن» فيرجعون منها بصفاء السرّ وطهارة القلب، والعاصون يمرون على ميادين اسمه «الرحمن» فيرجعون منها بالندم والاستغفار.

وقال ابن عطاء: في اسمه «الرحمن» عونُهُ ونصرتَه .
 وقال الواسطي: <الرحمن> لا يتقرب إليه أحد إلا
 بصرف رحمانيته، و«الرحيم» يتقرب إليه بالطاعات لأنه يشارك فيه
 رسول الله ﷺ، وقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .
* قوله تعالى: «الرحيم»:

يقال: إن معنى الرحيم هو ما يخرج من الرحمة الرحيمية لمعاش
 الخلق ومصالح أبدانهم، فلذلك لم يمنعوا أن يتسموا بالرحيم، ومنعوا
 بالتسمية بالرحمن .

وقيل: إن معنى الرحيم: أي بالرحيم وصلتكم إلى الله وإلى
 الرحمن . والرحيم: هو الذي يقبلك بجميع عيوبك إذا أقبلت عليه،
 ويحفظك أتم الحفظ في العاجلة وإن أدبرت عنه، لاستغنائه عنك مقبلاً
 ومدبراً .

قال ابن عطاء: في اسمه «الرحيم» مودته ورحمته .
 وعن جعفر في قوله: <الرحمن الرحيم> قال: هو واقع
 على المريدين والمُرادين، فاسم الرحمن للمرادين لاستغراقهم في
 الأنوار والحقائق، والرحيم للمريدين لبقائهم مع أنفسهم واشتغالهم
 بإصلاح الظواهر، والرحمن المنتهي بكرامته إلى ما لا غاية له، لأنه
 قد أوصل الرحمة بالأزل، وهو غاية الكرامة ومنتهاه بدءاً وعاقبة،
 والرحيم وصل رحمته بالياء والميم، وهو ما يتصل به من رحمة الدنيا
 والهدى والأرزاق .

* قوله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال ابن عطاء: معناه الشكر لله إذا كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه، وقيل: معنى الحمد لله: أي لا حمداً لله إلا بالله، وقيل: «الحمد لله»: أي أنت المحمود لجميع صفاتك وأحوالك.

قال الواسطي: الناس في الحمد على ثلاث درجات: قالت العامة: «الحمد لله» على العادة، وقالت الخاصة: «الحمد لله» شكراً على اللذة، وقالت الآية: الحمد لله الذي لم ينزلنا منزلة استقطعنا النعمة عن شواهد ما أشهدنا الحق من حقه.

وذكر عن جعفر الصادق في قوله «الحمد لله» فقال: من حمده بجميع صفاته كما وصف نفسه فقد حمده لأن الحمد حاء وميم ودال، فالحاء من الوحدانية والميم من الملك والدال من الديمومة، فمن عرفه بالوحدانية والملك والديمومة فقد عرفه.

وقال رجل بين يدي الجنيد رحمه الله: الحمد لله، فقال: أتمها كما قال الله تعالى قل: رب العالمين، فقال الرجل: ومن العالمين حتى يذكر مع الحق؟ فقال: قل يا أخي فإن المحدث إذا قرن بالقديم لا يبقى له أثر.

وذكر عن عطاء أنه قال: «الحمد لله» إقرار المؤمنين بوحدانيته، وإقرار الموحدين بفردانيته، وإقرار العارفين باستحقاق ربوبيته، فالأول إقرار بالإلهية، والثاني إقرار بالربوبية، والثالث إقرار بالتعظيم.

وقيل: الحمد هو الثناء لله، فثناء المؤمنين في قراءة فاتحة الكتاب،

وثناء المريدين بالذكر في الخلوات، وثناء العارفين في الشوق إليه
والأنس به.

وقال الحسن: ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها، والحمد النبي
ﷺ، والمحمود الله تعالى، والحمد العبد، والحمد حاله التي توصل
بالمريد.

وقيل أيضاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن العالمين قبل العالمين،
لعلمه بعجز العالمين عن أداء حمد رب العالمين.

وقيل: هذا رحمة للعالمين بإضافته إياهم إليه أنه ربهم.

وقيل في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: إن الحمد يكون على السراء
والضراء، والشكر لا يكون إلا على النعماء.

وقيل: «الحمد لله» يكون لاستغراق الحامد في النعمة، والشكر
لاستزاده.

وقيل في قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي مُنْطِقَ الْعَالَمِينَ
لحمده.

وذكر عن ابن عطاء في قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي مربي
قلوب العارفين بنور اليقين والتوفيق، وقلوب المؤمنين بالصبر
والإخلاص، وقلوب المريدين بالصدق والوفاء، وقلوب العارفين
بالفكرة والعبرة.

وقيل: <رب العالمين>: أي هو الذي برأ العالمين بين
رحمة الرحمن الرحيم حتى يؤهلهم لتمجيده بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١﴾، أي سبق الحمد مني لنفسي قبل أن يحمدني أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن لعله، وحمد الخلق إياي مشوب بالعلل.

وقيل: «رب العالمين»: أي مُلهمُ العالمين حمده وحده.

وقيل: لما علم عجز عباده عن حمده حمد نفسه بنفسه في الأزل، فاستراح طوق عباده وهو محل العجز عن حمده، وأنى ينازع الحادث القديم؟ ألا ترى سيد المرسلين ﷺ كيف أظهر العجز بقوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»؟ وأنشدوا:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وَحَمَدَ اللهُ نَفْسَهُ بِالْأَزْلِ لَمَا عَلِمَ مِنْ كَثْرَةِ نِعْمِهِ عَلَى عِبَادِهِ
وَعَجْزِهِمْ عَنِ الْقِيَامِ بِوَأَجِبِ حَمْدِهِ، فحمد نفسه عنهم لتكون النعمة
أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل رؤية المنة.

وسئل جعفر بن محمد عن قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: معناه الشكر لله، فهو المنعم بجميع نعمائه على خلقه، وحسن صنيعته، وجميل بلائه، فألف الحمد من الآية وهو الواحد، فبالآية سلم أهل معرفته من سخطه وسوء قضائه، واللام من لطفه وهو الواحد، فبلطفه فهموا حلاوة عطفه وسقاهم كأس سره، والحاء من حمده وهو السابق بحمد نفسه قبل خلقه، فسابق حمده استقرت النعم على خلقه، وقدروا على حمده، والميم من مجده فبجلال مجده زينهم بنور قدسه، والذال من دينه الإسلام فهو السلام ودينه الإسلام وداره السلام وتحيتهم فيها

سلام لأهل السلام في دار السلام .

* قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾:

الرحيم: بالإشراف على أسرار أوليائه والتجلي لأرواح أنبيائه ،
والرحيم: بالعطف على أنفس الخلائق برّهم وفاجرهم يبسط معاشهم
في الدنيا .

وقيل: الرحمن خاص الاسم خاص الفعل ، والرحيم عام الاسم
عام الفعل .

وقيل: الرحمن بالنعمة والرحيم بالعصمة .

وقيل: الرحمن بالتجلي والرحيم بالتولي .

وقيل: الرحمن بكشف الأنوار والرحيم لحفظ ودائع الأسرار .

وقيل: الرحمن بذاته والرحيم في نعوته وصفاته ، وجل الحق أن
يدرك حقيقة أساميه أحد ، لأن أسماءه بلا علة ، وإنما يظهر للخلق
نصيبهم من الأسامي لا حقيقة حقه ، فمن ظن أنه يفسر أساميه
على حقيقة حقه فقد ضلّ ضللاً بعيداً ، لأنه أظهر الأسامي للإثبات
رحمة لخلقه لا إشرافاً على صفاته ونعوته ، قال الله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ
بِهِ عِلْمًا﴾ ، وكيف يُدرك شيءٌ من صفات مَنْ الجهات لا تضمّه ،
والسنان لا تأخذه ، والأوقات لا تداوله ، والترجمة لا تجليه ،
والإشارات لا تدانيه ، لم تلتبس به حال ، ولا ينازعه بال ، لا الصفات
أوجدته ، ولا الأسامي زينته ، بل هو موجد كل موجود ، وخالق كل
موصوف ، جل وتعالى .

وعن جعفر قال: الرحمن الذي يرزق الخلق ظاهراً وباطناً، فرزقُ
الظاهر: الأقوات من المأكولات والمشروبات والعوافي، ورزق الباطن:
العقل والمعرفة والفهم وما ركب فيه من أنواع البدائع كالسمع والبصر
والشم والذوق واللمس والهمة والظن.

*** قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾:**

قال ابن عطاء: مجازي يوم الحساب كلَّ صنف
بمقصودهم وهمتهم، يجازي العارفين بالقرب منه والنظر إلى وجهه
الكريم، ويجازي أرباب المعاملات بالجنات.
وقيل: من حق العبيد إذا شاهدوا مليكهم أن ينسوا المملكة عند
مشاهدة مليكهم.

وقيل: إن العبد لم يزل ولا يزال قلقاً، فكن في الدنيا كما تكون
في الآخرة والهأ حذراً عالماً أنك في ملكه حيثما كنت.
وقيل: ملك يوم الدين: يوم الكشف والإشهاد لتجزى كل نفس
بما تسعى.

وقيل: إنها خمسة أسامي: الله ورب العالمين والرحمن والرحيم
ومالك، فاستدعى الإلهية الوله، والربوبية رؤية المنة، والرحمن رؤية
الشفقة، والرحيم رؤية التعطف، والمالك القطع عن المملكة بالاتصال
بمالكها.

*** قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:**

على ترك زكاتنا، وأيضاً إياك نعبد بالعمل الخالص، أي إياك
نعبد بقطع العلائق والأعواض، وإياك نستعين على الثبات على هذه
الحال، فإننا بك لا بنا.

وأيضاً: إياك نعبد بالإخلاص، وإياك نستعين على المكاشفة
لأسرارنا.

وأيضاً: إياك نعبد بالإرادة، وإياك نستعين عليها بالهمة.

وأيضاً: إياك نعبد بالعلم، وإياك نستعين عليه بالمعرفة.

وأيضاً: إياك نعبد عبادة من يعلم أنه بتوفيقك وتيسيرك قد عبدك،
وبك نستعين على قبولها وتصحيحها من عندك.

وأيضاً: إياك نعبد بأمرك، وإياك نستعين عليها بفضلك.

وأيضاً: إياك نعبد بالدعاوى، وإياك نستعين أن تسقط عنا الدعاوى
تمررنا إلى رياض الحقائق.

وأيضاً: إياك نعبد ظاهراً، وإياك نستعين عليها باطناً، إياك نعبد
فأسقط بإياك عنا رؤية العبادة، وإياك نستعين فأزل عنا بإياك رؤية
الاستعانة.

وأيضاً: إياك نعبد فأهّلنا لعبادتك، وإياك نستعين فلا تحرمنا
معاونتك.

وأيضاً: إياك نعبد فأخلص عبادتنا، وإياك نستعين فأعدنا من رؤية
عبادتنا.

وأيضاً: إياك نعبد على المشاهدة، وإياك نستعين على النازلة.

قال الجنيد: إن الله عز وجل خص قوماً بمعرفة عبوديته فأفردوا له العبودية، ثم أخرجهم عن ذلك فعرفوا أنفسهم وما تولى الله من ذلك لهم، فقالوا: وإياك نستعين على عبادتنا، إذ لا يمكن أداؤها إلا بك، فبك عبدنا كذلك، وبك استعنا على شكر النعمة فيها.

وقال القاسم: إياك نعبد بالتوفيق، وإياك نستعين على شكر ما وفقنا له من عبادتك.

﴿ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾:﴾

قيل: معناه ملِّ بقلوبنا إليك، وأقم بهمنا بين يديك، وكن دليلنا منك إليك، حتى لا ينقطع عما بك لك.

وقيل: اهدنا الصراط المستقيم، أي أرشدنا إلى طرق المعرفة حتى نستقيم معك بخدمتك، فهذا دعاء المريدين في هذه الآية.

وقيل: اهدنا أي أرنا طريق هدايتك كي نستقيم معك على توحيدك، فهذا دعاء المؤمنين.

وقيل: اهدنا أي أرنا طريق أنسك، فنفرح ونطرب بقربك، فهذا دعاء العارفين.

وقيل: اهدنا بك إليك، لنستعين ببدايتك عن وسائط المقامات والمجاهدات.

وقيل: اهدنا بفناء أوصافنا، وسهل لنا الطريق إلى التحلي بأوصافك التي لم تزل ولا تزال.

وقيل: اهدنا بكشف الغفلة عن طريق الوصول إلى رضاك.

وقيل: اهدنا هدى العيان بعد البيان، لنستقيم لك على حب

إرادتك فينا .

وقيل : اهدنا هدى من أنت المتولي لهدايته طريق حقيقة معرفتك ،
لنستقيم لك بفناء أوصافنا فيك .

وقيل : اهدنا هدى من يكون منك مبداه حتى يكون إليك منتهاه .
وقيل : اهدنا أي اكشف عنا ظلمات أحوالنا ، لننظر في خفي
غيبك نظرة الاستقامة .

وقيل : اهدنا بك ولا تشغلنا بموارد الصراط والاستقامة عنك .
وحكي عن أبي عثمان في قوله ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ : أي
أرشدنا لاستعمال السنن في أداء فرائضك .

وحكي عن فضيل بن عياض في قوله ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾
قال : طريق الحج ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ من الأنبياء والأولياء
﴿ غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ غير اليهود والنصارى فإنك
قطعت عليهم طريق الحج بقولك : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ .
وقيل : اهدنا الصراط المستقيم لنستعين بهدايتك على الشيطان ،
فإنه قال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

وقيل : اهدنا الصراط المستقيم وهو الافتقار إليك ، كما قيل لأبي
حفص النيسابوري رحمه الله : بماذا تقدم على ربك ؟ قال : وما للفقير
أن يقدم به على الغني سوى فقره ؟
وقال سهل بن عبد الله : أرشدنا بمعونتك الطريق إليك . قيل له :

أليس قد هداه الصراط المستقيم حتى صلى وسأل؟ فقال: إنما سأل الله زيادة هدى كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ بسؤالهم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وقال الجنيد: إن القوم إنما سألوا الهداية من الحيرة التي قُدِّرَتْ عليهم من أسماء صفات الأزلية، فسألوا الهداية إلى أوصاف العبودية لئلا يستغرقوا في رؤية صفات الأزلية.

* قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: مقام الذين أنعمت عليهم بالمعرفة وهم العارفون، وأنعم على الأولياء بالصدق والرضا واليقين، وأنعم على الأبرار بالحلم والرأفة، وأنعم على المريرين بحلاوة الطاعة، وأنعم على المؤمنين بالاستقامة.

وحكي عن أبي عثمان أنه قال: صراط الذين أنعمت عليهم بأن عرفتهم مهالك الصراط ومكايد الشيطان وخيانة النفس.

وحكي عن محمد بن الفضل أنه قال: صراط الذين أنعمت عليهم لقبول ما افترضت عليهم.

وقال أبو الحسن الوراق: صراط الذين أنعمت عليهم بالعناية على الاستقامة في طريق مناجاتك.

وقال بعضهم: صراط الذين أنعمت عليهم في سابق الأزل بالسعادة.

وحكي عن بعض البغداديين أنه قال: من أفنيتَه عن النظر إلى النعمة بدوام التنعم بقربك ومؤانستك.

وقال بعضهم: صراط الذين أنعمت عليهم بالنظر إلى جريان ما جرى عليهم في الأزل، فلم يشغلهم كشف ذلك لهم عن الشغل بك .
وحكي عن مالك بن أنس أنه سئل عن قوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؟ فقال: متابعة النبي ﷺ .

وقال بعضهم: صراط الذين أنعمت عليهم بالإيمان والهداية والتوفيق والرعاية والمراقبة والكلاءة .

وقال جعفر بن محمد: صراط الذين أنعمت عليهم بالعلم بك والفهم عنك .

وقال بعض البغداديين: صراط الذين أنعمت عليهم بفناء حظوظهم، وقيامهم معك بحسن الأدب .

وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم بمشاهدة المنعم عن النعمة .
وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم بالإسلام ظاهراً والإيمان باطناً، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ .

وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم بإزالة ظلمات الأكوان عن سرائرهم، وطهرت أرواحهم بنور قدسك فشاهدوك بهمهم ولم يشاهدوا معك سواك .

وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم الذين زمت جوارحهم بالهية عند خدمتك .

وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم من غيبك المستتر بأنوار هدايتك .

وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم بعبادتك على المشاهدة، كما

جاء عن النبي ﷺ أنه قال: أن تعبد الله كأنك تراه .

وسئل سهل بن عبد الله عن قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؟
قال: متابعة السنة .

وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم بأن أذنت لهم في مناجاتك
وسؤالك .

وعن الحسن: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: أبو بكر وعمر
رضي الله عنهما .

* قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾:

قال ابن عطاء: غير المخذولين ولا المطرودين ولا المهانين ، ولا
الضالين الذين ضلوا عن طريق هدايتك ومعرفتك وسبيل ولايتك .

وقيل: غير المغضوب عليهم في طريق الهلكى ، ولا الضالين عن
طريق الهدى باتباع الهوى .

وقيل: غير المغضوب عليهم المستهلكين في مفاوز الشيطان ،
ولا الضالين المطرودين عن طاعة الرحمن .

وقيل: غير المغضوب عليهم برؤية الأفعال ، ولا الضالين عن
رؤية المنن .

وقيل: غير المغضوب عليهم بطلب الأعواض على أعمالهم ، ولا
الضالين عن طريق الشكر بتيسير الخدمة عليهم .

وقيل: غير المغضوب عليهم بترك حسن الأدب في أوقات القيام
بخدمتك ، ولا الضالين عن أن الاستغفار والإنابة .

وقيل: غير المغضوب عليهم بالرياء ، ولا الضالين بترك السنن

في أركان العبادات .

وقيل: غير المغضوب عليهم بترك قراءة هذه السورة في صلواتهم ،
ولا الضالين عن ترك قراءتها .

وقيل: غير المغضوب عليهم بأن وكتهم إلى أنفسهم ، ولا الضالين
بقطعك الاعتصام عنهم .

وقيل: غير المغضوب عليهم باتباع البدع ، ولا الضالين عن سنن
الهدى والسنة .

❖ في قول القائل «آمين» بعد قراءة هذه السورة في صلاته والجهر بها:

قال ابن عطاء: أي كذلك فافعل ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين .
وقال جعفر: «آمين» أي قاصدين نحوك وأنت أكرم من أن تخبّ
قاصدك .

وقال الجنيد رحمه الله: معنى «آمين» أي عاجزين عن بلوغ الثناء
عليك بصفاتنا إلا باتباع محمد الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقال بعض العراقيين: «آمين» أي راجين إجابة هذه الدعوات التي
دعوناك بها .

وقال بعضهم: مستقيلين من جميع أسئلتنا، لأن حسن اختيارك
لنا خير من اختيارنا .

وقيل: «آمين» أي راضين بما قضيت علينا ولنا .

الفهرس

بين يدي: «الموسوعة الكيالية في حب الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»5

9.....	تصدير الأستاذ الدكتور هاشم محمد علي مهدي
36.....	المقدمة
46.....	مسائل مهمة تتعلق بسورة الفاتحة
46.....	أولاً: فضائل الفاتحة وما يستنبط منها
49.....	ثانياً: أسماء سورة الفاتحة وأسباب هذه التسمية
52.....	ثالثاً: مقصود الفاتحة
58.....	رابعاً: عدد آيات سورة الفاتحة
59.....	خامساً: موضع نزول الفاتحة
59.....	سادساً: قراءة الفاتحة في الصلاة
62.....	تفسير قوله تعالى ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾
84.....	تفسير قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
111.....	تفسير قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
156.....	تفسير قوله تعالى «الله»
176.....	تفسير قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
192.....	تفسير قوله تعالى «العالمين»
199.....	تفسير قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
205.....	تفسير قوله تعالى ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾
234.....	تفسير قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

- 302..... تفسير قوله تعالى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
- 338..... تفسير قوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
- 361..... تفسير قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾
- 390..... تفسير قوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾
- 399 بيان ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من آداب وعقائد وعبادات وأحكام
- 414..... من لطائف هذه السورة.
- 427..... ملخص في التفسير الإشاري لسورة الفاتحة
- 446..... الفهرس

*** ** **

التنضيد الضوئي والإخراج الفني
مركز الحجازي - حلب 0933597755

- الروض الباسم في شمائل المصطفى أبي القاسم ﷺ . ط/8
- 1- أحكام الطهارة والصلاة على المذهب الشافعي . ط/3
 - 2- أحكام صلاة الجماعة والجمعة في المذهب الشافعي . ط/2
 - 3- أحكام الصيام ومسائل مهمة في الزكاة فقه مقارن . ط/3
 - 4- عقيدة الإمام ابن كثير في آيات الصفات . ط/4
 - 5- عقيدة الإمام القرطبي في آيات الصفات . ط/2
 - 6- عقيدة الإمام ابن عطية في آيات الصفات . ط/2.
 - 7- عقيدة الإمام الشوكاني في آيات الصفات . ط/3.
 - 8- عقيدة الإمام العز ابن عبد السلام في آيات وأحاديث الصفات
 - 10 - عقيدة الإمام النووي في أحاديث الصفات ط/3.
 - 11 - عقيدة الإمام ابن حجر في أحاديث الصفات ط/3.
 - 12 - عقيدة الإمام البغوي في أحاديث الصفات ط/1.
- وقد جمعت هذه الرسائل في مجلد كبير أسميته (عقيدة السلف الصالح في آيات وأحاديث الصفات) طبع ونشر دار البشائر .
- 13 - الفرقة الناجية هي الأمة الإسلامية كلها . ط/15
 - 14 - محاضرات في أحاديث الأحكام طبع في دبي . ط/1
 - 15 - شرح الأحاديث النبوية النفيسة مجموعة الأزهار الشذية .
 - 16 - شرح الأحاديث النبوية النفيسة مجموعة النفحات الإيمانية . ط/1
 - 17 - هداية الرواة إلى تخريج المصابيح والمشكاة للحافظ ابن حجر العسقلاني دراسة وتخريج وتحقيق (3 مجلدات) وهي عبارة عن رسالة دكتوراه في الحديث الشريف من جامعة الأزهر/خ
 - 18 - الأدعية والأوراد لسيدنا محيي الدين بن عربي ، مراجعة وإضافة بعض

الأمور المهمة/ط1

- 19 - طريق الولاية عند الإمام الشعراني (مجلد)
20 - تحقيق كتاب الموازين الذرية المبينة لعقائد الفرق العلية للإمام
الشعراني (مجلد)
21 - يُمنُ الإسلام بشرح الأحاديث النبوية النفيسة في الآداب والأخلاق
والأحكام. ط/1
22 - فقه الطهارة والصلاة على المذهب الشافعي مقارناً بالمذاهب الأخرى.
23 - الفتاوى الشرعية المعاصرة مجموعة (إطالة النور)
24 - الفتاوى الشرعية المعاصرة (طريق الهداية)
25 - الفتاوى الشرعية المعاصرة (سبيل النجاة).

تطلب الكتب المتوفرة من هذه القائمة

من مكتبة المستقبل - حلب - أقيول (3230008)

*** **